وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة

الرِّحلات في التاريخ العالمي

(العصور قبل الحديثة)

تأليف : ستيفن س غوش
وبيتر ن ستيرنز

ترجمة : وفيق فائق كريشات



الرِّحلات في التاريخ العالمي

(العصور قبل الحديثة)

الرِّحلات في التاريخ العالمي

(العصور قبل الحديثة)

تأليف : ستيفن س غوش
وبيتر ن ستيرنز
ترجمة : وفيق فائق كريشات

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

العنوان الأصلي للكتاب

.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م.- ص؛ ٢٥

سم.

١- ٢- ٣- العنوان ٤-

مكتبة الأسد

تصدير

هذا الكتاب نتيجة تعاون ابتدأ منذ بضعة عقود في جامعة روتجرز لَمَّا أشرف أحدنا على رسالة الدكتوراه للآخر. في تلك الأيام، كان تركيزنا الأكبر على التاريخ الأوروبي. لكن العالم تغير في السنوات التالية، وكذلك نحن. دخلنا، بالتدريج، في مسلكين مستقلين إلى ميدان التاريخ العالمي الآخذ بالبروز، فأصبح أحدنا مؤلفاً له الصدارة بين مؤلفي الكتب التدريسية والأعمال الأكثر تخصصاً، وركَّز الآخر على التعليم.

تجتمع مقاربتان للماضي الإنساني في هذا الكتاب. أحدنا أميل إلى أن يكون «باراشوتياً» (إذا استعرنا التعبير التصويري لعالم فرنسي بارز)، يعمل مسحاً لأهم سمات المشهد الذي في الأسفل، أما الآخر فهو أميل إلى أن يكون «جامع الكمأة»، يحفر في حيوات الرحالة فرادى. سوف يحكم القراء بأنفسهم على مقدار نجاحنا في حَبْك هاتين المقاربتين معاً، وعلى مدى ما أفضتا إليه من تفهمات جديدة لمعنى الرحلات في العالم قبل الحديث.

كثيرون كانوا عوناً في دفع هذا الكتاب قدماً على طريق الاكتمال. نشكر كِفِن ريلي وويليا كلارك وروبرت غوف وإدوارد فريدمان وبيتر بيردو وإنغولف فوغلر وجيمس أوبيرلي وماتيو ووترز وتشاد أندرسون على قراءتهم للنسخ الأولى من شتى الفصول، واستماعهم إليها، وتقديمهم النصائح القيمة. في روتلدج، كانت فيكتوريا بيترز محررة من أكثر المحررين صبراً ومراعاة لمشاعر الآخرين؛ كانت إيما لانغلي وجيسون ميتشل نموذجين للأدب والكفاية. في جامعة ويسكونسن - أو كلير، نشكر قسم التاريخ وكلية الفنون والعلوم ومركز التعليم الدولي ومكتب البحوث الجامعية تقديمهم التمويل والفرصة الضروريين للسفر. كذلك، نحن ممتنان لفيكتوريا فليتشر وزملاء آخرين في ما يتعلق بأمور جامعة جورج ميسن. ختاماً، شكر خاص يوجّه إلى إلين كريمر، واحدة من رحَّالة وقتنا الحاضر الأكثر جَلَداً والأطيب معشراً، لقراءتها بضع مسوَّدات لهذا الكتاب، والاستماع إليها ونقدها وتشجيعها.

الفصل الأول

مُقَدِّمة

لماذا الارتحال؟

وقع حب ابن بطوطة في قلوب أساتذة التاريخ العالمي. سار هذا الرحالة من شمالي أفريقيا ما يزيد على ٧٥٠٠٠ ميل خلال حياته، على القدمين وعلى الحمار وبالسفينة، زائراً ثلاث قارات وجزراً كثيرة، ومُخبراً عنها، جامعاً بين الوصف البارع والأحكام القيمية القوية. إنه ينبئنا كثيراً عن مجتمعات زمانه – القرن الرابع عشر – وتوحي رحلاته إيحاء واسعاً بالسياق الأكبر للاحتكاكات ما بين الأقاليم، ومن ذلك وسائل النقل المتاحة. لكن، هاهنا ما هو أكثر من مجرد الإخبار. إن دوافعه – لماذا يذهب المرء هذا الذهاب البعيد في أحوال تتطلب هذا القدر الكبير من الصبر والجهد؟ – تستثير التخمين في ما يتعلق بما دفع بعض الناس الاستثنائيين للانسياق وراء فضول واسع كهذا. لعواقب رحلاته حساب أيضاً: كانت رحلاته، وأخرى مثلها، عوناً على استثارة أنواع من الصلات، في مرحلة فاصلة يتحول فيها التاريخ العالمي من كونه، في معظمه، حكاية عن أماكن منفصلة إلى تحليل للتأثيرات المتبادلة.

* * *

يدور هذا الكتاب حول بعض أعظم الرحالة في التاريخ العالمي، أناس كثيراً ما ساروا آلاف الأميال إلى أماكن كانوا لا يعرفون عنها إلا القليل أو

لا يعرفون شيئاً، قبل أن يُجعل السفر أكثر سهولة بوسائل النقل الميكانيكية أو حجوزات الفنادق. يدور الكتاب أيضاً حول أناس مجهولين، مرة أخرى قبل الأزمنة الحديثة، أناس قطعوا مسافات عظيمة لكن لم يخلِّفوا سجلاً شخصياً. هم أيضاً كانوا عوناً على إحداث تغيير بمسيرهم الطويل.

الرحلات، ولا سيما العابرة للحدود الثقافية أو السياسية، مثيرة دائماً. لقصص كبار الرحالة في العصور قبل الحديثة نصيبها من المغامرة. لكن، في الرحلات أكثر من مجرد النوادر المثيرة. فالرحلات تكشف أيضاً أشياء كثيرة عن المجتمعات التي تقع فيها. لا تشتمل فقط على منظومات النقل، بل على التنظيم السياسي وأنماط التجارة أيضاً، بل حتى الاعتقادات الدينية. دوافع الرحالة نفسها مرآةٌ للعصور التي عاشوا فيها. لكن على نحو مباشر أكثر من ذلك، تقدِّم روايات الرحالة أحياناً المعلومات الوحيدة فعلياً التي نملكها في ما يتعلق بمجتمعات بعينها في الماضي، مثالها الامتدادات الشاسعة لأقوام آسيا الوسطى الرحّل.

للرحلات نتائج أيضاً. لقد كان لبعض أسفار الماضي الكبرى - بوساطة التقارير وببساطة بوساطة العثور على مسالك تستبقي على حياة سالكها - تأثير في الخطط السياسية والدبلوماسية. كانت أسفاراً قدَّمت عوناً على إيقاد جذوة صلات تجارية جديدة، أو ممرات للإرساليات الدينية. إن السفر قوة من القوى التي شكّلت التاريخ العالمي، بحفزها أنواعاً جديدة من الاحتكاكات بين شتى شعوب العالم.

بالطبع، من المستحيل تغطية كل رحلات المسافات الطويلة التي حصلت منذ أوائل العصور إلى سنة ١٥٠٠. إن كثيراً من الرحالة لم يخلِّفوا سجلَّات مباشرة، علماً أنَّ لدينا أحياناً أدلة أخرى تتيح لنا بعض المعلومات عن تجار أو مبشرين مخاطرين، وإن كنا لا نعرف أسماءهم. حتى إننا في إحدى الحالات، كما سنرى في الفصل الثامن، لا يمكننا التأكد من أن أحد أشهر الرحالة قد ذهب حيث قال إنه ذهب. لكن، هاهنا سجلات عن الرحلات أكثر منها عن

كثير من النشاطات الإنسانية الأخرى، ولا سيما في القرون الماضية كان الأمر غير معتاد إلى حد ما. وهكذا فقد أتيح لنا الوصول إلى بعض القصص الفردية العظيمة، تمكّننا من رؤية كيف تلقي الرحلات الضوء على القضايا السياسية والثقافية الأكثر اتساعاً في العصور الماضية، وتمكّننا من رؤية العواقب التي ألهمها بعض الرحالة الكبار.

كذلك تمكّننا من معرفة كيف تغيَّر السفر. إن الطرائق الجديدة في النقل، والمنظومات السياسية الأكثر فعالية، والأنواع الجديدة من الدافعيات الدينية قد أثرت جميعها في السفر. السفر نفسه أحدث أيضاً تغييراً، إذ حفزت المعلومات عن رحلة من الرحلات الآخرين للانطلاق في مغامرات خاصة بهم. إن السفر، والمعلومات التي أتت بها الأسفار، عون على الإجابة عن تساؤلنا: لماذا، بحلول سنة ١٤٠٠ أو نحوها، صار المزيد من الناس، من المزيد من المجتمعات، ينطلقون في رحلات طموحة أكثر من ذي قبل؟.

للسفر خصائص إنسانية مميزة. يسافر كثير من الحيوانات مسافات طويلة. بعضها مبرمج وراثياً ليهاجر مع الفصول أو ليعود إلى مكان مولده ليُخرج نسلاً له. البشر ليسوا موجَّهين وراثياً إلى مسالك للسفر معينة، هم أكثر اضطراراً إلى التجريب. لكن النوع يستطيع التكيف مع مجموعة متنوعة من البيئات، وهذا شرط مسبق مهم للسفر. من السهل الدفع إلى السفر بالحاجة الاقتصادية. وفي بعض الحالات، من الممكن الدفع بالفضول المحض أيضاً.

اشتمل النوع الأول من الاقتصاد الإنساني، الصيد والالتقاط، على ارتحال كبير، على الأقل داخل إقليم واحد، بحثاً عن الطرائد. من الممكن لزيادات قليلة نوعاً ما في عدد السكان، في اقتصاد كان يتطلب الكثير من المجال لكل شخص لإنتاج الغذاء الكافي، أن تجبر البشر على الهجرة حتى إلى مسافات بعيدة. وعليه فإن «هومو سابينز سابينز»، وهو أحدثُ أنواع الإنسان، الذي ننتسب إليه كلنا، قد خرج من شرقي أفريقيا، وهناك ظهر، في هجرات حملت النوع إلى جميع مناطق العالم القابل للسكنى تقريباً بحلول سنة ٢٥٠٠٠ قبل

الميلاد. استمرت أنماط الهجرة بعد ذلك، فأتت بالأقوام الرحّل من آسيا الوسطى إلى الهند والبحر المتوسط وأوروبا، أو نشرت شعوب البانتو من غربي أفريقيا الوسطى إلى الجنوب والشرق معاً.

إن تكن الهجرة برهاناً على أن الكائنات البشرية حيوانات مسافرة، وإن تكن الهجرات قوة حيوية بحد ذاتها، فإن أكبر مدار هذا الكتاب هو حول نوع من السفر مختلف، أكثر فردية – فيه يترك الناس مكاناً، يقطعون مسافات طويلة، لكنهم يعزمون على العودة إلى الديار (ويفلحون عادةً في فعل ذلك). هذا هو نوع السفر الذي يأتي بأخبار عن أماكن قصية يمكنها إثارة خيال شعب المرء نفسه. هذا هو نوع السفر الذي يُقرَن عادةً بالتجارة.

أكثر هذا النوع من السفر – الذهاب، لكن العودة – قد وقع، قبل العصور الحديثة جداً، في المجتمعات الزراعية، حيث كان أكثر الناس في الحقيقة لا يسافرون أسفاراً واسعة. بإزاء الصيد والالتقاط، شجعت الزراعة أكثر الناس على الاستيطان في بقعة واحدة، حيث يمكن تطوير المزارع أو تشييد منظومات الري وغيرها من المرافق. لعل قدراً من الصيد أو التجارة القصيرة المدى يظل ضرورياً، لكن كثيراً من الفلاحين قد أولوا أهمية كبيرة للاستقرار الجغرافي في حيواتهم هم، وخوفاً من الأغراب. لكن حتى الزراعيين أدركوا أن للاحتكاكات مع الأماكن الأكثر بعداً مزايا، حتى لو اقتصر الأمر على التجارة بالسلع الدخيلة. لقد ولّدت المجتمعات الزراعية قلة من الأفراد لم يستطيعوا، مهما تكن أسبابهم الشخصية، أن يقبلوا التقييدات المحلية، فخرجوا لرؤية ما عساهم يجدون في الأماكن الغريبة. كذلك تفاعل الكثير من المجتمعات الزراعية مع الأقوام الرحّل أو غيرهم من الشعوب المتنقّلة بانتظام، ومن الممكن ربْطُ هذا بأنماط السفر الفردية أيضاً.

كان أكثر الرحالة الكبار – على الأقل الذين لنا علم بهم – رجالاً. من الظاهر أن النساء شاركن في الهجرات، لكن المجتمعات الزراعية شددت على الاختلافات الحادة بين الرجال والنساء، فكان يُنتظر من النساء عادةً البقاء في

المنزل أو في ما جاوره، أو في الحد الأقصى الذهاب إلى السوق المحلي. سوف نجد بعض الاستثناءات، ولا سيما في ما يتعلق بالحج الديني؛ وبالطبع هذا الانحياز الجنوسي قد يعكس أيضاً انحرافاً في السجلات. لكن ما من جدال في أن السفر كان غير متاح لعدد من الزمر الأساسية.

لقد كان للناس القليلين – وأغلبهم رجال – الذين قاموا بأسفار واسعة في مجتمعات حيث كانت آفاق أكثر الناس محصورة في حفنة من القرى، كان لهم أن يُحدثوا أثراً غير معتاد، والسبب في ذلك جزئياً هو أن نشاطهم كان غير معتاد جداً. إنهم يتطلبون أيضاً نوعاً خاصاً من التعليل، لمعرفة ما الذي دفعهم لفِعل ما لم يحاول أكثر زملائهم فِعله. إن كتاباً عن السفر قبل أن يصبح السفر روتينياً نوعاً ما يحيط بهذه العناصر والعواقب المميزة.

هل الرحالة يُصدَّقون؟

يعتمد هذا الكتاب كثيراً على كتابات وضعها رحالة يصفون ما رأوه وسمعوه وهم يتنقلون و(أحياناً) كيف يمضون من مكان إلى مكان. لكن، هل رحالة العصور قبل الحديثة يصدَّقون؟ هل الحكايات التي أنتجوها مصادر موثوقة للأدلة عند العلماء الحديثين؟ ذات يوم كتب سترابو، وهو رحالة يوناني من القرن الأول الميلادي، يقول: «كل محدّثٍ بقصة رحلاته متبجِّح». كما سنرى في سياق هذا الكتاب، التباهي بمغامرات المرء الشخصية على الطريق أو في البحر كان سمة لأدب الرحلات في العصور قبل الحديثة، سمة مستمرة، لكن ليست عامة. لكنّ أَخْذَ موقف من التشكيك الصحي من جانب القراء الحديثين، والانتباهَ الدقيق إلى العناصر المتنوعة والمتناقضة أحياناً المندسة في حكايات الرحلات، والاستعمالَ الحذر لمصادر الأدلة الأخرى يُمكن لذلك أن يصوّبَ تبجحات الرحالة ويُمكّنَ البحاثة من التمييز، في أكثر الأحوال، بين ما هو ثابت تاريخياً وما ليس كذلك. هذه المقاربة العامة مجدية أيضاً في التغلب على معضلة ثانية قائمة في صلب أكثر أدب الرحلات في العصور الحديثة، بالتحديد ميل الرحالة للإغراب، وللإتيان بخيالات في ما يتعلق بالبلدان والشعوب التي يزورونها.

لم يقتصر رحالة العصور قبل الحديثة على التبجح مراراً وتكراراً بتجاربهم، بل صوروا بعض الشعوب التي قابلوها في مسيرهم بصفتهم غريبين وغير اعتياديين، بصفتهم «آخرين» مختلفين عنهم، بل غالباً منحطين. أحد جوانب أكثر أدب الرحلات قبل سنة ١٥٠٠، وهو الذي ينبغي لكل الطلاب أن يظلوا يقظين له، هو التباين، وكثيراً ما يكون ضمنياً غير صريح، بين «نحن» «الطبيعيين» وبين «هم» «الشاذين». بل إن بعض الرحالة في هذا الكتاب ذهبوا أبعد من ذلك، متبّلين رواياتهم بقصص خيالية عن كائنات هولات، من المعتاد أن يقال إنها تقطن الأطراف الخارجية للأرض، حيث لم يتجاسر الأديب الرحالة على الذهاب.

إن التبجح و«الآخَرية» والخيالات عن المخلوقات الغريبة والهولات في حكايات رحلات العصور قبل الحديثة أفضى ببعض البحاثة إلى رفض معظم هذا الأدب بصفته غير ذي قيمة حقيقية للمؤرخ. حاجج بعض العلماء، وأكثرهم في ميدان الدراسات الأدبية، أن أدب رحلات العصور قبل الحديثة مفيد، لكن فقط في فهم اعتقادات الرحالة وتوقعات جمهوره أو جمهورها في الوطن. إن كتاباً عن هيرودوت هو من أمتع الكتب الصادرة حديثاً، وهو من عمل فرانسوا أرتوغ، يدعي بالضبط هذه الدعوى (لأجل تمام الشاهد ارجع إلى «للاستزادة» أدناه). ذاهبين إلى أبعد من ذلك، تشير مجموعة من العلماء النافذين – المتخصصين في أدب الرحلات للأدباء الغربيين منذ سنة ١٨٠٠ – وهي محقة فيما تشير إليه من أن كثيراً من الرحالة الأوروبيين والأميركان الحديثين سجلّوا تجاربهم كتابةً مدفوعين إلى ذلك، جزئياً، بتبرير حُكْم«نا» لـ«هم».

لقد أسهم نقاد روايات الرحلات، الحديثة وقبل الحديثة، إسهاماً قيماً في لفت الانتباه إلى العيوب الخطرة التي تظهر حقاً في هذا الصنف من الأدب. لكن معظم الأدلة الوثائقية التي يستعملها المؤرخون، لا سيما إذا كانت بؤرة بحثهم هي في ما قبل سنة ١٥٠٠، يعتورها النقص بطرق شتى، على نحو مهم في كثير من الأحيان، وليس أدب الرحلات فقط. إلى حد ما، هذه المعضلات

في المصادر هي التي تجعل البحث التاريخي ممتعاً، بل لهواً. كيف نعلم شيئاً عن أي جانب من الماضي الإنساني؟ كيف نصوّب انحيازاً أو وجهة نظر في قطعة أدبية لرحالة أو أحد آخر؟ يواجه المؤرخون هاتين المسألتين في كل يوم من أيام أعمارهم المهنية. وأجوبتنا هي حقاً غير معقدة جداً: ندرس الدليل بعناية ونضعه في الميزان بإزاء المصادر الأخرى. إن الذي نكتشفه لا يعدو غالباً أن يكون شيئاً معقولاً معقولية مقارنة، لا أن يكون «صادقاً» أو «كاذباً». و«استنتاجاتنا» تكاد تكون دائماً مؤقتة، عُرضةً للتغيير في ضوء الأدلة الجديدة أو الطرق الجديدة في فحص الأدلة أو التفكير فيها.

تاريخ عالمي؟

يغطي هذا الكتاب جانباً واسعاً من الميدان التاريخي والجغرافي، لكن كما لاحظنا أعلاه، هو أبعد من أن يكون قصة تامة للرحلات قبل سنة ١٥٠٠. مراعاة للناحية العملية، حُذفت أقاليم مهمة كالأميركيتين وجزر المحيط الهادئ. يعلم العلماء الحديثون، ولا سيما الأثريون، أنه قبل سنة ١٥٠٠ بوقت طويل وقعت رحلات طويلة المسافة، كثيرة، في الأميركيتين وبين سلاسل الجزر الكبرى في المحيط الهادئ. لكن الأدلة المتوفرة عن هاتين المنطقتين – بالمقارنة مع أفروآسيا – لاتزال محدودة جداً، علماً أن هذا الأمر آخذ في التغيير، كما يتضح من كتب تشارلز مان وبين فيني وغيرهما (انظر «للاستزادة» أدناه). يصدق الأمر نفسه على الرحلات من الهند وجنوبي شرقي آسيا، الإقليمين اللذين أنتجا وفرة في الرحالة الشديدي التحمل، بيد أن السجلات الوثائقية ضعيفة. رغماً عن هذا الحذف، القصد من هذا الكتاب أن يكون إسهاماً في التاريخ العالمي، بؤرته الرحلات بين المناطق الكبرى في أفروآسيا قبل العصور الحديثة، التي من الراجح أنها كانت تشتمل سنة ١٥٠٠ على ٨٠٪ من الجنس البشري. بفعل ذلك، يأمل المؤلفَان أن يضيف الكتاب شيئاً جوهرياً إلى النقاش الواسع النطاق الدائر اليوم في أصول العولمة وطبيعتها.

الفصل الثاني

البدايات إلى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد

مُقَدِّمَة

من الثابت أنه ابتداءً من نحو سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد طرأ ازدياد ملحوظ في تواتر وطول الأسفار في إقليم الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، المنطقة التي يحيط بها نهر نيل مصر من الغرب، ومن الشرق، إقليم نهر السند في ما هو اليوم باكستان. كذلك امتدت الأسفار المهمة في أفريقيا إلى الجنوب من مصر. لكن أنماط السفر قبل تطور حضارات أودية الأنهار الباكرة أقل وضوحاً.

العصران الباليوليتي المتأخر والنيوليتي، ٢٥٠٠٠–٣٥٠٠ قبل الميلاد:

يمكننا فقط الحزر في ما يتعلق بأبكر الأمثلة على رحلات المسافات الطويلة، لأنها حصلت قبل وقت طويل من وجود أية سجلَّات مكتوبة. تقدّم شيئاً من العون الأدلةُ الأثرية التي تتعلق بكلٍّ من انتشار الأساليب الفنية بين أهل الصيد والالتقاط الباليوليتيين ومدى شبكات التجارة الباكرة التي أقامها المزارعون النيوليتيون.

عُثر على منحوتات لإناث بالغات، تُعرَف بتماثيل فينوس، في مواقع كثيرة من الباليوليتي الأعلى، تعود إلى نحو سنة ٢٥٠٠٠ قبل الميلاد. تنتشر أماكن اللقى على رقعة ضخمة تمتد من أوروبا الغربية إلى سيبيريا. رغم أن المنحوتات الصغيرة جداً تختلف بطرق كثيرة، فإن فيها من السمات المتشابهة ما يكفي للإيحاء بانتشار أسلوب فني مشترك، لمَّا كان من غير المحتمل أن رحالة

واحداً، أو زمرة من الرحالة، حملت التصميم الأساسي للتماثيل من سيبيريا إلى أوروبا الغربية (أو بالعكس)، فكيف كان لهذا الأسلوب في الصنعيات أن ينتشر هذا الانتشار الواسع؟.

سكن أكثر أهل الصيد والالتقاط في مخيمات ضمن جماعاتٍ صغيرةٍ ومنفصلةٍ انفصالاً واسعاً ومهاجرةٍ. تشكّلت تحركاتهم على هدي من تعاقب الفصول وأنماطِ هجرة الحيوانات البرية والطيور والأسماك التي يعتمدون عليها. لكن جماعات كهذه كانت أبعد من أن تكون معزولة. لقد اتصلت بالجماعات الأخرى بطريقتين، بصورة مباشرة باشتراكها في الاجتماعات الكبيرة الدورية (ومثالها باوّو عند هنود أميركا الشمالية)، وبصورة غير مباشرة بعضويتها في منظومات التبادل «في خطّ نازل».

كان أهل الصيد والالتقاط من قواعدهم في مخيمات متناثرة يعقدون فيما بينهم، من وقت لآخر، اجتماعات حاشدة من طراز باوّو لتجديد الصداقات، وللأكل والرقص، ولترتيب الزيجات، ولتبادل المعلومات عن الحيوانات والنباتات. أحدثت اجتماعات كهذه وسطاً للتبادل التداولي في شتى الأشياء الصغيرة (القواقع أو الكهرمان المصقول أو الخشب أو الحجر المحفور، إلخ). في تعاملات جمعت بين جانبي الهدية والتجارة. هاهنا طريقة يمكن أن يتطور بها أسلوب فني مشترك، وأن ينتشر بين جماعات الصيد والالتقاط الواسعة الانتشار.

يُراد بالتبادل «في خط نازل» طرازٌ من الشبكة التتابعية التي تربط الجماعات ربطاً غير مباشر. أقدم الأدلة المكتوبة على هذا الطراز من المنظومات موجود في كتاب هيرودوت، المؤرخ والرحالة اليوناني من القرن الخامس قبل الميلاد (وسنلقاه مرة أخرى في الفصل التالي). في الشبكة التي يصفها هيرودوت، كانت الجماعات في مواضع تتراوح من آسيا الوسطى إلى جزيرة ديلوس اليونانية مرتبطة الواحدة بالأخرى: «تأتي الأكثرية الغالبة من هذه القصص عن الهيبيربوريانيين [هم عند اليونانيين شعب من الشمال الأقصى يرد

ذكره في المرويات] من ديلوس. يقول أهل ديلوس إن الأشياء المقدسة تُحزم داخل حزمة من قش القمح وتُنقل من الهيبيربوريانيين أولاً إلى سقوثيا [في آسيا الوسطى]، ثم غرباً أبعد ما يمكن – أعني إلى الأدرياتيكي – بوساطة سلسلة من القبائل المتتالية، ثم إلى دودينا (وهم أول جماعة يونانية تتسلّمها)، ثم إلى خليج ماليا، هناك تعبر إلى يوبيا، حيث تُمرَّر من بلدة إلى بلدة حتى تصل إلى كاريستوس، وفي هذه المرحلة تُحذف أندروس، لأن الكاريستوسيين هم حَمَلَتُها إلى تينوس، ومن تينوس تُنقل الأشياء إلى ديلوس. [هيرودوت].

في هذه الفقرة، يصف هيرودوت نوع منظومة التبادل التي من الراجح أنها قد يسّرت، قبل ذلك بآلاف السنين، التوزيع الواسع لتماثيل فينوس بين أهل الصيد والالتقاط الباليوليتيين. في منظومة «في خط نازل»، تسافر الأشياء والمعلومات أبعد من سفر الناس.

* * *

يمكن وضع خريطة لشبكات التجارة الباكرة بين المزارعين النيوليتيين في إقليم الشرق الأوسط وبحر إيجة باقتفاء آثار انتشار معدنين شبه ثمينين، هما السَبَج واللازورد. تحديد المسالك التي نُقلت عبرها هاتان المادتان ممكن لأن مصادر المعدنين كانت محدودة. السبج زجاج بركاني أسود أو أخضر قاتم كان ذا قيمة في صنع أدوات القطع الحادة، ومن ذلك المواسي والأشياء التزيينية. كان يستخرج من مقالع في مواقع قليلة في شبه الجزيرة الأناضولية وفي جزيرة ميلوس الإيجية الصغيرة. اللازورد معدن أزرق قاتم كان يستعمل لصنع الخرز والحلي والأواني التزيينية. عروقٌ في ما هو اليوم شمالي شرقي أفغانستان وجنوبي باكستان هي المصادر الوحيدة للازورد.

إن النتائج التي تحصَّلت من التنقيبات الأثرية للمعدنين تبيّن بوضوح انتقال السبج واللازورد مسافات طويلة. استخرجت الحفريات في البرِّ اليوناني في مواقع تعود إلى نحو سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد، استخرجت قطعاً من السبج يمكن اقتفاء أثرها إلى ميلوس، نحو مئة ميل من أماكن اللقى. استخرج البحاثة

العاملون في الأجزاء المستقيمة العليا من نهر دجلة في ما هو اليوم شمالي العراق، في موقع يعود إلى نحو سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد، بضع مئات من حبات الخرز المصنوعة من اللازورد. تبعد أماكن اللقى العراقية أكثر من ألف ميل عن مصادر الفلز في أفغانستان وباكستان.

يُثبت التوزع الجغرافي لأماكن لقى السبج واللازورد أنه في أثناء العصر النيوليتي حصل تبادل عبر مسافات بعيدة، لكن لا يمكننا التأكد من كيفية نقل السلعتين. من الممكن أن راكبي البحر من البر اليوناني قد استعملوا القوارب المصنوعة من جذوع الأشجار أو الجلد أو القصب ليحْجلوا من جزيرة لأخرى عابرين بحر إيجة إلى ميلوس. (قبل ذلك بكثير، منذ نحو ٦٠٠٠٠ سنة، استعمل أول من استوطن غينيا الجديدة وأوستراليا من البشر قوارب، غير معلومة صفتها، لشق طريقهم خلال الماء المفتوح على ستين ميلاً من الأرخبيل الإندونيسي). في حالة اللازورد، من غير المحتمل أن تكون أية زمرة مفردة من أهل التجارة قد ارتحلت تمام المسافة من أراضي أفغانستان العالية أو الباكستان إلى وادي دجلة. الأمر الأكثر احتمالاً هو أن نوعاً من شبكة «في خط نازل» هو المسؤول عن جلب المعدن إلى منطقة دجلة.

حضارات أودية الأنهار، ٣٠٠٠-٢٠٠٠ قبل الميلاد

في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، وقعت سلسلة من التحولات المحورية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والتقانية غيرت وجه الحياة في الأجزاء المستقيمة السفلى من نهري دجلة والفرات. أفضت التحولات إلى قيام أول حضارة (أو مجتمع معقد) في العالم، ما أحدث في الوقت نفسه الشروط المؤدية إلى ازدياد كبير لا سابق له في الأسفار لمسافات طويلة. بعد ذلك، حصلت، على نحو ما، تطورات مشابهة في وادي النيل(٣١٠٠ قبل الميلاد) وفي وادي السند (٢٩٠٠ قبل الميلاد) في ما يُعرف اليوم الباكستان. سرعان ما تطورت الاحتكاكات والتبادلات بين حضارات أودية الأنهار الثلاث، ما أفضى

إلى قيام نطاق أو رواق شاسع للتبادل الداخلي البعيد المدى في إقليم النيل– السند.

بعد ذلك بقرون قليلة، وعلى بُعدٍ كبير من منطقة النيل– السند شرقاً، أخذت حضارة رابعة في البروز على طول النهر الأصفر في شمالي الصين. كانت التطورات في منطقة النهر الأصفر مشابهة لتلك في نطاق النيل– السند، لكن الاحتكاكات كانت قليلة بين الصين والإقليم في غربها إلى مدة طويلة بعد ذلك. (لتعاظم الأسفار بين الصين والغرب، انظر الفصلين الخامس والتاسع).

* * *

كانت الدعامة الرافعة لظهور الحضارة في رَقّة(١) دجلة – الفرات هي نمو فائض زراعي، فائض سرعان ما رافقه تحوّل صاعد في التجارة البعيدة المدى. أدى تشييدُ بنية معقّدة من قنوات الري التي تحكمت بجريان مياه دجلة والفرات في أثناء فصول الصيف إلى رفع ناتج الشعير والقمح. نتيجة لذلك، أصبح الشعب الذي كان يسكن في هذه المنطقة، ويدعى السومريين، أول شعب من الحرّاث في التاريخ العالمي ينتج فوائض زراعية كبيرة، ما سمح لـ١٠٪ من عديده بالاتجاه نحو أنوع أخرى من العمل، فجعل إقامة أولى المدن الحقيقية أمراً ممكناً.

بحلول سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، أخذت المدن السومرية بالبروز كمراكز لمنظومة متسعة من التجارة البعيدة المدى، كان من الراجح أن عمادها شبكات «في خط نازل» موجودة سلفاً. اكتشف البحث الأثري في المواقع المدينية السومرية الباكرة طاسات حجرية منتجة في إيران، وأواني مصنوعة من فلز مستخرج من مقالع في جبال طوروس في الأناضول الشرقية، ومجموعة متنوعة

(١) الرقة سهل معرّض للانغمار بمياه الفيضان – المترجم.

من الأشياء التزيينية المصنوعة من اللازورد من شمالي شرقي أفغانستان. لقد انضافت العائدات من التجارة بسلع الترف إلى الفائض المتحصل من الحرّاث.

نتجت منطقياً تحولاتٌ دائمة اجتماعية وثقافية ودينية عن التطورات في الزراعة والتجارة السومريتين. ذهب الفائض الذي أنتجه المزارعون، في صورة إيجارات وضرائب، إلى نخبة متشكلة حديثاً من أصحاب الأراضي والموظفين الدينيين والقادة العسكريين ورجال الإدارة الحكوميين، ولقد استعمل كثيرٌ منهم الصنعياتِ البرونزية وسلع الترف المتحصلة من أماكن بعيدة شعارات لسلطتهم. لقد صارت الحدود الطبقية حادة. وصارت علاقات الجنوسة أكثر أبوية. تشكلت شبكات غير رسمية من الزعماء الروحيين في صورة كهانة منظمة. حلت الدول–المدن، التي يديرها موظفون يستعملون منظومات للكتابة مطورة حديثاً وتساندها جيوش محترفة، محل طرز من التنظيم السياسي أقل انتظاماً. أعطت البنى الضخمة كأسوار المدن والحصون والمعابد والمخازن والقصور والقبور صورة مرئية للتراتبات الآخذة بالبروز وعززتها.

كان المحفز لنموّ أسفار المسافات الطويلة مجموعة متقاربة من التطورات الإضافية في إقليم دجلة – الفرات في أواخر الألف الرابع، وجميعها في النقل. قبل سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد بوقت ما، اخترع السومريون العَجَلة وأصبحوا أول شعب يستعمل الثيران لجر العربات، وهذان ابتكاران لهما مضامين جلية في ما يتعلق بمستقبل السفر البري على المدى الطويل. لكن على المدى القصير، لم يكن للعجلة والعربة أثر في السفر لمسافات بعيدة لأنهما كانتا تحتاجان إلى طرق ملساء نسبياً لتعملا بفاعلية. كانت الطرق من هذه النوعية نادرة إلى ما بعد ذلك بوقت طويل.

كان الأهم بكثير للنقل البري على المدى القصير، ولا سيما لرحلات التجار، إدخال الحمار بصفته حيواناً للحمل. الحمار من الدواب البلدية في شمالي أفريقيا وغربي آسيا، ويبدو أنه قد دجّن في الألف الرابع (أو قبل ذلك بوقت ما). وهو حيوان شديد التحمل، ثابت القدم، قابل للتدريب، يستطيع حمل الأثقال الكبيرة

مسافات طويلة على «طرق» لا تعدو كونها ممرات للمشاة. المكان والزمان اللذان استُعمل فيهما الحمار لأول مرة في قطارات الحمل أو قوافله غير معروفين، لكن الأدلة الأثرية توحي أن قوافل الحمير استعملت استعمالاً واسعاً لأول مرة في إقليم دجلة – الفرات نحو سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد.

كان الابتكار الأخير في النقل، في الألف الرابع، هو تطوير أولى المراكب الشراعية القوية بما يكفي لحمل الشحنات الثقيلة في البحار الهائجة. (المركبات النهرية القادرة على نقل الأحمال الثقيلة كانت قيد الاستعمال منذ وقت طويل في شتى أنحاء العالم). بحلول سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد كان أصحاب السفن السومريون ينشطون في الخليج الفارسي[١]، وكان المصريون يبحرون في البحر الأحمر وشرقي المتوسط.

الرحلات في إقليم النيل– السند، ٣٥٠٠–٢٠٠٠ قبل الميلاد

قبيل سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ازدادت الأسفار لأغراض اقتصادية وعسكرية ازدياداً ملحوظاً في إقليم دجلة– الفرات. بعد تأخّر قصير، تطور منحى مماثل في وادي النيل، وبعد ذلك بقليل في منطقة السند. أحدثَ تطويرُ طرق للحياة جديدة عمادها الإنتاجُ الزراعي المتسارع والتجارةُ المتسعة والابتكاراتُ في النقل إمكاناتٍ لا سابق لها للسفر في الإقليم الذي يحدده نهرا النيل والسند، لكن الطرق الجديدة للحياة أحدثت أيضاً حاجات قوية يمكن إشباعها فقط بالسفر. لقد أنتج المزارعون في مصر وما بين النهرين ووادي السند كل الغذاء والألياف التي يحتاجونها، لكن المناطق الثلاث كانت تفتقر إلى مصادر محلية للخشب والمعادن كالنحاس والقصدير، وكلاهما يحتاجهما صُنع البرونز.

كان البرونز ضرورياً لتصنيع الأسلحة والأدوات الشعائرية وكثير من أصناف الأدوات والأواني. كان يُحتاج إلى الخشب في كلِّ أصناف البناء، ومن

---

(١) سوف يعلّق المؤلفان على إشكالية هذه التسمية لاحقاً – المترجم.

ذلك بناء المركبات والعربات والقوارب والسفن. كذلك سعت النخب في إقليم النيل–السند وراء شتى أنواع سلع الترف التي يمكن الحصول عليها فقط من بعيد: اللازورد والعطور والخيول، الخ.

* * *

ابتداءً من سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد، كان المنحى في إقليم النيل – السند هو نحو سفر متزايد ومسير أكثر بعداً. لكن توثيق هذا المنحى صعب. ليس قبل اقترابنا من سنة ٢٠٠٠ تقريباً وعصرها سنبدأ في الحصول على أي دليل ذي شأن في ما يتعلق بالسفر.

أحد التلميحات إلى أهمية رحلات المسافات الطويلة في الألف الثالث قبل الميلاد يأتي من جلجامش، القصيدة الملحمة السومرية التي تعود، بصورتها المكتوبة، إلى نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، لكنها تستند إلى تقاليد من القص السومري أقدم منها بكثير. في أحد الأجزاء الأساسية من القصيدة، يسافر جلجامش (وكان في الحقيقة ملكَ أوروك الدولة – المدينة نحو سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد) مع مرافق له إلى غابات الأرز في لبنان (أو شرقي الأناضول) للحصول على الخشب لقصره. بعد محن ومغامرات كثيرة، ومن ذلك معركة مع هولة حارسة للغابة، يقطع جلجامش وصديقه الأشجار التي يحتاجانها، ويحملانها على طوف، ويسيّرانها في الفرات نزولاً إلى أوروك. قليل هو الشك في أن قصة مسير جلجامش إلى غابة الأرز هي صدى أدبي لتراث راسخ من السفر من سومر العديمة الأشجار إلى الأراضي العالية الممطورة في لبنان والأناضول، على مسافة ٦٠٠ أو ٧٠٠ ميل، للحصول على الخشب.

ملحمة جلجامش ملحمة مثيرة تُقرأ، لكن الأكثر قيمة كدليل على أسفار المسافات الطويلة في جنوبي غربي آسيا في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد هي السجلات التجارية والصنعيات التي استحفرها علماء الآثار في الـ ١٥٠ سنة الماضية. مثال ذلك أن نقوش ما بين النهرين من عهد صارغون ملك أكاد (نحو

٢٣٠٠ قبل الميلاد) وما بعده ببضعة قرون تسجل وصول مراكب للتجار من موانئ تقع في ما هو اليوم البحرين وعُمان وإقليم وادي السند. بحسب هذه الكتابات، حملت السفن مجموعة متنوعة من السلع، ومن ذلك النحاس والخشب الصلب واللؤلؤ والعقيق الأحمر (حجر كريم شبه ثمين يستخرج من مقالع غربي الهند ويُستعمل في صناعة الحلي) والذهب.

أفضى البحث الأثري ضمن مواقع في ما بين النهرين والبحرين وعُمان إلى استخراج صنعيات يمكن اقتفاء أثرها إلى حضارة وادي السند، ما يثبت معلومات النقوش. من أهم هذه الأشياء أختام محفورة في الحجر الصابوني وأوزان وخرز ملون من عقيق أحمر. مما يأسر اللب خاصة أختام أسطوانية تعود إلى ما بين النهرين، حُفر عليها الجاموس النهري. إن يكن الجاموس النهري معروفاً في منطقة السند، فهو غير معروف في ما بين النهرين. لم يُعثر في منطقة السند على أشياء كهذه منتجة في ما بين النهرين، لكن عُثر في مواقع في السند على تماثيل صغيرة لذكور تحمل سمات توحي بمعرفةٍ بأساليب النحت الشائعة في ما بين النهرين وإتقانٍ لها.

كان معظم التجارة بين ما بين النهرين ووادي السند غير مباشر. لقد تلاقى أصحاب السفن من المنطقتين كلتيهما في موانئ الخليج الفارسي، ولا سيما في جزيرة البحرين (وتُعرف عند السومريين باسم ديلمون). استُخرجت صنعيات صغيرة عديدة تحمل أسلوب السند من مواضع في البحرين وفي عُمان نزولاً إلى ساحل الجزيرة العربية. عُثر على أختام منتَجة في البحرين ضمن مواقع في ما بين النهرين ووادي السند، ما يقوّي احتمال أن الجزيرة ربما كانت تقوم بدور نقطة إعادة توزيع للسلع القادمة مما بين النهرين ومنطقة السند. وجِدت أيضاً مسالك برية خلال إيران وصلت مدن ما بين النهرين، خلال واحات وبلدات وسيطة عديدة، بمنطقة السند.

هل أكمل أحد من المسافرين المسير المضني من وادي السند إلى ما بين النهرين (أو بالعكس) في الألف الثالث قبل الميلاد؟ سواء أكان السفر برّاً أم

بحراً، فإن الرحلة كانت ستبلغ ألف ميل وأكثر. لا دليل من تنقيبات وادي السند يوحي بحضور لأهل ما بين النهرين (بالطبع، البحث المتواصل في منطقة السند قد يثبت العكس). لكن الحفريات في أور، دولة – مدينة سومرية كبرى على الفرات، أظهرت تلميحات إلى أن التجار والصناع (صناع الخرز) من وادي السند ربما أقاموا جاليات في ما بين النهرين. إن باحثاً له الصدارة في بحوث مواقع وادي السند قد طرح أيضاً رأياً يذهب فيه إلى أن عشر خادمات دُفِنّ في أور مع الملكة بوابي نحو سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد كنَّ نساء من وادي السند، ربما أُرسِلن إلى بوابي كجزء من اتفاقية دبلوماسية. قد يُثبت هذا الرأيَ تحليلُ دي إن إيه (DNA) من رُفات الخادمات، اللاتي دُفِنّ لابسات خرزاً من العقيق الأحمر.

الأسفار التجارية الباكرة

بُعيد سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد أخذ تجار من آشور، العاصمة الآشورية على نهر دجلة في شمالي ما بين النهرين، يقومون بأسفار منتظمة إلى كانيش، وكانت يومئذ دولةً – مدينة مزدهرة وتقاطعَ طرق تجارية في شرقي الأناضول، على بُعد ٦٠٠ ميل إلى الشمال الشرقي. استعمل أصحاب التجارة الآشوريون قوافل حمير، كثيراً ما تألفت من نحو مئتي حيوان، لحمل سلال كبيرة مليئة بالقصدير وأثواب الصوف والكتان إلى المركز التجاري الأناضولي. لما كان معظم الأرض التي يمرون بها عالياً وعراً، فإن الرحلة من آشور إلى كانيش كانت تأخذ عادةً ما لا يقل عن شهر.

كانت كانيش مكاناً يحتوي قصوراً ومعابد كثيرة، لكن وجهة التجار من آشور كانت «كاروم» («الحي التجاري») حيث اعتزموا بيع بضائعهم بالفضة والذهب. كان «كاروم» قسماً من المدينة خُصص للمساكن والإسطبلات والمخازن والأسواق التي يحتاجها التجار، وكان كثير منهم، كأصحاب التجارة من آشور، أعضاء في شركات قواعدها في مدن بعيدة.

قدّمت الاتفاقيات التي تم التفاوض عليها مع سلطات كانيش الحماية للتجار من العنف، ومنحتهم أيضاً شكلاً محدوداً من الحكم الذاتي. مقابل ذلك، قدّم أصحاب التجارة دفعات كضرائب للمدينة. تشترط إحدى هذه الاتفاقيات، وهي إحدى المدونات الكثيرة المحفوظة على آلاف الرُقُم الطينية التي عُثر عليها في كانيش، فرْضَ ضريبة ٥ ٪ على المنسوجات و ٤ باوندات[١] على كل حِمل حمار من القصدير.

آلاف الألواح الطينية التي استُحفرت في كانيش، ابتداء من عشرينيات القرن العشرين، مهمة لأنها تمدنا بأدلة وافرة على أعمال شبكة السفر الواسعة، أو أشتات التجار، التي ازدهرت لقرنين، ما بين سنتي ١٩٥٠ و١٧٥ قبل الميلاد تقريباً، ومن الراجح أنها كانت أعقد من سابقاتها. كانت إحدى سمات هذه المنظومة التجارية التي تستحق التأكيد، قبل التفاتنا إلى مكان آخر، هي أهمية الشركة الأسرية.

تشير الألواح الطينية التي استخرجت في كانيش إلى أن معظم الشركات الناشطة في دارة آشور– كانيش كانت شركات أسرية، تشكّلت أعمالها الداخلية تشكّلاً كبيراً بحسب أعمار أفراد الأسرة وجنسهم. ذُكرت المرأة في بعض الألواح، لكن كزوجة أو أمّ لا كصاحبة تجارة. كان الرجال الأكبر سناً، ومن المفترض أنهم كبار أعضاء الشركة، يشرفون على المكاتب في الوطن آشور. كان الرجال الأصغر من أولئك سناً يديرون عمليات الفرع في كانيش. من الراجح أن الأصغر سناً على الإطلاق، ومن المفترض أنهم الأنسب للتعامل مع شدائد الحياة على الطرق، كانوا يسافرون مع القوافل إلى آشور ومنها.

لا يجوز للصمت النسبي للألواح في ما يتعلق بأهمية المرأة في شبكة آشور– كانيش أن يضللنا. من النيل إلى دجلة، كانت النسوة الغزّالات والحائكات العاملات في منازلهن ينتجن تقريباً كل القماش المعدّ للثياب

---

(١) يعادل الباوند ٤٥٣،٠٠ غرام – المترجم.

والأغراض الأخرى، ومن ذلك التجارة. من المحتمل جداً، إذاً، أن النسوة كنّ ينتجن معظم الصوف والكتان المحمول من آشور إلى كانيش. بالنظر إلى سعة نطاق هذه التجارة فمن غير الممكن أن يكُنَّ، أكثر هؤلاء النسوة الصانعات للقماش، أفراداً من أسر التجار الآشورية. من المحتمل أنهنَّ كنَّ يسكنّ في مناطق أخرى مما بين النهرين، ويصل القماش الذي كنّ ينتجنه عن طريق مسالك تجارية لا تعيّنها الألواح.

لعلَّ النسوة خارج الشركات التجارية الآشورية قدمنَّ مساعدة في تحريك التجارة مع كانيش بطريقة ثانية، ألا وهي تشغيل خانات المسافرين. في مجموعة حمورابي القانونية[(١)] (نحو سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد) تنظيماتٌ تحْكم خانات ما بين النهرين التي تديرها النسوة (وتُطلق المجموعة عليهن اسم «صاحبات الحانات»). ربما كانت النسوة تُشغّل أيضاً الخانات للمسافرين على الطريق بين آشور وكانيش.

رحلات هاركوف جنوباً:

نُقش على قبر مصري شيد نحو سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد في موقع على النيل الأعلى، بالقرب مما هو اليوم أسوان، سجلّ وجيز لأربع رحلات برية قام بها موظف يدعى هاركوف. يشير النقش إلى أن هاركوف سافر مبعوثاً لفرعونين حكما إبان حياته. لا يمكن تعيين وجهاته بدقة لأن أسماء الأمكنة قد تغيرت مرات كثيرة في السنوات الأربعة آلاف الماضية. لكن النقش يشير، على ما يبدو، إلى أن رحلات هاركوف أخذته في جهة جنوبية غربية إلى منطقة دارفور، في ما هو اليوم غربي السودان، على مسافة ٩٠٠ ميل وأكثر.

هاركوف أول رحالة بعيد المدى نعرف اسمه. هو أيضاً أول من خلّف رواية لرحلاته، أو حكاية، مكتوبة.

---

(١) وتُعرف بشريعة حمورابي – المترجم.

يفتح النقش على قبر هاركوف نافذة على طبيعة السفر البري للمصريين في أثناء عصر المملكة القديمة (٢٧٠٠-٢١٠٠ قبل الميلاد تقريباً). يوضح النقش أنه بحلول سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد كان الحكام المصريون يرعون بنشاط الرحلات الرسمية إلى أفريقيا ما تحت الصحراء لمزيج من الأسباب الدبلوماسية والتجارية. في أول رحلة، ودامت سبعة أشهر، استكشف هاركوف المسلك جنوباً وعاد بهدايا غير معينة، ربما كانت جزية للفرعون من حكام تحت الصحراء. احتاجت بعثته الثانية ثمانية أشهر لإتمامها وأثمرت المزيد من الهدايا، بـ«كمية كبيرة جداً» هذه المرة. عاد من رحلته الثالثة في قافلة من ٣٠٠ حمار حاملاً البخور والأبنوس والقمح والعاج و«كل منتج جيد»، ما يشير إلى أن الهدف الأساسي لبعثته كان التجارة. في رحلته الأخيرة عاد هاركوف جالباً معه للفرعون «قزماً راقصاً» (من عرق الأقزام؟) مشابهاً لآخر، بحسب النقش، جُلِب سابقاً من بلاد بونت (ربما هي ما يدعى اليوم الصومال وإثيوبيا).

خاتمة: الحثيون والمصريون والفينيقيون، ٢٠٠٠-١٠٠٠ قبل الميلاد

ابتداءً من نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد طرأ شفعٌ من التحولات الأوسع نطاقاً في رواق النيل- السند بدّل تبديلاً مهماً ظروف أسفار المسافات الطويلة. أولاً، وضَع انهيارُ حضارة وادي السند بعد سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، وهو تطوُّرٌ غير مفهوم جيداً، لكن لعله حدثَ نتيجة صعوبات بيئية متعاظمة، خاتمةً للأسفار بين ما بين النهرين ومنطقة السند لما يقرب من ١٥٠٠ سنة. ثانياً، شنت أقوام شبه رحّل من الأناضول وراكبون للبحر من شرقي المتوسط هجمات متكررة على ما بين النهرين ومصر في أثناء معظم الألف سنة بين ٢٠٠٠ و١٠٠٠ قبل الميلاد.

رغماً عن الغزوات، استمرت الأسفار داخل مصر وما بين النهرين وبينهما، وإن حصل ذلك في معظمه على مسافات أقصر نوعاً ما. بين الفينة والأخرى، في الحقيقة، تحرك الغزاة أنفسهم، كالحثيين، خلال بقاع كثيرة من شرق المتوسط وإلى مصر نفسها. في الحقيقة، انتشر الصناع الحثيون انتشاراً

واسعاً كالمروحة، فكانوا عوناً على نشر المعرفة بتقانة الحديد الجديدة بعد انهيار المملكة الحثية نحو سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد. لكن هذه الغارات كانت غير مستقرة، ولم تُنتج أنماط سفر دائمة أو حتى تجارة منتظمة. تحركت السفن خلال شرقي المتوسط، من مصر في الجنوب إلى أجزاء من اليونان في الشمال، رابطةً أيضاً جزراً من مثل كريت. كذلك استمرت مصر في احتكاكاتها مع الأجزاء الأخرى من شمالي شرقي أفريقيا، مستعملة أعالي نهر النيل، لكن أيضاً البحر الأحمر وخليج عدن. يسّرت المسالك البحرية تجارة منتظمة مع البلاد التي دعيت باسم بونت. يُبرز قبر الملكة حتشبسوت نماذج إيضاحية من بعثة تجارية إلى بونت نحو سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد. تأخذ السفن المصرية الحلي والأدوات والأسلحة ثم تُحمّل الحيوانات الغريبة، كالبانثر، وأشجار المرّ (وتُقلع بعناية وتُرزم لتزرع من جديد).

قدّم الشعب الفينيقي محفزاً خاصاً للتجارة في شرقي المتوسط. أكّد الفينيقيون، الذين انطلقوا في أعمالهم من دول- مدن على ساحل الشرق الأوسط، ابتداءً من نحو سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد، أكدوا التجارة على حساب التوسع السياسي أو حتى التنمية الزراعية الواسعة. تاجروا براً مع ما بين النهرين، وأخذوا في مدِّ نطاق التجارة البحرية أيضاً.

لكن، مع ذلك، شهد الألف الثاني قبل الميلاد وقفة محددة في أنماط السفر المغامر، على الأقل الأنماط التي نعرفها، حتى إن الفينيقيين سوف يسهمون إسهاماتهم الكبرى في الرحلات العالمية بعد ذلك التاريخ بقليل. لقد ظلت مزايا الاحتكاك مُدرَكة، لكن المسافات المقطوعة عادةً قصرت نوعاً ما. ابتداءً من نحو سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد أخذت بضعةُ تطورات، واشتراكُ بعض المجتمعات الأكثر جدّة، تُوسِّع خارطة الرحلات من جديد مرة أخرى.

الجزء الأول

العصر الكلاسيكي

كانت العلامة على العصر الكلاسيكي - بين سنتي ١٠٠٠ و٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً - هي تطوّر الحضارات الكبيرة والقوية، في فارس، في المتوسط، في الصين، في الهند. كوّنت الحضارات الكلاسيكية كلها، دورياً على الأقل، إمبراطوريات داخلية قوية، وطوّرت أيضاً ثقافات مميزة ومنظومات تجارية داخلية. لقد ذهب التأكيد الأكبر إلى التطوّر المستقل.

لكن، رُئيت أيضاً مزايا في الاحتكاكات خارج الثقل الأكبر للحضارة، ولا سيما مزايا للتجارة، لكن أيضاً لأغراض أخرى. وهكذا، فقد استمرت رحلات المسافات الطويلة، ومن الراجح أنها تسارعت. أسهمت التقانة البحرية المتحسنة والمعرفة المتعاظمة بعوامل كالرياح الموسمية في المحيط الهندي، أسهمت في إتاحة فرص جديدة للسفر بحراً. شيدت الإمبراطوريات شبكات طرقية أكبر، كما شيدت في كثير من الأحيان نُزُلاً لإيواء المسافرين عُمِل بدقة على أن تكون بينها فواصل مقدار كل واحد منها يوم. مع أنه لم تطرأ تغيرات ضخمة على تقانات السفر البري، فإن تعاظمَ الاستعمال للخيول - مثال ذلك في الصين، التي أخذت تستورد خيولاً أفضل نوعاً من مناطق أخرى - وتدجينَ الجمل نحو سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد كان لهما مضامين عظيمة.

وهكذا، اتسعت الأسفار. كذلك شجعت الحضارات الكلاسيكية تحسين حماية السجلات، ولذلك لدينا مزيد معرفة بالرحالة فرادى، وبعضهم قد كتب بصراحة تقارير أو حكايات مغامرات. يمكننا أيضاً أن نرى بوساطة هذه المواد أن بعض الأفراد قد انساقوا وراء فضول حقيقي للمجتمعات خارج حدودهم، مستمتعين عمداً بما هو غير مألوف. هاهنا عنصر آخر مهم.

تطورت مجموعتان كبيرتان من الرحلات. استعملت شعوبٌ شتى البحرَ المتوسط كشريان، يتميز بقدرة الربط بين غربي آسيا وأجزاء من أفريقيا وأجزاء من أوروبا؛ وأمكن للتعريجات البرية أن تمتد شرقاً أيضاً. تطورَ مركزٌ ثانٍ في

آسيا، حيث شعّت الرحلات من الصين والهند (علماً أن معرفتنا بالأخيرة أقل من الأولى)، وحيث سعى الرحالة أيضاً إلى الوصول إلى الهند.

لقد جاء أشهر رحالة العهد الكلاسيكي من الحضارات، ولا سيما من شرقي المتوسط ومن الصين. لكن وجِد أيضاً رحالةٌ آخرون، من الرُّحّل وغيرهم، رحالة ينالون وصولاً دورياً إلى إحدى الحضارات من خارجها، فكانوا قيمةً مضافةً إلى الأنماط الجديدة أيضاً.

الفصل الثالث

إقليم الشرق الأوسط والبحر المتوسط، ١٠٠٠ قبل الميلاد ٥٠٠ ميلادية

مُقَدِّمَة

نبدأ نظرنا إلى العصر الكلاسيكي بتركيز على منطقة المتوسط. كان اليونانيون والرومان أكثر الرحالة ظهوراً ونفوذاً في هذا الإقليم. لقد طوروا أيضاً مقدرة جديدة فكتبوا عن أسفارهم، وهذا ابتكار مهم بحد ذاته. لقد أصبح اليونانيون أكثر راكبي البحر نشاطاً في المتوسط، وكان اليوناني هيرودوت هو الذي أتى باستعمال جديد للرحلات في دعم رواية رسمية لأسفاره، من الناحية الفعلية كجزء مما ندعوه اليوم تاريخاً وجغرافيا إقليميين. طوَّر الرومان تقليداً غنياً من الرحلات البرية والبحرية معاً؛ كذلك كانت الحاضنة الرومانية هي المكان الذي برزت فيه الرحلات المسيحية الباكرة، ومن ذلك الحج إلى القدس بين نحو سنتي ٣٠٠ و ٥٠٠ ميلادية.

لكن بروز اليونانيين والرومان كرحالة قد هيأ له مجتمعان آخران، كان كلاهما عاملاً في القرون الكلاسيكية الباكرة: الفرس، الذين شجعت مؤسساتهم تشجيعاً كبيراً السفر في أرجاء الشرق الأوسط، والذين قدّموا أنموذجاً للمجتمعات التي جاءت بعدهم في الإقليم نفسه؛ والفينيقيون، وكانوا بلا ريب أكثر الرحالة في التاريخ العالمي إلى ذلك الوقت جسارة، وإن كان أثرهم في الأسفار التي جاءت لاحقاً أكثر غموضاً.

الفينيقيون والفرس

نتحدَّث عن الفينيقيين أولاً، والسبب في ذلك جزئياً هو، كما ناقشنا في الفصل الثاني ، أن التزامهم التجارة والتبادل التجاري ابتدأ في التطور حتى قبل ابتداء العصر الكلاسيكي. تحيط بالفينيقيين شكوك حقيقية: لقد أتوا بإحدى أكثر منظومات الكتابة كفاية، لكن لم يبقَ أيّ من سجلاتهم، وعليه فنحن مضطرون للتخمين في ما يتعلق ببضعة جوانب من تاريخهم – ومن ذلك رحلاتهم الأكثر طموحاً.

نعلم أن الفينيقيين كانوا ركّاباً للبحر استثنائيين، لكن ما من رواية فينيقية تخبرنا بذلك. لكن لحسن الحظ، وبسبب واسع احتكاكاتهم وتفاعلاتهم مع الشعوب المجاورة، فلقد عرفنا أشياء كثيرة عنهم من الكتابات الآشورية والتوراتية واليونانية والرومانية. الأدلة الأثرية من مواقع ساحلية عديدة في المتوسط ومن الساحل الأطلسي لإسبانيا والمغرب هي خزان إضافي للمعلومات عن الفينيقيين.

تبيّن هذه المصادر أنه عند ابتداء العصر الكلاسيكي أقام الفينيقيون شبكة مترامية الأطراف من الجاليات التجارية – إحدى أبكر إمبراطوريات المواقع التجارية التي أقامها البشر – امتدت من موطنهم في ما هو اليوم لبنان إلى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وما وراء ذلك. كانت صيدا وصور وجبيل هي مدن «الوطن» ذات الصدارة؛ كانت قرطاج، على الساحل الشمالي لأفريقيا في ما هو اليوم تونس، أشهر جاليات الشتات الكثيرة. حملت المراكب من قواعدها في موانئ فينيقيا مجموعة متنوعة مدهشة من السلع التامة التصنيع والمواد الخام من أحد طرفي المتوسط إلى الطرف الآخر. أُنتِج كثير من المصنوعات – المنسوجات والأصبغة والفخار والمعدنيات والزجاج – في المدن الفينيقية. السلع غير التامة التصنيع، ومن ذلك العاج وكثير من الفلزات – القصدير والحديد والرصاص والفضة والذهب – حُصلِ عليها من أمكنة أخرى، وكذلك الرقيق الكثير الذي نُقل على متن السفن الفينيقية.

كان نطاق الرحلات البحرية الفينيقية استثنائياً. مكّنت المستعمراتُ التجاريةُ على ساحل المغرب الأطلسي، وقد كُشِف عن بقاياها على أيدي علماء الآثار، الفينيقيين من تسخير مصادر النحاس والذهب والعاج المحلية؛ أتاحت جيوبٌ مستعمراتيةٌ أخرى على ساحل إسبانيا الأطلسي الوصولَ إلى المصادر الكبرى للقصدير. توحي بعض الأدلة الوثائقية، وهي معقولة لا أكثر، أن المراكب الفينيقية قامت برحلات عَرَضية إلى ما بعد مسالكها التجارية المعتادة. يأتي أشهر الأمثلة على هذا الصنف من الأدلة من هيرودوت، المؤرخ اليوناني والأديب الرحالة، فهو ينبئنا أنه نحو سنة ٦٠٠ قبل الميلاد أرسل الفرعون المصري نيخو الثاني مجموعة من السفن الفينيقية لتدور حول أفريقيا بعكس عقارب الساعة ليرى هل القارة محاطة بالماء أم لا. بحسب هيرودوت، كانت هذه البعثة المذهلة ناجحة، استغرق إتمامها أكثر من سنتين. يرى علماء يومنا الحاضر هذه القصة غير مبرهنة، لكن تُصدَّق.

من المؤكد تقريباً أن الفينيقيين أخرجوا واحداً، وربما اثنين، من أعظم أوائل الرحالة كأفراد، حتى بغض النظر عن احتمال الرحلة الأفريقية الأكبر من ذلك. في القرن الخامس قبل الميلاد، تولى قائد يدعى هانّو توجيه رحلة نزلت الساحل الأطلسي لأفريقيا، حتى وصلت على الأقل إلى ما هو اليوم سييراليون، وربما نيجيريا. ما هو أقل تأكيداً من ذلك، وكذلك في القرن الخامس، ربما وصل رحالة آخر يدعى هيميلكو إلى بريطانيا وإيرلندا. من الجلي أن الفينيقيين قد ضربوا مثالاً حياً على الرحلات المتكررة والواسعة النطاق. وصلت الرحلات البحرية الفينيقية أيضاً إلى مجموعات من الجزر في الأطلسي، ولا سيما كناري وآزور. تلاشت بعض الإنجازات الفينيقية بعد ذلك من الذاكرة؛ لم يكن للتعريجات على أفريقيا والجزر الأطلسية عواقب واضحة؛ بقي فقط إحساس مبهم أن جزر كناري وآزور موجودة، إحساس خارج قاطنيها من أهل صيد السمك والالتقاط. لكن شبكة التبادل في غربي المتوسط وعلى ساحل أوروبا

الأطلسي قد كان لها قطعاً أثر في الرومان، الذين اشتملت منافستهم المريرة مع قرطاج على شيء من المحاكاة الفعالة لمسالك الرحلات الفينيقية.

* * *

من على بعد كبير، في أول الأمر، عن المسالك البحرية للبحر المتوسط، أخذت إمبراطورية فارسية جديدة بالتشكل في الشرق الأوسط ابتداءً من القرن السابع قبل الميلاد. بعد سنة ٥٥٦، أخذ الفرس، تحت قيادة قورش الأكبر ومن بعده داريوش، في فتح الإمبراطوريات المجاورة في سائر أرجاء الشرق الأوسط، واصلين مما بين النهرين إلى شواطئ البحر المتوسط بل حتى خلال مصر وليبيا في شمالي أفريقيا، وإن أخفقت محاولة عملوها للدخول إلى مملكة كوش الأفريقية. من الشرق، استولى الفرس على وادي نهر السند. تحطمت محاولاتهم للدخول إلى أوروبا في وجه المقاومة اليونانية (وإن اجتازت إحدى حملاتهم كل الطريق إلى نهر الدانوب). وأخذت الإمبراطورية الفارسية في الانحطاط التدريجي في القرن الخامس.

طوال عقود كثيرة ظلت هذه الإمبراطورية أضخم إمبراطورية تشكّلت إلى حينه. من الجلي أن حجمها شجع الأسفار السياسية والعسكرية والتجارية، وإن كنا لا نعلم سوى القليل عن الرحلات الفارسية فرادى. في أوجها كان الحكام الفرس يتلقون الهدايا من الهند، ومن العرب في الجنوب، وحتى أنياب فيلة وحمار وحش من أفريقيا ما تحت الصحراء، ما يوحي بشبكة من الاحتكاكات كانت تمتد وراء حدود الإمبراطورية نفسها. لكن الأهم من ذلك هي الابتكارات التي أدخلها الحكام الفرس لتسهيل السفر داخل عالمهم الشاسع. شُيدت شبكة كبرى من الطرق، ولا سيما لتسهيل الأسفار العسكرية؛ يقدّر أحد علماء يومنا الحاضر الطول الإجمالي للطرق السريعة الإمبراطورية الفارسية بنحو ٨٠٠٠ ميل. مع أن هذه الطرق كانت محروسة بعناية، بحيث إنَّ الجوازات الرسمية كانت كثيراً ما تُطلب، فلقد كان يمكن للمسافرين استعمال هذه المنظومة لأغراض شتى. أقام قورش أيضاً خدمةَ بريد ورسائل منتظمة، ومعها خانات

متباعدة تباعداً معتنى به، بحيث يمكنها إيواء التجار وسواهم من رحالة البر، وكذلك صهاريجَ للماء. (شبكة الاتصالات التي أسست على يد قورش ربما قد نُسخت عن الشبكة الأبكر منها والأقل تفصيلاً، والتي استُخدمت من قبل الآشوريين الذين حكموا معظم الشرق الأوسط من سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد.) لاحقاً وصفَ يونانيٌّ نتائج الجهود الفارسية في النقل والاتصالات قائلاً: «بكم (الفرس) كل طريق سهلة، وكل نهر ممكن العبور، وما من قلة في المؤن». بهذه المنظومة، أصبحت فارس والشرق الأوسط سرّةً كبرى للأسفار من الشرق (آسيا الوسطى والهند) ومن البحر المتوسط معاً – ولسوف تُحفَظ المنظومة أو تُستنسخ من قبل إمبراطوريات لاحقة كثيرة. سوف نرى دورها لاحقاً في العصر الكلاسيكي، ولا سيما كما وصِفت من الرحالة اليونانيين، وفي العهد ما بعد الكلاسيكي أيضاً.

الرحلات اليونانية: الإطار والأدب القصصي

ابتداءً من سنة ٧٥٠ قبل الميلاد، واجه راكبو البحر الفينيقيون زمرة من المنافسين البحريين المتزايدين قوةً، الذين اتخذوا قواعدهم في الدول– المدن اليونانية التي ازدهرت على ساحل بحر إيجة وجزره. على مثال الفينيقيين قبلهم، انتثر التجار اليونانيون انتثاراً واسعاً، مؤسسين مستعمرات تجارية في أجزاء كثيرة من البحر المتوسط. زاد اليونانيون على الفينيقيين إذ أقاموا أيضاً مستوطنات تجارية عديدة على شواطئ البحر الأسود. جذبت هذه المستوطنات الاهتمام الفارسي، لكن اليونانيين استطاعوا في آخر الأمر أن يدفعوا الهجمات الفارسية ويستمروا في تطوير مجتمعهم التجاري على نحو عظيم.

تخصّصَ التجار الراكبو البحر اليونانيون في تصدير الخمر وزيت الزيتون معبأين في حاويات غضارية مميزة تدعى أمفوري. مقابل هاتين السلعتين المصنعتين العاليتي القيمة، حملت مراكبهم الكهرمان والفرو ومنتجات الغابة والقمح والرقيق المأخوذ من نقاط تجارية في مواقع كثيرة في البحر الأسود والبحر المتوسط. كانت طبيعة هذه التجارة – مبادلة السلع اليونانية التامة

التصنيع بمنتجات أجنبية غير تامة التصنيع - في صالح اليونانيين زماناً طويلاً، فكانت وقوداً لدورة من التوسع الاقتصادي المشتمل على كامل بحر إيجة، ومن الرخاء المقارَن القائم في أساس المنجزات العظيمة للعهد الذهبي اليوناني، نحو ٥٠٠-٤٠٠ قبل الميلاد.

ليس سراً أن اليونانيين الكلاسيكيين كانوا قاصّين مجنحي الخيال وأن بعض أكثر حكاياتهم جاذبية، ولا سيما الأوديسة لهوميروس، قد تركزت على تجربة السفر. يعترف العلماء الحديثون أن الموضوعات الأساسية في الأوديسة، مع أنها عمل قصصي، تقدّم نظراتٍ نافذةً متينةً تاريخياً إلى جوانب من الأسفار البحرية في أثناء القرون الكلاسيكية.

قصيدة هوميروس، وهي مؤلفةٌ نحو سنة ٧٠٠ قبل الميلاد لكنها قائمةٌ على ذكريات شعبية أكثر قدماً، هي قصة للتحديات الكثيرة التي واجهها محارب يوناني مذكور في المرويات اسمه أوديسيوس في أثناء رحلته البحرية عائداً إلى دياره بعد أن قاتل في حرب طروادة، نحو سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد. القسم القريب من منتصف الكتاب ويتركز على السنوات العشر، الكثيرة النكبات، التي أمضاها أوديسيوس في البحر بعد مغادرته طروادة، هذا القسم ذو أهمية خاصة عند مؤرخ الرحلات. هاهنا ينقل هوميروس شيئاً من التجارب كل يوم بيومه - ومخاوف وخيالات - كانت حتماً مألوفة لكثير من البحارة في أثناء العصر الكلاسيكي. في الحقيقة، من الراجح أن معظم ما نقرؤه عن رحلات أوديسيوس البحرية قد ألهمته حكايات لبحارة مجربين تنوقلت مرات كثيرة قبل أن يصوغها هوميروس في شعره القوي قوة لا تضاهى.

بحسب رواية هوميروس، بدأت مصاعب أوديسيوس مباشرة بعد انطلاقه من طروادة لما دفعت «الريح الملعونة» أسطول سفنه بعيداً عن مساره، فأتت بالمراكب في آخر الأمر إلى بلاد أَكَلَة اللوتس الخيالية، وهم «عرقٌ يأكل ثمرة اللوتس الزهرية». لقد أُخِذ بعض رفاق أوديسيوس بالملذات التي اكتشفوها في الفردوسِ، أرضِ«الثمرة المعسولة»، بحيث إنهم حاولوا القفز من السفينة؛ لقد

اضطر إلى إجبارهم على استئناف الرحلة. بعد ذلك وصل الأسطول صدفة إلى بلاد سيكلوبس، «شعب شرس، متحلل من القانون لا يرفع يداً البتة ليزرع أو يحرث بل يترك كل شيء للآلهة الخالدين». هاهنا أُخِذ أوديسيوس واثنا عشر من خيرة رجاله أسرى على يد عملاق ضارٍ ذي عين واحدة. احتاج الأمر منهم كل عبقريتهم ليحتالوا على معذّبهم ويفلتوا من مخالبه ويستأنفوا رحلتهم. بعد أن عاد أوديسيوسُ ورفاقُه في السفينة إلى البحر نجوا بشق الأنفس من إغواء السيرينات، وهن عرقٌ من النسوة يغنّينَ أغاني «معسولة» لجذب البحارة إلى حتفهم. أخيراً، بعد تحمُّل العواصف والارتطام بالصخور – وسبع سنين من الأسر على يدي الإلهة كاليبسو – وصل أوديسيوس إلى شواطئ إثاكا. رغم أن المزيد من التحديات قد كان بانتظاره، فلقد كان في الوقت المشار إليه في دياره.

مثال آخر على القَصّ اليوناني الباكر هو حكاية جاسون والأرغوناوت، طاقم النوتيين البطوليين الذين تحدوا الكثير من الأخطار ليبحروا في مياه لم تُسلك من قبل سعياً وراء الجزّة الذهبية السحرية. لقد وسّعت قصة الرحلة الملحمية لجاسون، وقد ذكرها هوميروس بإيجاز في الأوديسة، ونُقلت شفاهة، وفي بضع نُسخ مكتوبة إلى أن وضِعت في صورتها النهائية على يد كاتب من القرن الثالث قبل الميلاد اسمه أبولونيوس من أهل رودوس. في النقل الشعري الذي عمله أبولونيوس للمروية، وتعرَف باسم أرغوناوتيكا، الكثير عن الأخطارِ العظيمة لركوب البحر، واكتشافِ أراضٍ جديدة، وغرابةِ الشعوب الأجنبية.

في تحضير أبولونيوس لرواية قصته، يعتمد على تراث طويل من النُسخ الأقدم عهداً. ويقترض أيضاً من أوديسة هوميروس. في الحقيقة، يبدو أن كثيراً مما نقرؤه في أبولونيوس عن مسير جاسون هو إعادة صياغة لرحلة أوديسيوس.

يبدأ المسير بعد أن عمل جاسون على بناء سفينة عجيبة تدعى آرغو، وعلى جمْعِ طاقم من اثني عشر بطلاً عظيماً، حاز كل واحد منهم قوى ماورائية. تحملهم رحلتهم البحرية إلى جزر وبلدان عديدة حيث يقابلون عدداً

كبيراً من الشعوب الغريبة والمخلوقات الخيالية. في إحدى وقفاتهم الأولى تغويهم نسوة ليمنوس من أجل إعادة إسكان جزيرتهنَّ. في نزلة أخرى على البر يختفي هرقل، أحد الأبطال، بعد أن اختطفت الحوريات خادمه. إلى الأمام، يعرض نبي أعمى على زواره أن يزودهم بنصحه في ما يتعلق بالإبحار، بشرط أن ينقذوه من الهاربيات، وهنَّ نسوة في صورة طيور يخطفن طعامه قبل أن يستطيع أكله. عند بلوغ الآرغوات (إذا كان المقصود السفن) فم البحر الأسود والصخور الخطرة المتلاطمة، يرسلون أمامهم حمامة لتستكشف المسلك ومن ثم يفلحون في العبور بشق الأنفس. عند وصولهم إلى وجهتهم (ومن الراجح أنها ساحل ما هو اليوم جورجيا)، يحصلون على الجزة الذهبية، لكن بعد أن يتغلَّب جاسون على بضعة تحديات شاقة يضعها الملك المحلي. بعد أن صار كنزهم الذي سعوا وراءه في اليد، أبحروا عائدين إلى الديار. كان ذلك في بعض النسخ من القصة بمسلك دائري جداً يؤدي إلى مزيد من المغامرات.

هاهنا أسباب وجيهة لجعْل هاتين القصتين نقطة انطلاق مفيدة للنظر عن كثب إلى الرحلات في العصر الكلاسيكي. إن الاستعراض الذي لا يُنسى للشخصيات في الملحمتين لا يُثمر فقط قراءة مثيرة بل يأخذنا أيضاً داخل العالم العقلي لبحارة العصور قبل الحديثة. إن فصولاً عديدة من الملحمتين هي عون لنا على إدراك المخاوف النابعة من الأخطار التي خبرها النوتيون في البحر، وكذلك الخيالات التي أنتجتها طواقم من الذكور للتعامل مع حالات الاكتئاب العرضية والبطالة القسرية. كما سنرى في الفصول التالية من هذا الكتاب، ظهور أفكار الخطر المهول، و«الآخرين» الغريبين، والمخلوقات الخيالية، والتوق الجنسي، وهي بارزة في هاتين القصتين، تظهر من جديد مراراً وتكراراً في أدب الرحلات المتأخرة.

الأوديسة مهمة أيضاً لمؤرخ الرحلات، وهي أهم من مروية جاسون الأكثر إبهاماً، والسبب هو ما تناثر خلال القصيدة من نتف ثمينة من

المعلومات عن بناء السفن وتفاصيل ركوب البحر كل يوم بيومه. في الفقرة التالية، قررت الإلهة كاليبسو أن تسمح لأوديسيوس باستئناف مسيره، وأن تعينه على بناء قارب:

«ثقبَ ألواحه جميعها وثبتها بالأوتاد متينة في وجه العواصف،

راصفاً بعضها إلى بعض بقوة، ومحكماً قفلها بالأسافين والمزاليج.

واسعاً في عرض المركب الأعظم والسطح السفلي كسفينة تجارية

حينما يصنع نجارُ السفينة البارع بدنَها،

واسعاً هكذا جعل أوديسيوسُ المركبَ لنفسه.

مواصلاً العمل بسرعة

رفع أجزاء السطح السفلي وراء الصاري الأساسي فثبتها بالخوابير إلى الأضلاع القريبة بعضها من بعض

وطوقت الحوافُ العليا للمركب الجوانبَ.

بعد ذلك صنع الصاري وركزه بعمق ياردة

وأضاف مجداف توجيه لحِفْظ وجهته الصحيحة،

ثم سيّجه من مقدمته إلى مؤخرته بالأغصان المجدولة وغير المجدولة،

وِقاءً من طمو البحر، فرش أكواماً من الأغصان.

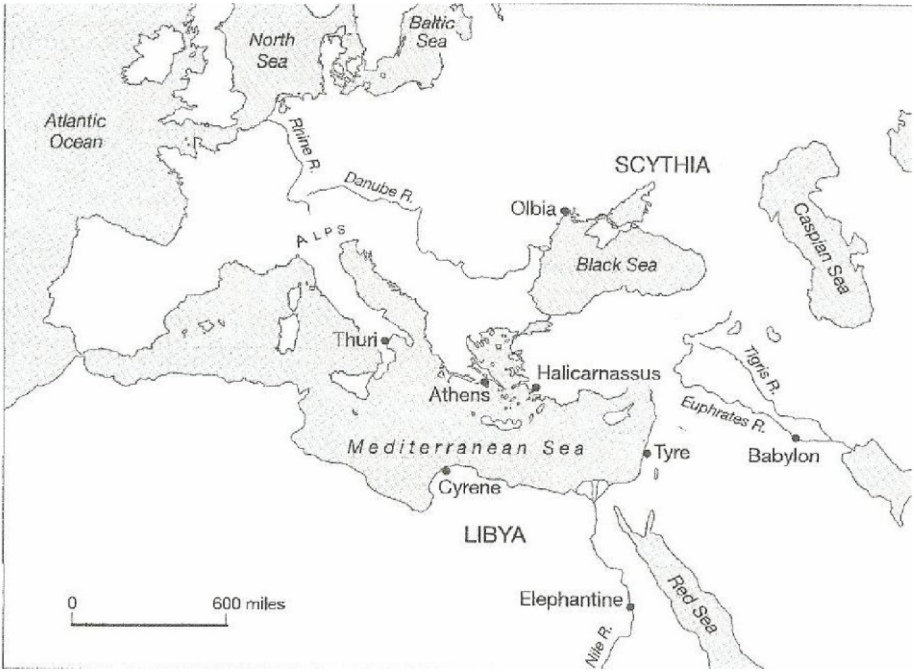
وجاءت كاليبسو الشهيرة مرة أخرى، ومعها الآن أثواب من القماش

لصنع الشراع، فأتمت ذلك أيضاً، إتمام الخبير.

الرباطات وحبال الشراع وحبال الطي – رتبها كلها على المركب،

ثم أنزلها بروافع إلى البحر ببطء».

هيرودوت



«رحلات هيرودوت» (المترجم).

يأتي أقدم دليل جوهري على أهمية الرحلات عند اليونانيين من هيرودوت، المؤرخ والرحالة من القرن الخامس قبل الميلاد الذي قابلناه آنفاً في الفصل الثاني . كان هيرودوت مؤلفاً لكتاب واحد، كلاسيكي حقيقي، يدعى بالإنكليزية إما «التواريخ» أو «الحروب الفارسية». كتاب هيرودوت، وكثيراً ما يوصف أنه أول عمل حقيقي من أعمال التاريخ، هو محاولة لتعليل: ١–لماذا خرج الفرس، وهم يومئذ قادة أقوى إمبراطورية في العالم، واليونانيون الضعفاء بالمقارنة معهم، إلى الحرب سنة ٤٩٩ قبل الميلاد؟ ٢– لماذا خرج اليونانيون، المتوقعة خسارتهم، ظافرين بعد ذلك بعقدين من الزمان؟.

يطرح هيرودوت شبكته طرحاً واسعاً لمعالجة هاتين القضيتين المعقدتين. يبدأ بنوع من «الطواف» في العالم الواقع تحت هيمنة الفرس، ولا سيما إقليم

رواق النيل- السند. بعد أن يقدّم هيرودوتُ الفرسَ والشعوبَ التي لا تحصى، والتي تفاعلوا معها (تفاعلاً في معظمه كغازين أو منذرين بالغزو)، بعد ذلك يكرّس النصف الثاني من روايته لوصف مفصل للصراع الذي دام عشرين عاماً وأوقف التوسع العسكري للفرس، وآذن ببدء العهد الذهبي اليوناني.

عند مؤرخ الرحلات، النصف الأول من كتاب هيرودوت، «طوافه العالمي»، هو ذو الأهمية الحاسمة. هاهنا يعتمد على رحلاته الخاصة لتزويد قرائه بأوصاف مباشرة للأحوال وطرق الحياة في أربعة أقاليم أو بلدان أساسية: مصر، والأراضي المعشوشبة شمالي البحر الأسود (ما هو اليوم أوكرانيا)، وما بين النهرين (ما هو اليوم العراق)، وشمالي أفريقيا (ما يدعوه اليونانيون ليبيا). يعتمد معظم هذه المعلومات على ملاحظاته المباشرة (تشريح الجثة)، لكن يأتي بعضها (ولا يمكننا التأكد دائماً من مقدار ذلك) من مخبرين محليين غير محددين. أضف إلى ذلك أنه تتناثر في هذا القسم من الكتاب نتف من المعلومات عن أقاليم ورحالة آخرين علمَ هيرودوت بهم في أثناء بحثه. إن ضم هذه المعلومات كلها بعضها إلى بعض يقدّم لنا صورة لمعظم الشرق الأوسط ولأجزاء من آسيا الوسطى والبلقان ولشمالي أفريقيا من مصر إلى ليبيا في أواسط الألف الأول قبل الميلاد، صورة بعيدة عن الاكتمال، لكن لا يضاهيها أي مصدر كلاسيكي مفرد آخر. لتقدير قوته كمخبر تقديراً أفضل، نأخذ عينةً من بعض ملاحظاته على وجهتين من وجهاته، مصر والأراضي المعشوشبة شمالي ساحل البحر الأسود.

يمضي التقرير الذي وضعه هيرودوت عن مصر لنحو خمس وسبعين صفحة في ترجمة إنكليزية حديثة. هذا القسم من «التواريخ»، الملآن بالكثير من المعلومات عما رآه وما قيل له (وجاء أكثر ذلك عن زعماء دينيين محليين)، لطالما سحر قراءه. أحد الأمور البارزة فيه هو وصفه السلس لعملية صُنع المومياء. نعلم منه أن عملية حِفظ الأجساد الميتة كان يتولاها محنطون محترفون كانوا يعرضون على أُسر المتوفين ثلاثة مستويات مختلفة من

الأسعار. في الطريقة الفخمة، وهي الأكثر كلفة، يُزال الدماغ بخطّاف معدني يمرر خلال المنخرين، وبصبّ عقاقير في الدماغ. تُزال الأمعاء بشقّ الجسد بوساطة «سكين حجرية إثيوبية» حادة. بعد تنظيف التجويف المعوي بخمر التمر والتوابل المسحوقة، يُملأ بالمر والقرفة الصينية وتوابل معطرة شتى ويُخاط. بعد ذلك يُوضع الجسد سبعين يوماً في عامل مزيل للماء كالملح الصخري لتجفيف اللحم وليصبح ظاهر الجسد نسيجاً جلدياً. في المرحلة الأخيرة من العملية، تُلف الجثة المجففة بشرائط كتانية وتُعاد إلى الأسرة لتُخزن في وعاء خشبي منتصب. بحسب هيرودوت، كانت الإجراءات الأقل كلفة تترك الدماغ على حاله، ولا تشتمل على شق الجسد، وكانت أقل شمولاً في إزالة الأعضاء الداخلية.

يبلغ طول رواية هيرودوت التي يتحدث فيها عن القوم الرحّل الرعاة الساكنين مروج ما هو اليوم أوكرانيا، وهو شعب يعرف عند اليونانيين باسم السقوثيين، نحو نصف طول تقريره عن مصر، لكنه لا يقل عنه تشويقاً أو أهمية. في الحقيقة، ما كتبه عن السقوثيين، بناءً على ما علمه من مخبرين في المدن اليونانية على ساحل البحر الأسود، هو أقدم وصف جوهري لأقوام آسيا الوسطى الرحّل. لقد أُثبت كثير مما كتبه عن السقوثيين على يد العلماء الحديثين المعتمدين على الأدلة من علم الآثار.

يصدق هذا حتى على الصفحات التي كتبها هيرودوت عن الأمازونات، النسوة المحاربات من الأراضي المعشوشبة، الصفحات التي نظر إليها العلماء تقليدياً بشك كبير. في خبر هيرودوت، وجد الجنود اليونانيون في منطقة البحر الأسود أنفسهم ذات مرة في حرب مع جيش من الأمازونات. رغم أن اليونانيين هزموا النسوة وأخذوا كثيراً منهنَّ أسيرات، فلقد أفلحت الأمازونات في الهروب والتحقن في آخر الأمر بالرجال السقوثيين. (الاسم السقوثي للمحاربات النسوة معناه «قاتلات الرجال»). أُخبر هيرودوت لاحقاً أن الأمازونات نُقلن إلى منطقة بعيدة في جهة الشمال الشرقي، حيث «يخرجن للصيد على ظهور الخيل مع

أزواجهن أو من دونهم، ويذهبن للحرب، ويلبسن الثياب نفسها التي يلبسها الرجال».

استحفر البحاثة الأثريون الحديثون، وبعضهم نساء، دليلاً يوحي بالمتانة التاريخية لرواية هيرودوت عن الأمازونات. عثر هؤلاء العلماء على قبور عديدة في جنوبي أوكرانيا، تؤرَّخ لأواسط الألف الأول قبل الميلاد، تحتوي على بقايا هياكل عظمية لنساء دُفنّ مع معدات عسكرية كالرماح والسهام والدروع. تشير بعض الهياكل العظمية إلى أن المتوفيات قد ضُربن على الرأس أو طُعنَّ بشفرة حادة، ما يؤيد الرأي القائل بأن هذه هي جثامين محاربات وليس مجرد نسوة دُفنّ عرضياً مع أسلحة. تحتوي القبور أيضاً على مرايا برونزية وتحلية ذهبية لحواف اللباس، وكذلك حليّ (أقراط وعقود وخرز وأساور). لعل الأجساد دُفنت بحيث إن النسوة يدخلن العالم الآخر مع الأسلحة التي يحتجنها كمحاربات، ومع أدوات الزينة التي يرغبن فيها لتعزيز مظهرهن. إجمالاً، يوحي الدليل الأثري أن رواية هيرودوت عن الأمازونات لم تكن، كما ظُنّ سابقاً، مثالاً على أنه غرّ، بل كانت متينة تاريخياً.

لكن مصداقية هيرودوت تنحدر انحداراً حاداً عندما يكتب عن أراضٍ وشعوب لم يزرها قط، أحد الأمثلة الفاضحة على عدم مصداقيته يبيّنه خليطٌ من الحقيقة و(الأكثر من ذلك) الخيال الناقد المتضمَّن في وصفه للحياة في الهند (فعلياً، منطقة وادي السند في ما هو اليوم باكستان)، وهو مكان لم يسافر إليه قط ومعرفة اليونانيين به إنما كانت معرفة مبهمة. مع أنه كان يقف على أرض صلبة في كتابته أن الشعب الهندي كان يصنع الثياب من القطن، وهو نبات أول ما دُجّنَ في الحقيقة في منطقة السند، فإن بقية مناقشته لطرق الحياة الهندية خارجةٌ في معظمها عن الصواب. إنه يكتب أن الهنود كانوا منظَّمين قَبَلياً (لعل هذا صحيح جزئياً) وأن الشعب في الجنوب قاتم البشرة ويعاشر جنسياً علانية «كما تفعل دواب القطيع». ويزعم أن بعض القبائل الجنوبية تأكل لحم البشر أيضاً. ويكتب أن القبائل في الشمال محبون للحرب ويستعملون الإبل

لدخول الصحراء بحثاً عن الذهب، فيحصلون عليه بعد أن يستخرج الفلزَّ نملٌ «أكبر من الثعلب» ويكومه مثل الأكوام الرملية.

في ما كتبه هيرودوت عن الهند، يعطي القراء اليونانيين صورة لشعب آسيوي هو مثال كامل للـ«آخر» الشاذ والغريب والمحب للذات الحسية، وهو موضوع يظهر في أدب الرحلات الأوروبي في العصور اللاحقة. «الاستشراق» هو المصطلح الذي يستخدمه بعض العلماء الحديثين لوصف هذه الصورة للآسيويين و(الأفريقيين) بصفتها تمثّل الضد للعقلانية والفضيلة الأوروبيتين.

من جهة أخرى، إن يكن هيرودوت مذنباً بـ«إسباغ صورة استشراقية»على شعب الهند، فلقد كان أحسن صنيعاً من ذلك بكثير في روايته المعقولة جوهرياً عن النوبيين (ويدعوهم اليونانيون إثيوبيين)، وهو الشعب الذي يسكن منطقة النيل الأعلى، في ما هو اليوم السودان. كانت هذه منطقة ثانية لم يزرها هيرودوت، لكنها ضُمِّنت (بإيجاز) في «التواريخ» وصْلاً مع مناقشته لموضوع مصر. يقول إنه لما كان في مصر، سافر صاعداً النيل حتى الشلال الأول (موضع ما هو اليوم السد العالي في أسوان، على نحو ٧٠٠ ميل من الدلتا) حيث شَيَّدَ المصريون مجمعاً دينياً كبيراً على جزيرة الفيل. ولما عجز عن المزيد من التقدم، التفتَ إلى مخبرين محليين طلباً للمعلومات عن الإثيوبيين في الجنوب. وصفَ محدثوه كيف يكون السفر صعوداً للنهر باستعمال القوارب التي تُسحب من الضفة وبالنقل من نهر إلى نهر. أما عن الشعب الإثيوبي، فقد قيل لهيرودوت إن لهم «شَعراً صوفياً»، وإنهم أقاموا عاصمة في ميرويه (موقع يؤيده علم الآثار)، وإنهم يعبدون «زيوس [فعلياً، الإله المصري آمون] وديونيسوس [الإله المصري أوسيريس] دون غيرهما من الآلهة». ما من ذِكْر هنا للون البشرة، أو أكل لحم البشر، أو الجنس علانية، أو الحيوانات الشاذة.

بعد أن نظرنا إلى مواطن القوة والضعف عند هيرودوت كأحد أدباء الرحلات، لا يسعنا اختتام مناقشتنا له من غير إيراد ملاحظات على حذوف مفاجئة في

«التواريخ»، تحديداً الفقدان الذي يكاد يكون كاملاً للمعلومات في ما يتعلق بكيفية السفر إلى الأماكن التي زارها، أو أنواع المأوى الذي وجده على الطريق، أو كيفية الدفع لأجور سفره. لنفحص بإيجاز كل واحدة من هذه القضايا.

لما جاءت كتابة هيرودوت في سياق زيارته لمصر، فهو يزودنا بواحدة من القطع القليلة جداً من المعلومات عن كيفية سفره:

«أردت أن أفهم هذه الأمور الدينية [الاعتقادات والممارسات الدينية في مصر، وسواها من الأماكن] بما يمكّنني من الوضوح، فأبحرت إلى صور في فينيقيا».

كما رأينا، كانت المراكب التجارية اليونانية والفينيقية تملأ خطوط المتوسط البحرية في أثناء القرن الخامس قبل الميلاد. وإذ لم توجد سفن مصممة خصيصاً للركاب، فإن الربابنة التجار كانوا كثيراً ما يكسبون دخلاً إضافياً بحمل القليل من المسافرين، وبتقديم الحد الأدنى من أسباب الراحة لهم على ظهر المركب.

من المحتمل أن هيرودوت قطع أكثر الأميال التي سارها (ولا يمكن تقدير عددها الإجمالي لأننا في تعتيم كامل في ما يتعلق بخط سيره) بحجز حق الركوب على السفن التجارية التي كانت ترسو على الأرصفة في بيريوس، وهو ميناء أثينا ونقطة المغادرة للرحلات البحرية إلى مرافئ في مصر وشمالي أفريقيا وفينيقيا والبحر الأسود. لما كان في شمالي أفريقيا وفينيقيا وأوكرانيا، من الراجح أنه لم يخاطر بالابتعاد كثيراً عن الميناء. في أثناء إقامته في مصر، كما رأينا، سافر في النيل بعكس التيار حتى جزيرة الفيل، في مسير من الراجح أنه قام به بقارب نهري. لكن، للانتقال من شواطئ ساحل البحر المتوسط إلى ما بين النهرين وبابل، كان يتعين عليه السفر براً. ولعله فعل ذلك بالانضمام إلى إحدى قوافل الحمير الكثيرة التي كانت تربط الساحل بمنطقة الفرات.

في ما يتعلق بالمأوى الليلي، مرة أخرى لا يقدّم لنا هيرودوت معلومات. يرجع أقدم دليل على وجود الخانات في العالم اليوناني إلى تاريخ متأخر قليلاً عن زمانه. (لكن، كما رأينا في الفصل الثاني، كانت الخانات المعدة للمسافرين في ما بين النهرين عاملة منذ زمان طويل؛ كانت مؤسسات كهذه موضوع تنظيم في مجموعة حمورابي القانونية.) لعل هيرودوت كان يبيت مع المغتربين اليونانيين في المدن التي زارها. كان اليونانيون، كالناس في كل أرجاء شرقي المتوسط، يقدرون إكرام الضيف تقديراً عالياً، وهو تقليد ملحوظ في قصائد هوميروس، حيث كان يُعرف بـ «صداقة الضيف». لعل كثيراً من التجار اليونانيين الذين كانوا يعيشون في الخارج قد رحبوا بزيارةٍ من أحد أبناء بلادهم ملآن بقصص عن بلدان بعيدة جداً ومتحمس جداً ليشاركوه فيها، كما قد نتخيل هيرودوت.

أخيراً، في ما يتعلق بكيفية دفعه أجور سفره، نحن متروكون بلا دليل. في ضوء صمته، خمّن بعض العلماء أنه كان محاضراً- أديباً محترفاً، موضوعه الرئيسي هو رحلاته الخاصة. قد لا نذهب بعيداً جداً لو اعتبرناه نظيراً سالفاً لأدباء الرحلات في يومنا الحاضر، الذين يروون الأحاديث في المتاحف والمكتبات ومحلات بيع الكتب والكليات. لعل المكافآت الشرفية عن ظهورات كهذه كانت تغطي نفقات مسيره.

زينوفون

انتهى العهد الذهبي اليوناني، الذي قدّمَ الوسَطَ لرحلات هيرودوت، نتيجةً للحرب المدمرة بين إسبارطا وأثينا (الحرب البيلوبونيزية، ٤٣١-٤٠٤ قبل الميلاد). لقد خرجت إسبارطا ظافرة، وكانت تدين بذلك جزئياً للمعونة من فارس. لكن الكلفة كانت عالية. لقد دخلت الأحوال الاقتصادية في سائر أرجاء الإقليم الإيجي في هبوط لولبي. بعد الحرب، قام قوروش، أحد أفراد الأسرة الملكية الفارسية، بحشد جيش من ١٠٠٠٠ مرتزق يوناني، كانوا في الوقت المشار إليه متحمسين جداً للخدمة العسكرية في الأراضي الأجنبية بسبب

الانحدار الاقتصادي في ديارهم. استأجر قوروش الجنود ليعاونوه في الاستيلاء على العرش الفارسي من أخيه الأكبر أرتَحْشَشْتا الثاني. لتعزيز المطالبة بالسلطة، جنّد قوروش ٢٠٠٠٠ جندي إضافيين غير يونانيين من شتى أقاليم الإمبراطورية.

الجنود الـ٣٠٠٠٠ الذين قادهم قوروش صَحبهم نحو ٢٠٠٠٠ من أتباع المعسكر، وهم حشد يشتمل على الزوجات والأولاد والخدم والمملوكين والتجار والصنّاع والعرافين والصرّافين والنسّاخ والمهرجين والسائقين والمهندسين المدنيين. حُمِل الطعام واللباس في آلاف من العربات تجرها الخيل والحمير والبغال والثيران.

على مثال الأمر في أكثر الجيوش، في أثناء العصر الكلاسيكي، كان أكثر الجنود الذين جنّدهم قوروش – القورينيين – مقاتلين مشاة. كان اليونانيون، وهم دون سواهم من القورينيين الذين لنا معلومات عنهم، هم إما «هوبليت» مسلَّحون بحراب طويلة أو سيوف، أو «بيلتاست» أخف تسليحاً متخصصين بقذف الرماح. كان قوروش هو القائد العام، لكن الوحدات فرادى، المأخوذة من شتى الأقاليم والدول– المدن اليونانية، قد اتبعت قادتها هي.

في ربيع سنة ٤٠١ قبل الميلاد، خرج قوروش وجنوده في ما سيصبح مسيراً من أشهَر ما شهدته القرون الكلاسيكية. ابتدؤوا الزحف خلال الأناضول داخلين ما بين النهرين، قاطعين أحياناً نحو عشرين ميلاً في اليوم، وهي سرعة كبيرة لقوة ضخمة. في أيلول، بالقرب من بابل، هُزم القورينيون على يد قوات أرتحششتا الثاني وقُتل قوروش. انشطر الجنود اليونانيون في هذا الوقت المشار إليه عن بقية القورينيين، وتشكّلوا في نوع من دولة متحركة (ومسلحة)، وتفاوضوا على شروط التراجع. ثم إنهم زحفوا شمالاً خلال ما بين النهرين، صادّين الهجمات التي شنها شتى الخصوم على الطريق. عند دنوّ الجنود من الأناضول الشرقية الجبلية والمثلجة، تخلوا عن عرباتهم والكثير من حيواناتهم وأكثر أتباع المعسكر الذين معهم. وصل الناجون من العبور الصعب خلال

الجبال إلى ساحل البحر الأسود وإلى السلامة في ربيع سنة ٤٠٠ قبل الميلاد. لكن احتاج الأمر إلى مرور سنة أخرى قبل انتهاء أسفارهم. بالزحف والإبحار غرباً في جهة بحر إيجة، وصل الجنود إلى تراقيا في البر اليوناني قبل أن يُنهوا مسيرهم في غربي الأناضول، غير بعيد من حيث ابتدؤوا.

لدينا معلومات جيدة عن أسفار الجنود اليونانيين لأن أحدهم كان كاتباً أثينياً موهوباً اسمه زينوفون. بعد هزيمة القورينيين بالقرب بابل، برز زينوفون كأحد قادة المرتزقة اليونانيين البالغ عددهم نحو ١٠٠٠٠ مرتزق. بعد ذلك بسنين طويلة، مكّنته المذكرات، التي احتفظ بها حتماً، من إنتاج رواية كثيرة التدقيق لمسير «العشرة آلاف»، والبالغ ٣٠٠٠ ميل تقريباً، وهو كتاب يعرف بعنوان «أناباسيس» (لفظة يونانية معناها «الحملة»).

عند مؤرخي الرحلات، نقطة القوة الكبرى في كتاب زينوفون هي وفرة المعلومات عن الظروف المحددة التي واجهها الجنود وهم يتحركون: المسالك التي اتبعوها، وكيف تعاملوا مع الطقس المعاند والأرض الصعبة، والطول المتفاوت لمسير اليوم، وكيف تدبروا أمر الطعام والمأوى لأنفسهم، والعلف لدواب الحمل التي لهم. إن المفقود من هيرودوت في ما يتعلق بالتفاصيل الدنياوية للسفر يملأ صفحات زينوفون. لكن هاهنا المزيد المزيد. مثل هيرودوت، كان زينوفون ملاحظاً دقيقاً للأقاليم التي ارتحل فيها. «أناباسيس» مصدر قيّم للمعلومات عن الظروف في الأناضول وما بين النهرين والإقليم الإيجي في حدود سنة ٤٠٠ قبل الميلاد، الوقت الذي شهدت فيه كل من الإمبراطورية الفارسية والدول- المدن اليونانية أفضل أيامها.

كان أحد أكبر التحديات التي واجهها «عشرة الآلاف» هو كيف يعبرون الأنهار بغياب الجسور المتينة والمعديات التي يُعوَّل عليها. تبيّن نظرة إلى خريطة مسلكهم أن الجنود عبروا أنهاراً عديدة خلال السنتين اللتين ارتحلوهما. يزودنا زينوفون بمعلومات كافية للإشارة إلى أن إحدى الاستراتيجيات كانت هي استعمال جلود الحيوانات كوسائل للطفو. في مثال واحد، في أثناء الزحف جنوباً

على طول نهر الفرات، صادف الجنود مدينة على الضفة الأخرى يمكنهم أن يشتروا فيها المؤن. لعبور النهر:

«حشوا الجلود التي استعملوها أغطية للخيم بالعشب اليابس، ثم ضموها بعضها إلى بعض وخاطوها بحيث لا يصل الماء إلى التبن. عبروا النهر على هذه المحشوات وحصلوا على المؤن».

بعد ذلك بكثير، لما كان «عشرة الآلاف» يزحفون في الأطراف العليا المستقيمة لنهر دجلة نحو البحر الأسود ويتعاملون مع هجمات الفرس، تفكّروا في عبور النهر. اقترح يوناني من جزيرة رودوس طريقة لفِعْل هذا، مقابل دفْع طالِن فضة (ربما من خمسين إلى خمسة وسبعين باوند). كانت خطته تقضي بتشييد جسر عائم ضخم بنفخ نحو ألفي جلد حيوان، وربطها بعضها البعض بحبل، ومن ثم تغطية الجلود بسطح من الألواح الخشبية والتراب. بحسب زينوفون، تفكّر القادة في الخطة لكنهم قرروا رفضها لأن القوات الفارسية على الضفة المقابلة سوف تجعل العبور صعباً جداً، إن لم يكن مستحيلاً.

بعد ذلك في أثناء زحف «عشرة الآلاف» إلى البحر الأسود، وهم لايزالون يتعرضون لهجمات الفرس، واجهوا أصعب أحوالهم في الثلوج العميقة للأناضول الشرقية الجبلية (وكانت تدعى حينئذ أرمينيا). كان عمق الثلج في بعض الأماكن ست أقدام. لقد تيبَّست أحذية الجنود على أقدامهم. أهلك قرص الصقيع والجوع والإعياء كثيراً من الزاحفين والدواب الحاملة للأمتعة. مع وصولهم إلى البحر الأسود، كان عديدهم قد انخفض إلى ٨٦٠٠، وعدد الخسائر هذا قليل على نحو مذهل بالنظر إلى الصعوبات الكثيرة التي واجهوها.

مع دنوّ الجنود من البحر الأسود بالقرب مما هو اليوم ترابزون، عانى بعضهم صعوبة أخرى، وشاذة. ها هوذا زينوفون:

«كانت في هذه الأرجاء أعداد كبيرة من خلايا النحل، والجنود الذين أكلوا العسل، بأغلبهم، اعتلّت رؤوسهم، وعانوا من الإقياء والإسهال، وعجزوا عن

الوقوف منتصبين. الجنود الذين أكلوا قليلاً فقط تصرفوا كالسكارى، والذين أكلوا كثيراً كانوا كالمجانين. بعضهم مات فعلياً».

تحقق العلماء الحديثون من أمر حادثة «عسل الجنون» فأثبتوا أن العسل الطازج المصنوع من الوردية الصفراء، وهي زهرة توجد بكثرة على طول بعض القطاعات من ساحل الأناضول على البحر الأسود، قد يكون ساماً، وقد يُحدث شيئاً مثل «الجنون»، وقد يكون قاتلاً.

الإسكندر الأكبر

كما رأينا، يقدّم زينوفون قرائن على تدهور الأحوال السياسية والاقتصادية في الدول- المدن اليونانية وفي الإمبراطورية الفارسية. تسارعَ هذا المنحى في العقود التالية، متيحاً الفرصة لفتح الإقليمين كليهما على يد خارجي طموح. سنة ٣٣٨ قبل الميلاد هاجم فيليب المقدوني ائتلافاً من الدول-المدن اليونانية وهزمه في خايرونيا. وضعَ النصرُ المقدوني، الذي تبعه بسرعة اغتيالُ فيليب وخلافةُ ابنه الإسكندر البالغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة، خاتمةً لاستقلال اليونانيين طوال قرون كثيرة.

جاء في الوقت المشار إليه دور فارس. قاد الإسكندر، متحركاً بسرعة، جيشاً من ٥٠٠٠٠ جندي مقدوني ويوناني (إضافة إلى ما يقرب من ١٥٠٠٠ من غير المقاتلين) فعبر به الهيليسبونت إلى الأناضول في محاولة للاستيلاء على الإمبراطورية الفارسية. لقد بدأ بفِعْله هذا سلسلة من الأسفار المدهشة حقاً، قائداً جنوده خلال الأناضول وخلال الأراضي الفينيقية إلى مصر، ومن ثم شرقاً حتى ما هو اليوم باكستان وآسيا الوسطى وشمالي غربي الهند. لما عسكر الإسكندر في شمالي غربي الهند وعجز عن إقناع جنوده بأن يتبعوه في مزيد من المضي شرقاً، أوقف زحفه شرقاً سنة ٣٢٦ قبل الميلاد وانعطف نحو بابل، وهناك مات بعد ذلك بثلاث سنين قبيل عيد ميلاده الثالث والثلاثين.

يبدو من الواضح أنَّ الإسكندر لم يكتب شيئاً عن حملاته، ومع ذلك فإن أحد قادته، وما لا يقل عن واحد من معاصريه قد جمع روايات عن معاركه وفتوحه. ضاعت هذه السجلات منذ زمان طويل، لكن معلومات كثيرة منها باقية في أعمال الكتاب المتأخرين من مثل أرّيان وبلوتارك اللذين عاشا في القرنين الأول والثاني الميلاديين. إجمالاً، إن يكن السجلّ الوثائقي للإسكندر كرحالة إشكالياً من نواحٍ كثيرة فهو مُثخن بالمقارنة مع سجلّ هيرودوت، ويمكن مقارنته على وجه تقريبي مع السجل الذي تركه زينوفون.

كانت خصيصة جيش الإسكندر الصارخة أكثر من غيرها هي حركيته. كما رأينا، اشتملت القوة التي جمعها قوروش على آلاف العربات وما يقرب من اثنين من غير المقاتلين مقابل كل مقاتل. بالضد من ذلك، قلل الإسكندر – متبعاً المثال الذي ضربه أبوه – من استعمال العربات وقيّد عدد غير المقاتلين إلى ثلاثة لكل عشرة مقاتلين. أُلزِم مشاته بحمل معداتهم (نحو خمسين باوند) وحبوبهم ومائهم (إلى نحو عشرين باوند). حملت دواب الأمتعة – البغال والخيول والجمال – الخيم والمعدات الثقيلة والأدوات، وكذلك حباً وماءً إضافيين. بالتقليل إلى الحد الأدنى من استعمال العربات وتقييد عدد غير المقاتلين، استطاع الإسكندر أن يضرب خصومه بسرعة وأن يرتحل مسافات كبيرة، ربما ٢٠٠٠٠ ميل على الإجمال.

كانت إحدى أكثر الحلقات تشويقاً من حلقات حياة الإسكندر العملية هي الوقت (من سنة ٣٣٠ إلى ٣٢٧ قبل الميلاد) الذي أمضاه وهو يشن الحملات في ما هو اليوم أفغانستان وأوزبكستان، وكانتا تدعيان بَكتيريا وصُغديا على الترتيب. في ما مضى، كانت هاتان المنطقتان – الغنيتان بالمراعي والسهول المروية، التي تتناثر فيها الواحات وتتقاطع فيها المسالك التجارية الكبرى – تحت السيطرة الفضفاضة للفرس. في الوقت المشار إليه، بالقتال الضاري، أدخلهما الإسكندر في مداره، مقيماً الحاميات والمدن الجديدة بسرعة مع تدريب الرجال المحليين على القتال في كتائب من الطراز اليوناني. في أثناء هذه

المرحلة، يبدو أنه جعل مقره في العاصمة البكتيرية بَلْخ، وكانت يومئذ مدينة مسوّرة تقع على مسافة قصيرة من نهر جيحون. بحسب التراث القديم، ولد هنا زرادشت، النبي الفارسي من القرن السادس قبل الميلاد. كانت بلخ هي المدينة التي تزوج فيها، سنة ٣٢٧، الإسكندر أميرة بكتيرية اسمها روكسانِه، ربما كجزء من استراتيجية أوسع نطاقاً غايتُها التوصلُ إلى تفاهم مع طبقة النخبة المحلية. كما سنرى في فصول تالية، لقد ظل حجمُ بلخ وتحصيناتُها وموقعُها في قلب أوراسيا يجذب رحالةَ المسافات الطويلة - والمعتدين العسكريين - إلى وقت بعيد في المستقبل.

كان الإرث الذي تركه الإسكندر لرحالة المستقبل ذا شأن. رغم أن الإمبراطورية التي أقامها قد أخذت بالتفكك سريعاً بعد وفاته، فإن الحاميات والمدن التي أنشأها في أثناء حملاته - التي استوطنها الجنود والموظفون والتجار اليونانيون - استمرت بالازدهار زماناً طويلاً بعد ذلك. لقد ربط رحالة مجهولون لا يحصى عددهم، نستطيع توثيق أسفارهم أثرياً، جيوب الثقافة الهيلينية والممارسة التجارية هذه، فحولوها إلى شبكة من التجارةِ البعيدة المدى والتبادلِ الثقافي امتدت من دلتا النيل إلى سهول أفغانستان وجبالها.

الرحلات الرومانية

«كان السفر في معظم أرجاء الإمبراطورية الرومانية سهلاً وسريعاً وآمناً بدرجة لم تُعرَف إلى القرن التاسع عشر؛ كانت المناسبات لتغيير الإقامة أكثر بكثير مما هو الأمر اليوم [١٩٠٧]، وكان الماء والبرُّ كلاهما ينبضان بالتجارة والسفر.... في شمالي الإمبراطورية وغربيها كان النشاط أقل مما هو في القرن التاسع عشر: في الجنوب والشرق أكثر بكثير». [فريدلاندر].

أحدثَ توسّعُ الحكم الروماني، ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد، في إقليمي البحر المتوسط والبحر الأسود فرصاً جديدة للرحلات دامت إلى نهاية العصر الكلاسيكي. قام تحوّلان أساسيان في أصل الازدياد الحاد في الرحلات في أثناء مرحلة الأوج الروماني. إن الوحدة السياسية التي أقامها الرومان

وفرضوها في سائر أرجاء البحر المتوسط وأوروبا الغربية، ولا سيما في أثناء القرنين الأولين من التاريخ العمومي[١] (السلام الروماني)، فقللت تقليلاً ذا شأن من الأخطار المصاحبة للسفر البري والبحري. لم يوضع حد نهائي لنشاطات عصابات الطرق السريعة وقراصنة ركوب البحر، لكنَّ إحداثهم للمشاكل قلَّ بسبب الذراع الطويلة للقانون الروماني.

كان التطور الثاني الراعي لتسارع السفر هو تعاظم الاقتصاد الروماني بين سنتي ٢٠٠ قبل الميلاد و ٢٠٠ ميلادية. لقد استرد علماء الآثار العاملون تحت الماء بقايا سفن عديدة غارقة في البحر المتوسط تعود إلى هذين القرنين؛ يشير العدد العالي لحوادث الغرق والحجم الكبير للمراكب (سفن الشحن) إلى اقتصاد تجاري مزدهر. توحي مجموعة منتوعة من الأدلة بازدياد في إنتاج القمح والخمر وزيت الزيتون والمنسوجات والفخار والخشب واللِّبْن. كان معظم هذا المنتَج الزائد يُنقل إلى مدينة روما، التي نما عدد سكانها حتى بلغ مليوناً تقريباً بحلول سنة واحد ق.م للميلاد.

وضعت هذه الوحدةُ السياسية والاقتصادُ النابض بالحياة الرومانَ على الطرق والخطوط البحرية بأعداد لا سابق لها. كان التجار والجنود والعبيد هم بلا شك أكثر المسافرين عدداً. مع أن سجلات المسافرين من هذه الزمر، إذا أخذوا فرادى، نادرة جداً فإن شاهدة قبر في مدينة هيرابوليس الأناضولية تمجّد الرحلات الاثنتين والسبعين التي قام بها إلى إيطاليا تاجر اسمه فلافيوس زيوكسيس. من غير المحتمل أن آخرين كثيرين من أهل التجارة قد ضاهوا سجل رحلات فلافيوس زيوكسيس. لكن مأثرتَه برهانٌ على أن الرحلات البحرية المتكررة في شرقي المتوسط كانت أمراً عملياً في العصر الإمبراطوري الباكر.

كذلك قام رومان آخرون عديدون بأسفار في البر والبحر. تشير نتف من الأدلة إلى أن موظفين إمبراطوريين ومبعوثين وسعاة بريد ومؤلفين وعلماء

(١) ويُعرف بالتاريخ الميلادي – المترجم.

وطلاب وصنّاع ومسلّين ورياضيين وحجاج ومبشرين وسياح قد سافروا مراراً وتكراراً، قاطعين في كثير من الأحيان مسافات طويلة. كذلك فعل كثير من الأباطرة الأوائل. إن يوليوس قيصر، الذي حال اغتياله سنة ٤٤ قبل الميلاد دون أن يصبح إمبراطور روما الأول، قد سافر أسفاراً واسعة كقائد عسكري، وكرجل إدارة إقليمي، في ستينيات القرن الأول قبل الميلاد وخمسينياته، ممضياً فترات متفاوتة من الزمان في الأناضول وإسبانيا والغال وبريطانيا ومصر وسورية وشمالي أفريقيا. لقد أبحر أوكتافيان/أوغسطس (حكم ٢٧ قبل الميلاد- ١٤ ميلادية) من جنوبي إيطاليا على رأس أسطول كبير من السفن الحربية سنة ٣١ قبل الميلاد ليحرز نصره العسكري المهم على أنطونيو وكليوباترا. في السنوات التي سبقت تتويج تيبيريوس/ حكم ١٤-٣٧/ إمبراطوراً، قاد الجنود الرومان في حملات إلى إسبانيا وأرمينيا وألمانيا؛ كذلك أمضى ثماني سنوات في جزيرة رودوس في نوع من التقاعد قبل توليه منصبه. طفلاً، رافق كاليغولا (حكم ٣٧-٤١ ميلادية) أباه إلى سورية؛ لاحقاً، في أثناء حكمه القصير (قصّره الاغتيال)، قاد حملات عسكرية في ألمانيا والغال بلغت به شواطئ القنال الإنكليزي.

كان هادريان (حكم ١١٧- ١٣٨ ميلادية) أكثر الأباطرة حركة. لقد أمضى نحو نصف مدته في المنصب متنقلاً. في أوائل حكمه، قام برحلته الأكثر طموحاً، مستغرقاً أكثر السنوات التي بين سنتي ١٢١ و١٢٥ بزيارة كثير من المناطق الحدودية الرومانية. أخذته هذه البعثة من مدينة روما إلى ما هو اليوم ألمانيا وإنكلترا وفرنسا وإسبانيا والمغرب، من ثم بالسفينة إلى أنطاكية في ما هو اليوم تركيا. من أنطاكية زحف شمالاً عابراً الأناضول إلى ميناء ترابزون على البحر الأسود، ومن ثم اتبع مسالك بحرية وبرية عائداً إلى روما، مع وقفتين في إفسوس وأثينا. بعد ذلك بثلاث سنوات انطلق هادريان مرة أخرى، هذه المرة في رحلة بحرية قصيرة (بحسب معاييره) عابراً البحر المتوسط إلى شمالي أفريقيا ليزور الجنود الرومان المتمركزين في ما هو اليوم الجزائر. كانت

رحلة هادريان الأخيرة، في أثناء السنوات من ١٢٨ إلى ١٣٢، عبارة عن جولة برية وبحرية في شرقي المتوسط اشتملت على زيارات لأثينا وإفسوس وأنطاكية وتدمر والقدس والمدينتين المصريتين الإسكندرية وطيبة. مع نهاية رحلته الثالثة، كان عدّاد سير الإمبراطور قد بلغ نحو ١٨٠٠٠ ميل.

لقد سهّلت رحلاتِ هادريان الشبكةُ الممتازة من الطرق السريعة المبلطة التي أقامتها الإمبراطورية، وبلغ طولها الإجمالي في أثناء حكمه نحو ٤٨٠٠٠ ميل. يبدو أن الرومان قد شيدوا الشبكة للغرضين العسكري والإداري مجتمعين. نُشِر الجنود في أرجاء الإمبراطورية البالغة مساحتها ١٨٠٠٠٠٠ ميل مربع على الطرق السريعة؛ في الحقيقة، لقد شُيد كثير من الطرق على يد الجيش. كان العرض المعتاد للشرايين الرئيسية هو من خمس عشرة إلى ثماني عشرة قدماً، وصُنعت من أربع طبقات من الحجارة والحصى الممسوكة بالملاط؛ زاد من المتانة خنادق عميقة لتصريف المياه. (يمكن للمرء رؤية أجزاء باقية من هذه الطرق في ما هو اليوم سورية والبرتغال، وكذلك الكثير من الأجزاء الأخرى من العالم الروماني السابق). نُصبت أعمدة حجرية كعدّاد للأميال من أجل مساعدة المسافرين؛ أكثر من ٤٠٠٠ من هذه العلامات باق إلى يومنا هذا.

بالإضافة إلى الأهمية العسكرية للطرق السريعة، فقد كانت ضرورية لإدارة الإمبراطورية، التي بلغ عدد سكانها ذروته في القرن الثاني الميلادي، وهو نحو ٥٠ مليون نسمة. بدأ الإمبراطور أوغسطس ممارسة استعمال الطرق الرئيسية لجهاز سعاة البريد الرسمي، «كورسوس بوبليكوس»، لتمكين الأباطرة من حكم دولتهم الشاسعة «بالرسالة». من الراجح أن شبكة سعاة البريد هذه قد أنشئت اتّباعاً لنموذج الشبكة التي استُعملت سابقاً من الفرس ووصفِها هيرودوت. كان الجزء المركزي من الجهاز الفارسي هو «الطريق الملكي» الماضي من سوسا، في ما هو اليوم جنوبي غربي إيران، إلى سارديس في غربي الأناضول، على مسافة ١٤٠٠ ميل. بحسب هيرودوت، كان على طول المسلك ١١١ موقعاً من مواقع المراحل الملكية (بفواصل اثني عشر ميلاً أو ثلاثة عشر) والكثيرُ من «الخانات الممتازة» وبعضُ المخافر.

كان على الطريق أنهار كثيرة ينبغي عبورها، ويبدو أنهم قد أوجدوا معدّيات لأجل ذلك. قدّر هيرودوت أن المعدل الوسطي لسير أكثر المسافرين على «الطريق الملكي» قد بلغ خمسة عشر أو ستة عشر ميلاً في اليوم، ما يعني أن كامل الرحلة من سوسا إلى سارديس كان يأخذ تسعين يوماً. لا ريب في أن سعاة البريد الرسميين كانوا يسيرون بسرعة أكبر من ذلك.

أقام الرومان محطات متتابعة أو مواقع مراحل تصان محلياً لتبديل الخيول بفواصل، كل منها من عشرة أميال إلى اثني عشر ميلاً، على طول الطرق السريعة الرئيسية. شيدت نُزُل للمبيت ليلاً تموّل تمويلاً مماثلاً لما تقدّم، يبعد الواحد عن الآخر نحو خمسة وعشرين ميلاً، وهو المعدل الوسطي لطول مسير يوم على هذه الطرق. يبدو أن السرعة النموذجية لسعاة البريد الرسميين كانت نحو خمسة أميال في الساعة، لكن عندما تكون الرسالة مهمة أهمية غير اعتيادية فقد كانت تسجّل معدلات أكثر سرعة.

كان السفر على الطرق السريعة الرئيسية محصوراً في معظمه بأفراد مكلفين بأعمال رسمية: جنود وسعاة بريد ورجال إدارة. كان المواطنون الذين يبتغون استعمال الطرق لأغراض خاصة يستطيعون فِعل ذلك فقط إذا حصلوا على وثيقة رسمية (ديبلوماتا) من أحد رجال الإدارة. كانت الوثائق، كهذه، تصدر لمجموعة متنوعة من المسافرين غير المتولين منصباً عاماً، لكن نادراً ما كانت تصدر لتجار. كانت كلفة النقل البري أكبر بكثير (أكبر بنحو أربعين ضعفاً) من كلفة نقل البضائع في المراكبِ أو القواربِ أو سفنِ البحر المالح. نتيجة لذلك، لم يُوجد نقلٌ تجاري كثير على الطرق السريعة الرئيسية.

بيد أنه قد حدث ازدياد عظيم في عدد الرحلات البحرية التجارية في البحر المتوسط والبحر الأسود في أثناء قرون السلام الروماني. إن القمح وغيره كثير من البضائع التي كان يحتاجها عدد السكان الضخم لمدينة روما قد جاء من المقاطعات، وجاء معظمه بحراً. في أثناء موسم الشحن السنوي (وكان يستثني شهور الشتاء)، كانت المراكب من إسبانيا وفرنسا وشمالي أفريقيا

وساردينيا وصقليا تُفرغ كميات كبيرة من القمح وزيت الزيتون والخمر والسمك وغير ذلك كثير من السلع في ميناءي روما، وهما أوسْتيا وبوتيولي (بالقرب مما هو اليوم نابولي). كان شريان الحياة الأهم لروما هو المسلك البحري من الإسكندرية. كانت تأتي من الميناء المصري الكبير في دلتا النيل شحنات ضخمة من القمح المخصص لإطعام الفقراء الرومان، كذلك تطلعت روما إلى الإسكندرية من أجل الكتان والبردي المصريين، وأيضاً من أجل مجموعة متنوعة من السلع من أماكن أكثر بعداً كانت تُشحن عبر الميناء المصري: البخور من جنوبي الجزيرة العربية، والعاج من أفريقيا تحت الصحراء، والفلفل وغيره من التوابل من الهند، والحرير من الصين. في أماكن أخرى من شرقي المتوسط، كانت الموانئ الفينيقية كصور وصيدا والمرفأ الأناضولي إفسوس تزود روما بخليط من السلع المنتجة محلياً والبعض مما كان يُشحن من بعيد خلال تلك الموانئ.

بولس الرسول المسيحي

يظهر فجأة وصفٌ نابض بالحياة للسفر في البحر المتوسط في القرن الأول الميلادي من صفحات الإصحاح ٢٧ من «أعمال الرسل» في «العهد الجديد»، التي تخبرنا عن مسير القديس بولس (نحو ١- ٦٥ ميلادية) من اليهودية إلى روما نحو سنة ٥٩-٦٠ ميلادية. لما كان بولس في مشكلة قانونية مع زعماء اليهود والمسؤولين الرومان المحليين، فقد طالب بحقه كمواطن روماني في أن يحاكَم في العاصمة. عُيّن قائد مئة روماني لأخذه إلى هناك.

قبل هذه الأحداث، أمضى بولس جزءاً كبيراً من عمره في التنقل. يهودياً بالمولد، أمضى شبابه في طرسوس، وهي مدينة في جنوبي شرقي الأناضول كانت مركزاً مدينياً كبيراً على الطريق السريع العابر للأناضول، وهناك تعلّم – على الأرجح – المهنة النافعة، وهي صنع الخيام. بعد دخوله المثير في المسيحية في الثلاثينيات من عمره، عاش بضع سنين بين الجماعة المسيحية

في دمشق قبل أن ينقل إقامته إلى أنطاكية، المدينة التي أصبحت قاعدته في أثناء سنيِّ عمره كمبشر.

قام بولس بثلاث رحلات واسعة في منطقتي شرقي المتوسط وبحر إيجة في أواسط القرن الأول من أجل تقديم تعاليم المسيحية للأمم. يبدو أن خطته كانت تقوم على إنشاء الكنائس في المدن على الطرق السريعة الرومانية الرئيسية في الأناضول وفي الموانئ الأساسية على بحر إيجة؛ من قواعد مدينية كهذه، يمكن للدين الجديد حينئذ أن يُنقَل إلى المناطق الريفية القريبة. في سفر بولس براً، من الراجح أنه سار ماشياً يصحبه مرافق أو اثنان وحمار يحمل متعلقاته. في سفره بحراً، لا ريب في أنه التزم الممارسة المعتادة، وهي حجزُ حق الركوب على القوارب الساحلية الصغيرة من أجل التنقلات القصيرة، وأخْذُ مراكب الشحن الأكبر حجماً من أجل الرحلات في البحر المفتوح. أما في ما يتعلق بالمبيت وأسباب الراحة، فإن «الأعمال» ينبئنا أنه عومل مراراً وتكراراً بكرم الضيافة من زملائه المسيحيين. لعل الدعم المالي الذي ناله من شركائه في الدين، وكذلك مهاراته في صنع الخيام، قد زوّداه بدخل كافٍ للإقامة في الخانات حين لم يكن له خيار آخر.

كان بولس رحالة شديد التحمل. في أثناء رحلاته التبشيرية الثلاث، التي ربما غطت ١٢٠٠٠ أو ١٣٠٠٠ ميل، سُجِن بضع مرات ونجا من غرق سفينته ثلاث مرات. لا «الأعمال» ولا رسائله إلى شتى الجماعات المسيحية تقدّم معلومات كثيرة عن التحديات اليومية للحياة في أثناء التنقل، بيد أننا أكثر حظاً في ما يتعلق برحلته الأخيرة، الرحلة البحرية إلى روما التي قام بها في ظل مواكبة عسكرية.

ابتدأت هذه الرحلة من ميناء قيصرية في اليهودية، في أواخر موسم الإبحار (أواسط نيسان إلى أواسط تشرين الأول) لما أصبحت العواصف أكثر تواتراً وأكثر خطورة. بقيادة قائد مئة روماني اسمه يوليوس، ركب بولس وبضعة سجناء آخرين، وكذلك مؤلف «الأعمال»، سفينة شحن متوجهة إلى الميناء

الأناضولي ميرا. بعد أن أبحر المركب صاعداً ساحل المشرق، توقفت السفينة وقفة قصيرة في الميناء الفينيقي صيدا ثم انعطفت غرباً في رياح قوية وكافحت حتى وصلت إلى ميرا، حيث نزل الركاب.

سرعان ما وجد يوليوس مركباً آخر، سفينة حبوب ضخمة قاعدتها الإسكندرية فيها مكان يستوعب ٢٧٦ (من المسافرين والطاقم والجنود) تأخذهم إلى روما. بعد مغادرة ميرا، لازمت سفينة الشحن الساحل الأناضولي في وجه الرياح الشديدة ثم توجهت نحو الساحل الجنوبي لكريت. لقد حث بولس، وربما ركاب آخرون، على التوقف وقفة قصيرة في كريت ريثما تتحسن الأحوال. لكن، قبل العثور على مرفأ آمن، هبّت ريح شمالية شرقية عنيفة مدة أربعة عشر يوماً فحملت السفينة بعيداً عن مسارها. خاف جميع الركاب على أنفسهم حتماً. لقد كانت الأحوال خطيرة بحيث إن بعض الطاقم حاول ترك السفينة. للإبقاء على السفينة عائمة، رُمي جزء من الحبوب عن ظهرها. ولما بدا أن الجميع قد فقدوا الأمل، بدت للناظر شواطئ مالطا. جعل الطاقم السفينة تجنح قريباً من الشاطئ. ومع تفككها، وثب بولس والآخرون جميعهم عن ظهر السفينة وسبحوا إلى الشاطئ.

أمضى بولس وزملاؤه في السفينة الشتاء في مالطا ثم استأنفوا مسيرهم. ركبوا سفينة أخرى من الإسكندرية متوجهة إلى روما. بعد وقفة وجيزة في سيراكوس في صقليا، وصلوا إلى الساحل الإيطالي وميناء بوتيولي. أمضى بولس، وهو لا يزال تحت الاعتقال والحراسة من يوليوس قائد المئة، أسبوعاً في بتيولي، مقيماً عند أفراد الجماعة المسيحية المحلية. ثم إنه مضى قدُماً إلى روما، مستعملاً على الأرجح الطريق السريع الساحلي الكبير الذي كان يصل الميناء بالعاصمة. يختتم «الأعمال» روايته لرحلات بولس وكرازته فينبئنا أنه استطاع في روما أن يستمر في وعظه لسنتين، «بكل مجاهرة بلا مانع». بعيد ذلك، بحسب التراث، قُتل في هجمات الإمبراطور نيرون على المسيحيين.

السياحة المتوسطية

في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، نظمَ شاعرٌ يوناني من صيدا، الميناء الفينيقي، كثيرُ الأسفار، اسمُه أنتيباتر هذه الأبيات:

«لقد أمعنتُ النظر في أسوار بابل المنيعة،

التي يمكن للمركبات أن تتسابق على طولها،

وفي زيوس الذي على ضفاف ألفيوس.

لقد رأيت الحدائق المعلقة،

وكولوسوس هيليوس،

والأهرامات السامقة تلك الجبال العظيمة التي صنعها الإنسان،

وقبر ماوسولوس الهائل.

لكني لما رأيت بيت أرتيميس المقدس الشامخ فوق الغيوم،

فقد صارت تلكَ في الظل،

لأن الشمس نفسها لم تنظر قط إلى نظير له خارج الأوليمب».

قصيدة أنتيباتر هي أول نص حول الفكرة القائلة بوجود عجائب سبع في العالم المتوسطي الكلاسيكي: أسوار بابل وحدائقها المعلقة، وتمثال زيوس في أوليمبيا، والأهرامات المصرية، والتمثال الضخم (كولوسوس) في مرفأ رودوس، والقبر الضخم لماوسولوس الحاكم الأناضولي (حكم ٣٧٧-٣٥٣ قبل الميلاد)، ومعبد أرتيميس الرحب في إفسوس. في النسخ المتأخرة من العجائب السبع، حُذفت أسوار بابل وفُضلت عليها المنارة العظيمة على فاروس مرفأ الإسكندرية.

كان إنشاء تقليد العجائب السبع جزءاً من نمطٍ للرحلات في شرقي المتوسط، نمطٍ جديدٍ أكثر اتساعاً تحابكَ مع التوسع في السلطة السياسية الرومانية. كان هذا التطور الجديد هو ظهور السياحة. بالطبع، يمكن عدُّ هيرودوت السائح الأول في العالم الكلاسيكي. إن وصفه النابض بالحياة للأهرامات المصرية وللمواقع في بابل، وهذان مثالان نقتبسهما من «التواريخ»،

يوحي بأنه قد سافر، جزئياً على الأقل، من أجل اللذة التي تأتي من الاطلاع المباشر على أراضٍ وشعوب أجنبية.

كان هيرودوت أبعد من أن يكون اليوناني الوحيد المستمتع بزيارة مواقع الفرجة في مصر وبابل، لكن السفر من أجل اللذة في البحر المتوسط قد تسارع تسارعاً مهماً في أثناء عهد الإمبراطورية الرومانية. في الحقيقة، يبدو أن السياحة، عند الطبقات العليا الرومانية، قد أصبحت نشاطاً أساسياً من أنشطة وقت الفراغ، ولا سيما إبَّان القرنين الأولين من التاريخ العمومي، حين كان النظام السياسي والرفاهية الاقتصادية في البحر المتوسط الكلاسيكي في ذروتهما.

مكانان غنيان بالتاريخ - اليونان ومصر - كانا المقصدين المفضلين عند الرومان الذين سافروا إلى الخارج للذة. من أجل الرحلة إلى اليونان، وكانت سفراً برَّاً وبحراً مجتمعين، وُجِدت خرائطُ توضح المسالك المرغوبة أكثر من غيرها، وكذلك المسافات بين مواقف الاستراحة والخانات. في أثناء القرن الثاني، عمل كاتب يوناني اسمه باوسانياس دليلاً ضخماً جيد المعلومات يتناول المواقع التاريخية المهمة في اليونان، وهو منشور يعدُّ السلف الحقيقي لأفضل دليل سياحي حديث.

كان الرومان يسافرون عادةً إلى مصر بحراً. كانت سفن الأحمال الكبيرة التي تستطيع حمل الشحنات والمئات من الركاب، كالتي أخذت بولس إلى مالطا، تقوم بالرحلة من بوتيولي إلى الإسكندرية، وهي مسافة تبلغ ألفَ ميل، في نحو عشرين يوماً؛ في الأحوال المثالية، كان يمكن للسفينة أن تختصر المدة في الريح القوية إلى تسعة أيام. (المسلك البري من روما إلى الإسكندرية على طرقٍ خلال جنوبي إيطاليا واليونان والأناضول كان يأخذ نحو شهرين). لكن رحلة العودة بحراً كانت تأخذ وقتاً أطول بكثير. كانت الرياح السائدة من الشمال، وتدعى إتيزيان («السنوية») تجبر المراكب التي تغادر الإسكندرية إلى بوتيولي على أخذ مسلك غير مباشر، كما رأينا في ما يتعلق برحلة بولس

البحرية. لقد طالت رحلته، بسبب ابتدائها في أواخر السنة، طولاً غير معتاد بسبب الاضطرار إلى تمضية الشتاء في مالطا. لكن، حتى الرحلات البحرية الصيفية من الإسكندرية إلى بوتيولي في أحوال الإبحار الجيدة كانت ربما تأخذ حتى شهرين.

استحفر علماء الآثار بقايا العديد من الخانات في المواقع التي كان يتردد عليها السياح الرومان. يبدو أن أكثر هذه المنشآت كان صغيراً ومظلماً وقذراً. متى ذُكرت الخانات من قبل الكتاب الكلاسيكيين، كانت النبرة كثيراً ما تنمُّ عن عدم السرور. هاهوذا سينيكا، الكاتب الروماني من القرن الأول الميلادي، يشتكي من ظروف مبيته في بيزنطة:

«أسكنُ [مؤقتاً] فوق حمام عام مباشرة. تخيلوا كل نوع من صوت البشر الذي يجعلنا نكره آذاننا! حينما يتمرّن الذين من الصنف العضلي بأثقال الرصاص ويرمونها، حينما يتوترون (أو يُحدثون الاعتقاد بأنهم يتوترون)، أسمعُ قباعاً [وأصواتاً إضافية كثيرة غير سارة].... ثم هاهنا بائع الشراب بشتى صيحاته، وبائع السجق، وبائع الكعك، وكلّ مدبّري المطاعم، كلّ ينادي على بضاعته بترنيم خاص».

ليس عجباً أن كان كثير من السياح يفضلون استئجار مكان في المنازل الخاصة، إن أمكن ذلك.

أوائل الحجاج المسيحيين

«الذي شاهد اليهودية بأمِّ عينيه، والذي يعرف مواقع المدن القديمة، وأسماءها، سواء أكانت هي نفسها أم تغيرت، سوف يُنعم النظر في الكتاب المقدس بمزيد وضوح». [القديس جيروم، نحو ٣٤٢ -٤٢٠ ميلادية].

كان الحجاج المسيحيون الذين سافروا إلى القدس إبَّان القرون الثلاثة التي جاءت عقب وفاة المسيح قليلي العدد، لكن تحولات مثيرة في أثناء حكم قسطنطين (٣٠٥-٣٣٧) وهو أول إمبراطور مسيحي، سرعان ما قلبت القلة إلى

دفق. بحسب يوسيبيوس المؤرخ من القرن الرابع، دخل قسطنطين في المسيحية سنة ٣١٢ بعد إحرازه نصراً عسكرياً كبيراً في شمالي إيطاليا، عزا نتيجته إلى تأييد من «مسيح الله». سريعاً بعد هذه المعركة أجاز قسطنطين المسيحية وبدأ مشروعاً لبناء الكنائس في سائر أرجاء عالمه من أجل وضْع دينه المُتبنَّى حديثاً على قدم المساواة مع الفرق الوثنية الرومانية التقليدية. بالإضافة إلى ذلك، ولتشجيع الوحدة اللاهوتية، عقدَ أول مجمع مسكوني للأساقفة المسيحيين في نيقيا، غربي الأناضول سنة ٣٢٥.

كان هذا هو السياق الذي تولدت فيه عند قسطنطين الخطة لبناء كنيسة في القدس في موقع صلب المسيح، وهي البقعة التي كان يشغلها يومئذ معبد روماني يمجّد الإلهة أفروديت. بما أن قسطنطين كان غير قادر على السفر إلى القدس للإشراف على هذا المشروع، فقد أرسل أمه العجوز، هيلينا، وهي أيضاً مسيحية، لتنوب عنه.

كانت رحلة هيلينا إلى القدس سنة ٣٢٧ أول حجة إلى الأرض المقدسة المسيحية لها سجل غني. يزودنا يوسيبيوس بمعلومات عن مسلكها وطريقة سفرها ونشاطاتها بالغة الأهمية في فلسطين. بدأت رحلتها في روما، ومنها مضت قُدُماً إلى بيزنطة، وهي عاصمة ابنها الشرقية الحديثة الإنشاء، والتي لن تلبث أن يبدّل اسمها لتدعى القسطنطينية. من بيزنطة ارتحلت عابرةً الأناضول على الطريق العسكري الروماني الرئيسي في «حق مرور إمبراطوري»، أعني كرئيسة لحاشية من رجال الإدارة والجنود والخدم. في كل مكان من الأمكنة الستين، أو نحو ذلك، التي استراحت فيها ليلاً، كان الموظفون المحليون يعدّون ترحيباً مفصلاً ومبيتاً مناسباً. كانت هيلينا تردُّ على كرم ضيافتهم بتبرعات سخية للجنود المحليين والجمعيات الخيرية والكنائس.

ما إن وصلت هيلينا إلى فلسطين، حتى ثَبَتَ من أنشطتها في القدس وما جاورها أن رحلتها لن تكون حدثا شاذاً بل بداية لتقليد جديد ومهم من السفر المسيحي، ولا سيما عند النساء الرومانيات من الطبقة العليا. ينسب يوسيبيوس

إليها فضيلة الابتداء بتشييد كنيستين قُدّر لهما أن تصبحا مركزيتين للحجاج المسيحيين في الأرض المقدسة، وهما الكنيستان اللتان شيدتا في موضع ميلاد يسوع في بيت لحم، وفي الموضع على جبل الزيتون حيث يُعتَقد أنه صعد إلى السماء. مع أنه لا يَذكر لهيلينا دوراً في بناء كنيسة القيامة – الكنيسة الواقعة في القدس في موقع صلب يسوع ودفنه – فمن المحتمل جداً أنها كانت ضالعة في ذلك المشروع أيضاً، وربما ضلوعاً مهماً.

لتشييد كنيسة القيامة، مُسِح المعبدُ المخصص لأفروديت من الموقع ونُقب في الأرض تحته. في أثناء الحفر اكتشف المنقبون قبراً يعتقد المسيحيون أنه قبر يسوع، أعني القبر المقدس؛ الذي صار عقب ذلك المشهدَ المركزي في كنيسة القيامة. في العقود اللاحقة ادعى الكتاب المسيحيون أيضاً أنه كُشِف في أثناء التنقيبات، بالإضافة إلى القبر، عن كسرات من الصليب الذي لقي عليه يسوع حتفه وأن هيلينا هي التي تعرّفت على الكسرات بصفتها تلك. بحسب هؤلاء الكتاب، احتُفظ ببعض كسرات الصليب للعرض في القدس، أما البقية فأرسِلت إلى الإمبراطور اعترافاً بدوره المهم في الإعلاء من شان المسيحية.

إجمالاً، بعد ثلاثة قرون من وفاة يسوع أعاد قسطنطين وهيلينا اكتِشافَ فلسطين المقاطعة الرومانية كأرض مقدسة مسيحية، وهو تحوّل في وجه فلسطين وسِم سنة ٣٣٥ بأن جُمع في القدس الأساقفةُ من أرجاء الإمبراطورية الشرقية من أجل التكريس الرسمي للمباني المسيحية الجديدة. لقد نُصبت المنصة في الوقت المشار إليه لتدفّق الحجاج.

استفاد الرحالة المسيحيون الذين تبعوا هيلينا إلى القدس من بنية النقل التحتية الرومانية الموجودة التي استعملتها في مسيرها عابرةً الأناضول. ما يكشف عن أمور مهمة في ما يتعلق بهذا الأمر السجلُّ الذي جُمع سنة ٣٣٣ على يد أول حاج زار القدس بعد هيلينا، وهو فرد يُعرف فقط باسم «حاجّ بوردو». مضى هذا الرحالة، منطلقاً من ساحل الغال (فرنسا) الأطلسي، براً على الطرق الرومانية الرئيسية خلال شمالي إيطاليا ووادي الدانوب إلى

القسطنطينية في مسير يقارب ٢٢٠٠ ميل أخذَ ثلاثة أشهر أو نحو ذلك لإكماله. من القسطنطينية اقتفى آثار مسلك هيلينا على الطريق العسكري الروماني في الأناضول إلى أنطاكية والقدس، وهي مسافة إضافية تقارب ١٢٠٠ ميل استغرقت شهرين آخرين أو نحوهما.

لدينا معلومات جيدة عن رحلة حاج بوردو إلى القدس لأنه عملَ سجلاً دقيقاً بمسلكه والوقفات التي وقفها على الطريق، ربما ليستعملها حجاج المستقبل. (كان خط سيره في رحلة عودته إلى الديار أقل اكتمالاً؛ لعله رأى، كرحالة غيره كثيرين، أن مسير العودة للديار أقل جدارة بالملاحظة). لخط سيره قيمة خاصة بسبب ما يلقيه من ضوء على جهاز النقل البري الروماني في القرن الرابع. رغم أن حاج بوردو قد سافر لأغراض خاصة لا رسمية، فإن كل وقفة له كانت في موقع مرحلة رومانية أو نُزل روماني، ما يشير إلى أن جهاز النقل الإمبراطوري كان يعمل بفعالية وأنه كان متاحاً للأشخاص من غير ذوي المنصب العام، بشرط الإذعان لإرادة المسافرين الرسميين.

في القرن أو نحو القرن بعد رحلة حاج بوردو، ازداد عدد المسيحيين المسافرين إلى الأرض المقدسة ازدياداً مهماً، علماً أن الصبغة المرقّعة لأدلتنا تجعل من المستحيل معرفة العدد بدقة. لكنّ منحى ذا شأن يشير بوضوح إلى جهة ازدياد حركة الحجاج، هذا المنحى كان هو نمو شبكة الضيافة للمسافرين، المراد بها على وجه التحديد هم المسيحيون. لعل هذا التطور الجديد قد دُشّن على يد باسيل أسقف قيصرية (٣٣٠-٣٧٩)، الذي أنشأ نزلاً كبيراً للمسافرين المسيحيين على الطريق الروماني الرئيسي وسط الأناضول، ورعى إقامة منشآت أخرى كهذه في أماكن أخرى.

كانت النسوة الرومانيات الثريات من الطبقة العليا بارزات في الاستجابة لنداء باسيل إلى إحداث منشآت للحجاج. أقامت امرأة رومانية من النبلاء، تعرف باسم ميلانيا الكبرى، ورفيقها الديني روفينوس الأكيليائي نزلاً للحجاج المسيحيين على جبل الزيتون في ثمانينيات القرن الرابع. في العقد نفسه أنشأت

امرأة رومانية ثانية من النبلاء تعرف باسم باولا، مع رفيقها الديني القديس جيروم، نزلاً للحجاج في بيت لحم. بعيد ذلك، في عشرينيات القرن الخامس وثلاثينياته، تولت حفيدة ميلانيا، وتُعرف بميلانيا الصغرى، رئاسة النزل على جبل الزيتون. في أربعينيات القرن الخامس وخمسينياته، رعت الإمبراطورة يودوكيا، زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، مشاريع بناء كبرى في القدس وحولها اشتملت على إقامة ديرين جديدين (اشتملا نموذجياً على أماكن مبيت للحجاج) وكنيسة اكتسبت الشهرة سريعاً ضمت جثمان القديس اصطفان، وهو أول شهيد مسيحي.

كان في النزل المسيحية، وتُعرف باسم «زينودوخيا»، شبهٌ ما من الخانات اليونانية والرومانية المتقدمة عليها. كانت المنشآت الثلاث تخدم المسافرين بتقديم المأوى والوجبات والإسطبلات لدواب الحمل. كانت المؤسسات الثلاث متشابهة أيضاً في أن كلاً منها كانت تيسّر المبادلات بين الثقافات ونشرَ الأمراض. لكن، كما رأينا، كانت الخانات اليونانية والرومانية قد أُنشئت على يد سلطات علمانية لأغراض سياسية وعسكرية ومالية. كانت «زينودوخيا» مختلفة عن ذلك إذ أُنشئت على يد زعماء وعَوَامّ مسيحيين لأهداف دينية. كان الحجاج يشجَّعون على تقديم إسهامات مالية موجهة إلى كلفة إقامتهم، لكن الخانات المسيحية كان يشغّلها رهبان تأتيهم نفقتهم الأساسية من صناديق كنسية ومن تبرعات أهل الإحسان العوام الأثرياء كالميلانياتين وباولا (ومن أباطرة وإمبراطورات أيضاً).

مع أهمية دور النساء الرومانيات الأربع اللاتي ورد ذكرهنَّ في المناقشة أعلاه في إقامة المنشآت للمسافرين المسيحيين، لا يمكننا رؤيتهن إلا من «خلال مرآة، على نحو عاتم» لأن أياً منهن لم تخلّف أي سجلّ بنشاطاتها. تأتي معلوماتنا عن أدوارهنَّ المهمة في الإعلاء من شأن الحج إلى الأرض المقدسة من كتابات سطَّرها معاصرون لهنَّ، كالقديس جيروم في حالة باولا. لكن، لدينا سجلّ قيم قيمة استثنائية عملته حاجّة في القرن الرابع، هو سجلّ إغيريا، إمرأة رومانية من النبلاء

من الغال أو إسبانيا كانت في الأرض المقدسة من سنة ٣٨١ إلى ٣٨٤ وكتبت تقريراً مفصلاً عن نشاطاتها وملاحظاتها.

سجلت إغيريا تجاربها في رسالة مطولة، أرادت بها زمرة من الصالحات في ديارها، ألفتها في القسطنطينية بُعيد زيارتها للأرض المقدسة. المتبقَّى من هذه الوثيقة هو جزء فقط، نصفه وصفٌ مفصل بدقة للسنة الليتورجية في القدس، أعني الأعمال التعبدية في كنيسة القبر المقدس وسواها من المقامات. هذا الجزء من الرسالة عونٌ لنا على تقدير منجزات قسطنطين وهيلينا في «إسباغ الصبغة المسيحية» على القدس في ما تقدّم من هذا القرن. يقدّم لنا النصف الآخر من الرسالة صورةً حيةً لأسفار إغيريا في فلسطين ومنطقة سيناء والأناضول.

يبدو أن إغيريا قد جعلت من القدس قاعدة لها في أثناء المدة التي أمضتها في الأرض المقدسة. من المدينة المقدسة قامت ببضع رحلات إلى المواقع المقدسة في سيناء وفلسطين، مرتحلةً على حمار بصحبة رهبان وآويةً إلى أديرة. في سيناء صعدت على قدميها إلى ذروة جبل سيناء لترى المكان حيث يُعتقَد أن موسى تلقى فيه الوصايا العشر وأري «الشجرة المتوقدة بالنار» المفترضة التي كلّم الله منها موسى. كان الارتحال في سيناء صعباً حتماً. لأجل جزء من مسيرها في هذه المنطقة كانت معها مواكبة عسكرية رومانية، وربما اتخذت مبيتها في حصن، ما يوحي بأن التهديد بهجمات الغزاة البدو كان حقيقياً. في جزء من وسط سيناء اختفت الطرق:

«ما من طرق البتة، فقط رمال الصحراء في كل مكان. الفارانيون، المعتادون على الارتحال هناك مع إبلهم، يضعون علامات لأنفسهم هنا وهناك. بالتوجّه إلى هذه العلامات يسيرون نهاراً. لكن في الليل تتبع الإبل العلامات». [إغيريا].

بعد زيارات لبضعة مواقع توراتية أخرى في فلسطين، غادرت إغيريا القدس لتبدأ مسيرة عودتها إلى ديارها. سافرت شمالاً على الطريق الروماني

الرئيسي إلى أنطاكية ثم توجّهت إلى ما بين النهرين لمشاهدة مقام القديس توما الرسول في الرها والمنزل المشهور للأب إبراهيم في حرّان، والمكانان كلاهما على نهر دجلة في ما هو اليوم العراق. في هذا المقطع من رحلاتها، الذي جلبها إلى الحدود بين روما وفارس الساسانية، يبدو أنها باتت، على الأقل جزءاً من المدة، في خانات رومانية.

في العودة إلى أنطاكية، غادرت إغيريا إلى القسطنطينية خلال الطريق الرئيسي، خلال الأناضول. لكن، كان أمامها مقام مهم آخر تزوره، ألا وهو مقام القديسة تقلا في شرقي الأناضول. بحسب «أعمال بولس» الأبوكريفي (غير القانوني)، كانت تقلا امرأة من النبلاء ساعدت بولس في نشاطاته التبشيرية. كان يقع مقامها بالقرب من طرسوس بلدة بولس. يبدو أن زيارة إغيريا لهذا المقام، وأخذت يومين، قد كانت إحدى العلامات البارزة في السنوات الثلاث التي أمضتها على الطريق. لقد وجدت أن الموقع يشغله «ما لا يحصى من الصوامع للرجال والنساء» ولقيت وهي هناك «صديقة عزيزة»، الشمّاسة مارتانا، التي تعرفت عليها في القدس، وكانت تتولى في الوقت المشار إليه أمر الراهبات المقيمات هناك. بعد إقامة إغيريا الوجيزة، عادت إلى طرسوس ثم توجهت غرباً على طول الطريق الرئيسي إلى القسطنطينية. وتتقطع المخطوطة بغتة بكتابتها، في القسطنطينية، لصديقاتها في الوطن عن عزمها على زيارة مقام القديس يوحنا في إفسوس القريبة. ويبقى غير معلوم هل قامت بهذه الزيارة أم عادت إلى ديارها؟.

خاتمة

كما رأينا في هذا الفصل، من زمان الفينيقيين ومروراً باليونانيين والرومان والحجاج المسيحيين الأولين، حصل اتساعٌ عظيم في الرحلات في إقليمي البحر المتوسط والبحر الأسود. من الراجح أن الاستقرار السياسي المتزايد والتجارة المتسعة كانا أهم تطوّرين رعيا التعاظم في الرحلات، وهو منحى ربما ضعُف نوعاً ما بعد انتهاء السلام الروماني سنة ٢٠٠ ميلادية. لكن، إلى حين القرن الثالث، صارت الأسفار أكثر تواتراً وغطّت، على نحو وسطي، مسافات أطول. تذكّرنا هيلينا

وخليفاتها الحاجّات بأن رحلات المسافات الطويلة لأسباب دينية (وعلى الأرجح لأسباب أخرى أيضاً) قد استمرت إلى آخر القرون الكلاسيكية، نحو سنة ٥٠٠ ميلادية، وفي الحقيقة إلى ما بعدها.

مع أهمية النزعات نحو رحلات أكثر تواتراً وطولاً، لم تكن هي التطورات المهمة الوحيدة في السفر إبَّان القرون الكلاسيكية. إن الإمبراطوريات التي أقامها الفرس والإسكندر الأكبر والرومان قد جعلت من السفر أكثر سلامة، لكن عُرضةً أيضاً لمزيد من الضوابط. لقد أوحى الفينيقيون واليونانيون الأولون بوجود صلة بين الرحلات الرائدة والتقدم الاقتصادي. وإجمالاً، اتسع نطاق الدوافع الصريحة للسفر، وهذا الأمر (ومعه النقل المتحسن والمنظومات السياسية الأكثر استقراراً) عون على تعليل اتساع نطاق السفر نفسه. أخيراً، كان ظهور الكتابة عن الرحلات بمزيد من الصراحة، مع هيرودوت بصفته المثال الأبرز لا الأوحد، ابتكاراً مهماً، مدّ آثار الرحلات، بل أعطى أيضاً الإلهام لرحالة آخرين لاحقاً.

الفصل الرابع

الصين وآسيا الوسطى وإنشاء طريق الحرير،

٢٠٠ قبل الميلاد ٥٠٠٠ ميلادية

مُقَدِّمَة

في هذا الفصل نعمل مسحاً ثانياً أكثر شمولاً من الناحية الجغرافية للسفر إبَّان العصر الكلاسيكي. الموضوع الأساسي لهذا الفصل هو كيف بدأ الرحالة من الصين وآسيا الوسطى يلقَون نظراءهم من روما والشرق الأوسط في أماكن كأفغانستان والهند في القرن الأول قبل الميلاد. مع أن هذه المقابلات لم تكن أبكر الاحتكاكات بين الصين والإقليم المتوسطي – تشير أدلة جديدة إلى احتكاكات محدودة ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد – فمن الواضح أن هذه الصلات قد ازدادت ازدياداً عظيماً إبَّان القرن الأول قبل الميلاد. بحلول هذا الوقت، كان العلماء الكونفوشيون وأعضاء مجلس الشيوخ الرومان – وبين هؤلاء وأولئك ٥٠٠٠ ميل – على صلة، ولو غير مباشرة، بوساطة شبكة الطرق وآثار الأقدام والخطوط البحرية الآخذة في الاتساع. طوال القرن الماضي، أو نحوه، عُرفت هذه المنظومة بطريق الحرير.

لعبت مجموعة متنوعة من العوامل في اتساع الرحلات الآسيوية في أثناء العصر الكلاسيكي. أخذ التجار الهنود يتمددون إلى جنوبي شرقي آسيا بالرحلات البحرية في القرون الأخيرة قبل الميلاد، وسرعان ما كان تجار

من جنوبي شرقي آسيا، من أماكن مثل ما يُعرف اليوم إندونيسيا، يشاركون في ذلك أيضاً. كذلك قام الصينيون برحلات بحرية إلى الهند؛ في مرحلة من المراحل، أرسل إمبراطور صيني بعثة للحصول على كركدن لحديقة الحيوان عنده. كذلك أبحر الرومان إلى الهند، من موانئ على البحر الأحمر، طلباً للتوابل ولا سيما الفلفل. في أوج الإمبراطورية الرومانية نُظمت بعثات سنوية واستوطنت فعلياً زمر من التجار الرومان في جنوبي الهند. سوف نلقي نظرة على الرحلات الداخلة في هذا المجال عن قرب أكبر لاحقاً في هذا الفصل.

لكن الرحلات الكبرى - وبالتأكيد أوضح سجلات الرحلات - في آسيا الكلاسيكية قد اشتملت على نشاطات برية. هنا، أخذ الصينيون موقع صدارة مهماً. على نحو أكثر وضوحاً مما في البحر المتوسط الكلاسيكي، أصبحت سياسة الدولة الرسمية ضالعة في ترويج الرحلات. لكن الدور الصيني ولّد أيضاً بعض المغامرات الفردية الكبرى في تاريخ الرحلات في العصور قبل الحديثة، ما يثير كل التساؤلات عن الدوافع والنتائج التي تصبح أجزاء جوهرية من تحليل عناصر التاريخ العالمي هذه.

لإنشاء سياقٍ لموضوعنا الأساسي، نبدأ الفصل بالتركيز على الرحلات في الصين إبَّان حكم شي هوانغدي، وهو أول أباطرة الصين (حكم ٢٢١-٢١٠ قبل الميلاد)، الذي انطلقت عن بعض سياساته شرارةُ البداية لعهد جديد من الأسفار الأكثر تواتراً وطولاً قام بها الصينيون. نستأنف الرواية بالتمحيص في حكم إمبراطورين في أثناء سلالة هان التي جاءت بعد ذلك، وهما غاوتسو (حكم ٢٠٢-١٩٥ قبل الميلاد)، مؤسس أسرة هان، ووودي (حكم ١٤٠-٨٧ قبل الميلاد)، أعظم حكام هان. كانت السياسات الأساسية لهذين الإمبراطورين حاسمة لإنشاء نوع جديد من الرحلات للصينيين، أعني الارتحال خلال الحدود الغربية إلى آسيا الوسطى، وهو نمط من السفر ربط في آخر المطاف العاصمة الصينية تشانغان بروما وأنشأ طريق الحرير.

سوف يُبرز مقطع أساسي من هذا الفصل الرحلات الاستثنائية التي قام بها المبعوث الدبلوماسي الأكبر للإمبراطور وودي، وهو تشانغ تشيان، وهو أول صيني يسافر أسفاراً واسعة بين شعوب آسيا الوسطى ويكتب عنها. إن المعلومات الاستخباراتية التي زود بها تشانغ تشيان وودي عن شعوب آسيا الوسطى قد حركت الإمبراطور لمدِّ إشعاع السلطة الصينية غرباً. سرعان ما تدفق الجنود والدبلوماسيون والتجار الصينيون غرباً كما لم يفعلوا قط. على نفس المنوال، أخذ الدبلوماسيون وأهل التجارة والمبشرون من آسيا الوسطى ينصبّون على الصين كالسيل.

كان أحد أهم جوانب الاحتكاكات المتزايدة بين الصين وآسيا الوسطى هو اتساع التجارة بين الإقليمين. كان موضع القلب في هذه التجارة الآخذة في النمو هو لتصدير القماش الحريري من الصين. بحلول أواسط القرن الأول قبل الميلاد أخذت كميات ذات شأن من النسيج المصنوع في الصين تظهر في روما، وهو تطورٌ لنا أن نعدَّه كافتتاح لطريق الحرير. سوف يُختتم الفصل بتفحّص متعاظم أهمية الحرير عند الرومان وبأخْذ عينة من الرحالة الرومان الذين توجهوا شرقاً نحو الصين.

السياسة الإمبراطورية الصينية والرحلات

نبدأ بتحوّل محوري في التاريخ الطويل لشرقي آسيا، ألا وهو إقامة الإمبراطورية الصينية سنة ٢٢١ قبل الميلاد. إلى هذا التاريخ، لم تتوحد البقعة التي هي اليوم الصين سياسياً. لقد حكم ملوك شانغ معظم إقليم النهر الأصفر، نحو ١٦٠٠–١١٠٠ قبل الميلاد، لكن سلطتهم لم تبلغ الجنوب. خَلَفَ ملوكُ تشو ملوكَ شانغ في منطقة النهر الأصفر، نحو ١١٠٠–١٢٥٠ قبل الميلاد(١)، لكن بعد سنة ٧٥٠ قبل الميلاد أخذت قوة تشو تضعف. وتفككت مملكتهم بالتدريج إلى مجموعاتٍ من الدول الأصغر حجماً والأكثر فعالية في الحكم، والمتنافسة تنافساً ضارياً.

---

(١) خطأ مطبعي صوابه أن نهاية سلالة تشو كانت سنة ٢٥٦ قبل الميلاد – المترجم.

في أثناء القرن الثالث قبل الميلاد، أخذت تشين، وهي الدولة الأبعد في جهة الغرب بين الدول التي برزت مع انحلال مملكة تشو، تحقق المكاسب على حساب منافساتها، والسبب في ذلك جزئياً هو الخبرة التي اكتسبتها تشين في المعارك المتواترة مع الرحّل الرعاة القريبين. قاد حاكم تشين، وأصبح يعرف لاحقاً باسم شي هوانغدي أو «الإمبراطور الأول»، مشاته ذوي العدد الضخم والتدريب الجيد، المسلحين بأفضل الأسلحة الحديدية الموجودة، إلى انتصارات في منطقة النهر الأصفر وفي الجنوب. نتيجة لذلك، بحلول سنة ٢٢١ قبل الميلاد كانت تشين قد فتحت وأخذت تحكم معظم المنطقة التي تؤلف ما هو اليوم الصين (كانت التبت ومنطقة شينجيانغ الغربية هما الاستثناءان الكبيران).

كان الإنجاز الذي حققه شي هوانغدي بتوحيد الصين نقطةَ انعطاف في تاريخ الرحلات في شرقي آسيا. بحسب سيما تشيان (١٤٥-٨٧ قبل الميلاد)، أول مؤرخي الصين الكبار، كان أحد مشاريع شي هوانغدي، الذي هو بمنزلة التوقيع، تشييد شبكة من خمسة «طرق سريعة» عظيمة محفوفة بالأشجار تلاقت في عاصمته شيانيانغ (بالقرب مما هو اليوم شيآن)، رابطة المدينة بأقاليم الإمبراطورية الشرقية والجنوبية والشمالية (مضت غرباً طرق أقل شأناً). شيدت هذه الطرق السريعة، وبلغ طولها الإجمالي ما يزيد على ٤٠٠٠ ميل إبَّان عهد تشين، بالجهود المجتمعة للمجندين الفلاحين وللمحكومين بالأشغال الشاقة.

سنة ١٧٨ قبل الميلاد، وصف أحد موظفي سلالة هان إنجاز شي هوانغدي:

«أمر الإمبراطور الأول ببناء طرق البريد في سائر أرجاء الإمبراطورية، شرقاً إلى الحدود القصوى لتشي ويين، وجنوباً إلى أقصى أطراف وو وقو، وحول البحيرات والأنهار، وعلى طول سواحل البحار؛ بحيث يمكن الوصول إليها جميعاً. كانت هذه الطرق السريعة بعرض خمسين «قدماً»، وزُرعت كل ثلاثين «قدماً» من طولها شجرة. عُمل الطريق ثخيناً وراسخاً جداً على الحافة، ورُصّ

بمرصّات معدنية. غرْسُ شجرة الصنوبر الخضراء هو الذي وهب للطرق جمالاً».

استبقى أباطرة هان ووسعوا نطاق منظومة الطرق التي بُدئ بها في أثناء عصر تشين، بحيث إنه في آخر القرن الثاني الميلادي كان للصين شبكة من نحو ٢٢٠٠٠ ميل من الطرق السريعة المرصوفة (بالمقارنة مع ٤٨٠٠٠ ميل لروما في الوقت نفسه). يبدو أن عرض الطرق الصينية، التي اشتملت أحياناً على مجاز مركزي خاص محجوز للإمبراطور، قد تفاوت. أخبر موظف هان الذي اقتُبس كلامه أعلاه عن عرض خمسين قدماً (بالمقارنة مع المتوسط الروماني البالغ نحو خمس عشرة قدماً إلى ثماني عشرة). لكن من المحتمل أن هذا القياس ينطبق على الطرق فقط عند اقترابها من العاصمة. من الراجح أن الطرق في الأقاليم على الأطراف كانت أضيق. مع أن الطرق التي وصفت من قبل موظف هان لم تكن بمتانة تلك التي شيدها الرومان، فإن أجزاء من شبكة تشين- هان باقية إلى الوقت الحاضر، ويمكن رؤيتها في شمالي الصين.

كان أحد الأسباب الأساسية لإنشاء منظومة الطرق السريعة الإمبراطورية هو حاجة الإمبراطور الأول وخلفائه من هان إلى إرسال جنودهم إلى شتى الأقاليم على الأطراف، مثلما كان الأمر نوعاً ما مع المنظومة الفارسية الأبكر منها. كان الاعتبار الثاني، ولمّح إليه موظف هان أعلاه، هو الحاجة إلى إبلاغ الأوامر العالية إلى المقاطعات وإلى الحصول على معلومات عن الأحوال في النواحي البعيدة عن العاصمة. بحلول أواخر القرن الثاني الميلادي، حكم الأباطرة الصينيون عدداً من السكان يبلغ نحو ٥٠ مليوناً منتشرين فوق ١٥٠٠٠٠٠ ميل مربع من الأرض. وفاقاً لذلك، مثل الفرس قبلهم، ومثل معاصريهم الرومان، أنشأ أباطرة تشين- هان شبكة سعاة بريد محكمة لتسهيل الاتصالات التي تشمل الإمبراطورية. كانت الطرق السريعة الجيدة حاسمة لقيام هذا الجهاز بوظيفته.

بحلول أواسط عصر هان، أصبحت شبكة الاتصالات هذه، التي تميزت بطاقم من ركاب الخيل والعدّائين المتتابعين، معقدة جداً. كما رأينا في الفصل الثالث، كان في الجهاز الروماني صنفان من المحطات، واحد للحصول على مطايا جديدة وواحد للمبيت ليلاً. كان للشبكة الصينية ثلاثة أنواع من المكاتب، وكانت متباعدة بفواصل أقصر مما كان الأمر مع نظائرها الرومانية. كان لمكاتب البريد، حيث تُحفظ سجلات بالرسائل المحمولة، مواقع عند كل بضعة أميال على طول الطرق السريعة الصينية. كانت الرسائل تُكتب على عصائب من الخشب الرقيق وتُحمل في أنابيب من الخيزران تميزت بصنف من قفل نابضي. أقيمت مكاتب إقليمية، تكون قاعدة للجنود الذين يخفرون الطرق، بفواصل كل منها ستة أميال أو نحوها. كان يمكن العثور على المحطات البريدية، حيث يمكن لسعاة البريد العثور على مطايا جديدة ومبيت ليلي، كل عشرة أميال. اشتملت المحطات البريدية أيضاً على زنازين للسجناء المنقولين مخفورين وفي بعض الحالات، على خانات خاصة للمسافرين غير المخولين باستعمال المنشآت الحكومية.

كان المدى الجغرافي للشبكة الصينية واسعاً جداً. بحلول سنة ٧٧ قبل الميلاد كانت الرسائل تُحمل غرباً حتى لولان في ما هو اليوم شينجيانغ، وجنوباً حتى حدود ما هو اليوم ميانمار (بورما). قريباً من أواخر القرن الأول الميلادي، كانت الفواكه المدارية، من مثل ليتشي من المنطقة التي حول ما هو اليوم غوانغتشو في جنوبي الصين، تُرسل مع سعاة البريد إلى مجمع القصور الإمبراطوري في تشانغان (اليوم شيآن)، على مسافة ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ ميل.

نفتقر إلى معلومات عن سرعة سعاة البريد إبَّان عصر تشين- هان لكن السجلات المتأخرة، من سلالة تانغ (٦١٨-٩٠٧ ميلادية)، توحي بالأمر. في أثناء عهد تانغ، كان يمكن لأسرع الخيول التي تسير على الطرق الإمبراطورية أن تغطي ١٩٠ ميلاً في أربع وعشرين ساعة، وهي سرعة من الراجح أنها كانت قليلة الاختلاف عما كانت في قرون تشين- هان. بالمثل، في أثناء قرون تانغ

كان سعاة البريد الذين يسيرون الـ ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ ميل من العاصمة تشانغان إلى غوانغتشو في جنوبي الصين («مسلك ليتشي» معكوساً) يصلون، نموذجياً، إلى مقصدهم في مابين تسعة أيام إلى أربعة عشر يوماً، وهي سرعة من الراجح أنها تنطبق على عصر تشين- هان أيضاً.

كانت الوظيفة الثالثة لمنظومة الطرق السريعة هي أن تزيد من سهولة قيام الأباطرة بجولة على مُلكهم وتفتيشه. كما رأينا فيما يتعلق بروما، كان «حق المرور الإمبراطوري» طريقة مهمة لإظهار سلطة الإمبراطور في الأقاليم البعيدة عن العاصمة. كان المراد من الجولات أيضاً جمع المعلومات. إبَّان حكم شي هوانغدي كإمبراطور، قام بخمس بعثات كهذه إلى مواقع أساسية في شمالي الصين، رافقه في كل واحدة من هذه الرحلات حاشية ضخمة من الموظفين الذين نُقلوا في قطار طويل من العربات والمركبات. سارت كتائب الجنود على الأقدام. في كل وقفة على الطريق، كان الموظفون المحليون يُكلّفون بتقديم الضيافة.

كذلك اشتملت بضع رحلات شي هوانغدي كإمبراطور على حج إلى جبال كانت تعدُّ مقدسة عند الصينيين. قبل عهد الإمبراطور الأول بزمان طويل، كان قد حصل الاعتقاد في خمسة جبال في شمالي الصين أنها مجالي لله[(١)]. كان الجبل الأكثر تعظيماً بينها هو جبل تاي في مقاطعة شاندونغ. السبب في عَدِّ الجبال على هذا النحو غير واضح. تذهب إحدى الفرضيات إلى أن الصينيين، بصفتهم سكاناً لبلاد منخفضة، قد حصل لديهم الاعتقاد في الجبال بصفتها حاميتهم الطبيعية.

في أولى رحلات شي هوانغدي الإمبراطورية، وحدثت سنة ٢٢٠ قبل الميلاد، جال في الأراضي الغربية من الإمبراطورية، ربما بسبب أن هذه الناحية كانت أكثر النواحي عرضة لهجمات الرحّل الرعاة. بعد ذلك بسنة، مضى في جولة

---

(١) أي أمكنة لتجلي الله، هذا بحسب لفظة numinous التي جاء معناها في معجم أوكسفورد أنها صفةٌ لشيء ذي خاصية دينية وروحية تُشعر المرء بوجود الله – المترجم.

واسعة إلى المقاطعات في الشرق. في أثناء هذه البعثة، صعد خمسة جبال، ومنها جبل تاي. لما كان شي هوانغدي على جبل تاي، أدى الشعائر المقدسة الموجهة إلى السماء والأرض التي تُعرف بقرابين «فينغ» و«شان». قبل مغادرة الجبل، أمر بنصب لوح حجري نُقِش عليه الثناء على إنجازاته.

في السنوات الباقية من حكم الإمبراطور الأول، خرج في ثلاث جولات أخرى اشتملت على زيارات لجبال مقدسة. في ثالثة هذه الجولات، سنة ٢١٠ قبل الميلاد، مات. لكن كانت أمامه رحلة أخرى. لما كان مستشارو شي هوانغدي يخشون اندلاع انتفاضة على السلطة الإمبراطورية، فقد قرروا كتمان موته إلى حين عودتهم إلى العاصمة وتنصيب ابنه خليفة. ها هو ذا وصفُ سيما تشيان لما حصل بعد ذلك:

«وُضِع التابوت في مركبة يمكن فتحها للتبريد أو غلقها للتدفئة، وقد ركب أقدم خصيان الحاكم وأكثرهم موثوقية كخدم. في كل موقف، كان الطعام يوصل إلى المركبة. استمر شتى الموظفين، كما كان الأمر قبل ذلك، في رفع الأمور طلباً لموافقة الإمبراطور، وفي تلك الأوقات كان الخصيان يوافقون عليها فوراً ويسلمونها من المركبة المغلقة. فقط ابن الإمبراطور هوهاي وتشاو غاو وخمسة أو ستة من الخصيان الموثوقين كانوا يعرفون أن الإمبراطور قد مات....».

مضت الجماعة من جينغشينغ إلى جيويوان، لكن لما كان الجو حاراً، فقد أخذت جثة الإمبراطور في المركبة المغلقة تُنتن. صدر أمر إمبراطوري للموظفين المرافقين بأن يحمل كل واحد منهم في مركبته وزن بيكول من السمك المقدد من أجل التمويه على الرائحة. بهذه الطريقة مضوا في «الطريق المستقيم» إلى شيانيانغ، حيث أعلن الحداد. واعتلى العرشَ هوهاي، الوريثُ صاحبُ الحق الشرعي فيه وهو يُعرف بالإمبراطور الثاني [حكم ٢١٠-٢٠٦ قبل الميلاد]».

مع أن هوهاي قد خلف أباه كإمبراطور، إلاَّ أنَّه سرعان ما تحققت مخاوف أهل بلاط تشين. خلال سنوات قلائل، اندلعت انتفاضة مسلحة نتج عنها إسقاط

الإمبراطور الثاني وتأسيس سلالة هان (٢٠٢ قبل الميلاد–٢٢٠ ميلادية). ما يثير الاهتمام على نحو كافٍ أن ليو بانغ، قائد القوات المناوئة لتشين وأول أباطرة هان، وصار يُعرف لاحقاً بالإمبراطور غاوتسو، قد كان في أول أمره موظفاً موكلاً بالشرطة في قطاع من منظومة الطرق السريعة الإمبراطورية.

* * *

لكن، لما صار غاوتسو في السلطة فإنه لم يكن لديه – على ما يبدو – إلا القليل من الوقت يكرسه للطرق التي تولى شرطتها ذات يوم. عدا توطيد سلطته داخلياً، كان التحدي المباشر له هو في السياسة الخارجية، أعني التهديد العسكري المتنامي الذي شكّله شيونغنو، الرعاة الرحّل الذين كانت قاعدتهم يومئذ في منغوليا. تحت قيادة شانيو (الملك) مودون (حكم ٢٠٩–١٧٤ قبل الميلاد)، وحّد شيونغنو الكثير من الرحّل في الأراضي المعشوشبة شمالي الصين في جيش ضخم ومرعب من رماة النبال راكبي الخيول الماهرين. رداً على هذا التطور المشؤوم، قاد غاوتسو جيشاً من الجنود الفلاحين إلى الإقليم الحدودي الشمالي. تلا ذلك معركة ضارية ربحها الرحّل. مع فعلهم هذا، كادوا أيضاً يأخذون الإمبراطور أسيراً. بعد هذه الهزيمة المنكرة، تفاوض غاوتسو على عقد تسوية سلمية تاريخية مع شيونغنو شكّلت صورة العلاقات بين الصينيين والرحّل قروناً كثيرة بعد ذلك، وكانت لها أيضاً مضامين كبرى بشأن أسفار الصينيين إلى آسيا الوسطى.

في ضوء هزيمة غاوتسو على يد شيونغنو، من الراجح أنه كان من المحتوم عليه تقديم تنازلات مهمة لنيل السلم مع الرحّل. اشترط أحد بنود الاتفاقية الناتجة، وسمّيت من قبل الصينيين باسم اتفاقات «السلم والصداقة»، ألا ينتهك الفريقان حدودهما المشتركة. من الراجح أن هذه العبارة كانت هي الهدف الرئيسي للصينيين في المفاوضات. لكن البنود الثلاثة الباقية حققت المقاصد الأساسية للرحّل: ١– على الفريقين معاملة أحدهما الآخر بصفته مكافئاً؛ ٢– يرسل الصينيون «هدايا» سنوية من الحرير والخمر والرز وغير

ذلك من البضائع إلى الرحّل؛ ٣- يرسل الصينيون «أميرة» (من سيدات البلاط) إلى الرحّل لتكون إحدى زوجات الـ «شانيو».

أسست اتفاقات السلم والصداقة إطاراً أساسياً للعلاقات بين الصينيين والرحّل دامت، رغماً عن بعض الانتكاسات، نحو ١٥٠ سنة. كذلك كانت الاتفاقات علامةً على بدء الأسفار الصينية إلى آسيا الوسطى. إلى حين عقد هذه الاتفاقية، كانت الأدلة على رحلات قام بها الصينيون إلى مقاصد في مروج آسيا الوسطى شمالاً وغرباً قليلة جداً. أحد أصناف الأدلة الموحية برحلات كهذه في العصور الباكرة هو حضور أشياء شعائرية من اليَشَب في قبور شانغ وتشو. الفلز الذي نُحتت منه هذه الأشياء لم يكن من الصين؛ لقد جاء من نهر في إقليم صحراء تكلاماكان الواقع بعيداً إلى الغرب من حدود شانغ وتشو.

كيف نُقل فلز اليَشَب من إقليم تكلاماكان إلى إقليم النهر الأصفر، على مسافة لا تقل عن ١٢٠٠ ميل، لا يمكن أن يُعرف معرفة مؤكدة. من غير المحتمل أن أهل التجارة من الصين أو إقليم تكلاماكان حملوا الفلز المسافة كلها. هاهنا سيناريو آخر أكثر رجحاناً وفيه نُقل اليشب من خلال صنف من الجهاز التتابعي أو التبادل «في خط نازل» الذي وصفه هيرودوت في الفصل الثاني. كما رأينا، في شبكات كهذه كانت الأشياء، وهي غالباً نادرة، تُحمل مسافات طويلة بأن تُمرر من جماعة إلى جماعة بدلاً من أن تُحمل بأيدي مسافري المسافات الطويلة.

يزودنا تطبيق اتفاقات السلم والصداقة بين أباطرة هان والشيونغنو بدليل أكثر وضوحاً على الرحلات الواسعة للصينيين. لقد اقتضى إنفاذ بنود الاتفاقية مع الرحّل أن يرسل الأباطرة الحرير وبضائع أخرى، من الراجح أنها كانت تُنقل في قوافل صينية، على الأقل إلى حدود الإمبراطورية، حيث يمكن إنزالها وتسليمها إلى الرحّل. ليس معلوماً هل عبر بعضُ أصحاب هذه القوافل الحدودَ ومضوا قُدُماً داخل الأراضي المعشوشبة ليقوموا بالتسليم، لكن لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال.

بيد أنه لا يمكن الشك في ما يتعلق بسفر الأميرات الصينيات اللاتي كن يرسلن إلى كل «شانيو» جديد كجزء من اتفاقية المعاهدة. يمكن اعتبار سيدات البلاط هؤلاء وحاشيتهن أول الرحالة الصينيين إلى آسيا الوسطى ممَّن نملك عنهم أي دليل وثائقي حقيقي. مع أن المعلومات الباقية عنهن محدودة جداً، فإننا نعلم أن مسيرهن في اتجاه واحد إلى الأراضي المعشوشبة لآسيا الوسطى قد ثبت أنه لا يقاوم عند الشعراء الصينيين. يزودنا المؤرخ بان غو(٣٢- ٩٢ ميلادية) بقصيدة عن إحداهن، إحدى سيدات البلاط من أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، اسمها شيتشون، والتي أرسلت إلى قبيلة ووسون بالقرب من بحيرة بالكاش في ما هو اليوم قازاخستان:

«زوّجني أهلي

في هذا الركن القصي من العالم

أرسلوني إلى أرض غريبة،

إلى ملك ووسون.

اليورتة [خيمة] حُجرتي،

اللباد حيطاني،

اللحم طعامي الوحيد،

كوميس [حليب الفرس المخمّر] لشرابي

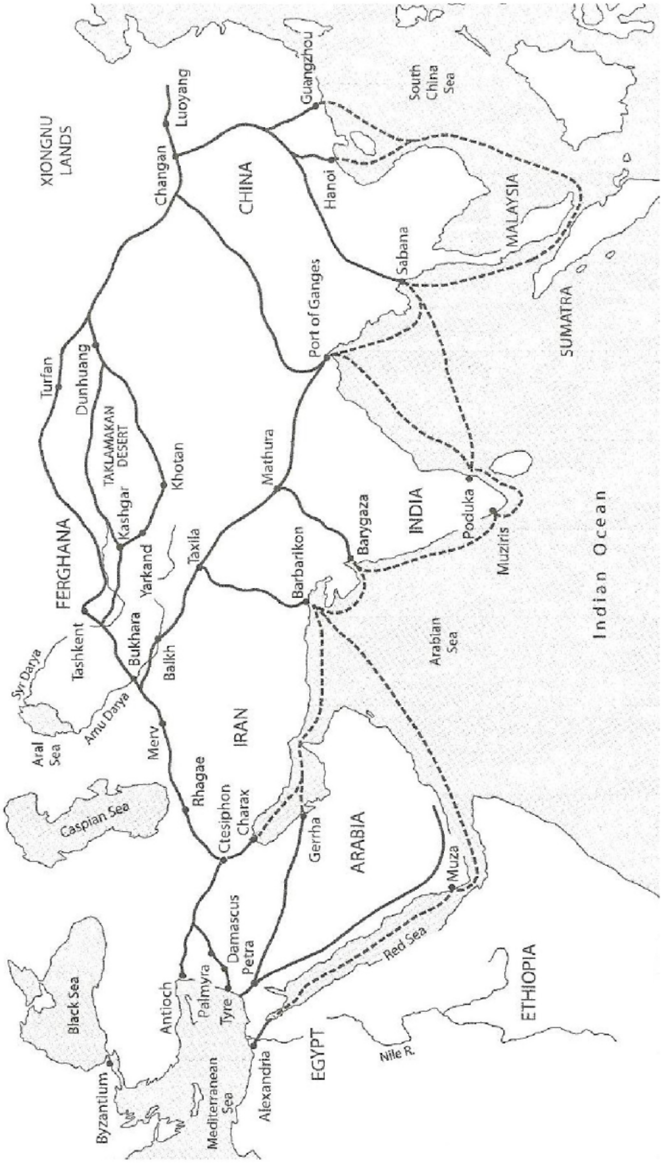
تفكيري كله في الوطن،

قلبي يتألم داخلي،

لو كنت الكركي الأصفر

يطير بجناحيه إلى الوطن من جديد!».

القصيدة، التي تنقل نقلاً حياً ازدراء الصينيين للرحّل، هي كل المعلومات التي لنا عن حياة الأميرة شيتشون. ربما عاشت هذه الصينية، وهي من رواد السفر العابر للثقافات، بقيةَ سنواتها في بلاط ووسون.



«طريق الحرير» (المترجم).

الإمبراطور وودي وتشانغ تشيان

الإمبراطور الذي أرسل الأميرة شيتشون إلى الرحّل هو وودي (حكم ١٤٠–٨٧ قبل الميلاد). من أوجه كثيرة، كان حكمه الطويل هو المرحلة

الحاسمة من عهد هان. لقد صدق هذا الأمر بالتأكيد على سياساته نحو الرحّل وترويجه للرحلات الصينية إلى آسيا الوسطى. في أوائل حكم وودي، ولثقة الإمبراطور بفعالية الجيش الصيني وعدم رضاه عن الخروق الدورية لاتفاقات السلم والصداقة من طرف شيونغنو، فقد أطلق سياسة جديدة وعدوانية نحو الرحّل. كان موقفه «نحو الأمام» الجديد ذا شأن لأنه شعّ القوة العسكرية الصينية عميقاً داخل آسيا الوسطى وأدى إلى فتح طريق الحرير. لنلتفت الآن إلى تفحّص سياسات وودي وأهميتها للرحلات الصينية إلى آسيا الوسطى، معتمدين مرة أخرى على سيما تشيان.

بحسب سيما تشيان، آمن وودي بفكرة حصْرِ شيونغنو عن طريق تشكيل حلف مع القبائل الرحّل الأخرى التي يمكن أن تتطلع للكسب من تدبير كهذا. لتطبيق هذه الاستراتيجية، قرر الإمبراطور العمل بجرأة، فأعلن عن خطة لإرسال بعثة دبلوماسية بعيداً إلى داخل آسيا الوسطى لتشكيل حلفاً مناوئاً لشيونغنو مع يويتشي الرحّل، وقاعدتهم يومئذ في الأراضي المعشوشبة لما هو اليوم أوزبكستان، الإقليم المعروف عند الفرس واليونان بصُغديا. كما رأينا في الفصل الثالث، كان الإسكندر قد شنَّ قبل ذلك بقرنين حملات واسعة هنا، مخلفاً وراءه حاميات ومدناً جديدة. إلى هناك، إلى نحو ٢٥٠٠ ميل غربي تشانغان العاصمة الصينية، لم يسافر قط صيني معروف. في الحقيقة، في هذا الوقت كانت معرفة الصينيين بالنواحي غربي حدودهم هي فقط معرفة مبهمة، مغلفة غالباً بالمرويات والأساطير.

اختار وودي يويتشي كحلفاء محتملين لأنه علمَ من استجواب أسرى شوينغنو أن شيونغنو ويويتشي خصوم. بحسب مخبريه، كان شيونغنو قد أسروا مؤخراً ملك يويتشي وجعلوا من جمجمته كأساً للشراب. بعد هذه الانعطافة المهينة في الأحداث، فرّ يويتشي غرباً إلى الناحية الأوزبكية.

أملاً من وودي في تحويل العداوة بين زمرتي الرحّل لمصلحته، فقد أطلق نداء إلى من يتطوع لقيادة بعثة إلى يويتشي. كان ممن استجاب لنداء الإمبراطور موظف اسمه تشانغ تشيان. اختير تشانغ تشيان، وكان معروفاً جيداً

لـ «عظيم قوته وتصميمه وكَرَمه»، لرئاسة الوفد. سوف يكون لاثنتين من هذه الفضائل، كما نوشك أن نرى، منفعة عظيمة له في السنوات الآتية.

انطلق تشانغ تشيان في مسيره يرافقه أكثر من مئة رجل. اشتمل صَحْبه على مملوك من شيونغنو اسمه غانفو مذكور بضع مرات في رواية سيما تشيان للبعثة. بحسب سيما تشيان، كان غانفو رامي نبال ماهراً فكانت مقدرته كصياد مفيدة عند تناقص مدد الطعام. من الراجح أن مملوك شيونغنو قد كان نافعاً أيضاً كدليل ومترجم كلما مضى الوفد قُدُماً داخل آسيا الوسطى.

لا يزودنا سيما تشيان بمعلومات عن تفاصيل كيفية سفر تشانغ تشيان وصحبه إلى آسيا الوسطى. من الراجح أن الطريق الماضي غرباً من تشانغان إبَّان حكم وودي لم يكن أكثر من آثار أقدام. (كما رأينا آنفاً، ركز الإمبراطور الأول على تشييد الطرق الماضية في جهات أخرى.) تصوّر لوحة مشهورة من سلالة تانغ (٦١٨-٩٠٧ ميلادية) تشانغ تشيان مغادراً العاصمة مع خيول محملة بالأمتعة. ربما سافر والآخرين أكثر الطريق على ظهور الخيل، برفقة شتى أنواع حيوانات الحمل التي تحمل المؤن والمعدات. كان للإبل البكتيرية (من النوع ذي السنامين)، وكانت مستعملة في شمالي الصين في ذلك الوقت، أن تكون قيمة على نحو خاص لمقدرتها على الارتحال مسافات طويلة من غير ماء ولقوّتها. يستطيع الجمل البالغ أن يحمل مئات الباوندات في سلتين متوازنتين (أكثر من استطاعة الفرس أو الحمار)، وهو حِمل يمكن أن يشتمل على الماء. كائناً ما يكون الاختيار للحيوانات، يمكننا التأكيد أن الوفد قد مضى غرباً بسرعة تقارب ثلاثة أميال في الساعة وقطع، في أحسن الأحوال، خمسة وعشرين ميلاً في اليوم. بخصوص المبيت ليلاً، من الراجح أن الجماعة قد عوّلوا على كرم ضيافة الموظفين المحليين إلى حين وصولهم الحدود الصينية. غربي الحدود، من الراجح أنهم اعتمدوا على أنفسهم، ولعل حيوانات الحمل التي رافقتهم قد حملت خياماً.

كذلك لا ينبئنا سيما تشيان بشيء عن المسلك الذي اتبعه تشانغ تشيان وصحبه في اتجاههم غرباً، لكن يمكن أن نكون واثقين بقدر معقول من أنهم أخذوا المسلك نفسه الذي يستعمله صينيو زماننا الحاضر عند سفرهم غرباً من شيآن بالقطار أو الحافلة أو، على نحو متزايد، بالسيارة. لنا أن نتخيل أن تشانغ تشيان وزمرته قد اتبعوا الطريق السريع الصيني الرئيسي الماضي غرباً، وعبروا بالمعدية النهر الأصفر عند انعطافه شمالاً عند ما هو اليوم لانتشو. كان لهم أن يمضوا قُدُماً شمالاً فغرباً خلال رواق قانسو إلى حدود صحراء تكلاماكان المخيفة (ومعنى اسمها هو: «داخلُها لا يعود») والجبهة الغربية لإمبراطورية هان.

لا يمكننا التأكيد بنفس القدر في ما يتعلق بمسلكهم غرباً من الحدود الصينية خلال آسيا الوسطى، فلعلهم اتبعوا أحد المسالك التي تطوف حول تكلاماكان إلى الشمال أو الجنوب، متوقفين عند واحات على طول الطريق. كبديل من ذلك، ربما قرروا اتباع مسلك أشد مَيلاً نحو الشمال، مسلك يأخذهم خلال الأرض المعشوشبة الريانة لوادي نهر إيلي. لكن كان يرتبط بالمسلك الشمالي عيبٌ كبير: الاحتمالُ الكبير جداً أن يسقطوا ضحية الرحّل المفترسين. في الحقيقة، هذا بالضبط ما حصل للمسافرين الصينيين.

ينبئنا سيما تشيان أنه بينما كان تشانغ تشيان وصحبه يتجهون غرباً هوجموا من شيونغنو وظلوا بعد ذلك أسرى عشر سنين. في أثناء هذه المرحلة، أعطى الشيونغنو تشانغ تشيان زوجة، أنجب منها ولداً. ثم إنه، بعد أكثر من عقد بين الرحّل، هرب من الأسر وزوجته وابنه ومملوكه غانفو، وربما أعضاء آخرون من صحبه المسافرين الأصليين. بدلاً من العودة إلى الوطن ومواجهة ودي صفر اليدين، استأنف تشانغ تشيان وصحبه، على نحو مدهش، مسيرهم غرباً.

بعد الارتحال غرباً عشرين أو ثلاثين يوماً، وصلوا إلى «مملكة دايوان» الصغيرة في آسيا الوسطى الواقعة في وادي فرغانة الخصب على بُعد ألفي ميل

من العاصمة الصينية، وهي اليوم منطقة تتقاسمها قيرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان. هنا، بحسب سيما تشيان، لقيت المجموعة الترحيب من الملك الذي عبّر عن الاهتمام بإقامة علاقات دبلوماسية مع الصين. بحسب سيما تشيان، وعد تشانغ تشيان الملكَ بـ «هدايا لا تحصى» يقدمها الصينيون إذا زودهم بأدلّاء إلى أرض يويتشي. استجاب الملك فقدم أدلّاء ومترجمين فمضت المجموعة قُدُماً.

بعد أكثر من عقد على ابتداء المسير، وصل تشانغ تشيان إلى ديار اليويتشي في الأراضي المعشوشبة (الأوزبكية) الصغدية. ينبئنا سيما تشيان أن تشانغ تشيان التقى حاكم اليويتشي لتقديم اقتراح التحالف في وجه الشيونغنو، لكن الزعيم اليويتشي لم يبدِ اهتماماً بخطة كهذه لأن أراضيه كانت «غنية وخصبة ولا يزعجها الغزاة إلا نادراً». فلماذا الدخول في قتال مع قوة شديدة (وبعيدة) كالشيونغنو؟ لكن الدبلوماسي الصيني لم يكن على استعداد للاستسلام. ينبئنا سيما تشيان أن اليويتشي كانوا قد بسطوا سلطانهم حديثاً على أرض داشيا جنوبي نهر جيحون (أوكسوس) في ما هو اليوم أفغانستان وشمالي باكستان. كما رأينا، كان القطاع الشمالي من هذا الإقليم يعرف عند الفرس واليونانيين باسم بكتيريا؛ كانوا يدعون القطاع الجنوبي باسم غاندارا. عبر تشانغ تشيان وصحبه نهر جيحون بالمعدية وأمضوا نحو سنة في شمالي أفغانستان. لعله كان يرجو أنه لو بقي في جوار اليويتشي مدة من الزمان، لربما غيّر الملك رأيه وقبِلَ بالتحالف مع الصينيين. أو لعله إذ أدرك أن مسيره غرباً قد أوشك على خاتمته، فإنه قد عبرَ جيحون بدافع الفضول.

تنقلات تشانغ تشيان في أثناء السنة التي أمضاها جنوبي جيحون غير معلومة، لكن هاهنا أمر واحد نعلمه علماً مؤكداً تأكيداً معقولاً، وهو مثير للاهتمام جداً: لقد زار بَلْخاً، المدينةَ الواحة العظيمة وتقاطعَ الطرق التجارية التي كانت ذات يوم مقراً للإسكندر في الإقليم. في أسواق بلخ، شاهد تشانغ تشيان قصب الخيزران والقماش من جنوبي غربي الصين. لما استفسر كيف جاءت

البضائع الصينية إلى الناحية، قيل له: «تجارنا يذهبون لشرائها من شين- تو [الهند]». هاهنا أبكر دليل موثق على مسلك للتجارة يؤدي من جنوبي غربي الصين إلى الهند ومن ثم إلى آسيا الوسطى.

لما انقضت سنة، وظل ملك يويتشي لا يبدي أي اهتمام بالعرض الصيني، قرر تشانغ تشيان العودة إلى العاصمة الصينية. ينبئنا سيما تشيان أنه اختار لمسير العودة إلى الديار مسلكاً جنوبياً - لا ريب أنه أراد اجتناب الوقوع في أسر الشيونغنو مرة أخرى. مع كل هذه الاحتياطات، لما كان تشانغ تشيان وصحبه متوجهين شرقاً نحو تشانغان وقعوا مرة ثانية في أسر الشيونغنو. لكن مدة الأسر الثانية هذه لم تستغرق إلا نحو سنة. في غمرة النزاع الداخلي بين الشيونغنو، فرّ تشانغ تشيان وزوجته وغانفو، وهذا لم يعدْ عبداً، من آسريهم واستأنفوا مسيرهم عائدين إلى العاصمة الصينية.

سنة ١٢٦ قبل الميلاد، بعد ثلاث عشرة سنة من الانطلاق إلى آسيا الوسطى، عاد تشانغ تشيان إلى عاصمة هان، وقد ارتحل أكثر من ٦٠٠٠ ميل. من بين الوفد الأصلي الذي بلغ عدد أعضائه أكثر من مئة، لم يكتب البقاء بعد الرحلة إلا لتشانغ تشيان وغانفو. اعترافاً بجهودهما الاستثنائية، منحهما وودي تشريفات. رُقّي تشانغ تشيان إلى منصب مستشار القصر، وكوفئ غانفو بلقب: «السيد الذي أتمّ مهمته».

تقرير تشانغ تشيان

مع أن تشانغ تشيان لم يستطع عقد تحالف مع اليويتشي، فقد ثبت أن رحلته كانت قيّمة على نحو عظيم عند وودي. لقد رجع تشانغ تشيان إلى العاصمة بأول رواية مباشرة أتى بها صيني عن أراضي آسيا الوسطى وشعوبها. من بعض النواحي، كان التقرير الذي رفعه تشانغ تشيان إلى وودي وفصّل فيه ملاحظاته عن آسيا الوسطى مشابهاً للرسائل التي وجهها كريستوفر كولومبوس إلى حكام إسبانيا عن الأحوال في البحر الكاريبي نحو سنة ١٥٠٠. من حيث الأثر، كان أهم إنجازات تشانغ تشيان هو «اكتشاف» آسيا الوسطى للصينيين.

فلنتحول الآن إلى هذه الوثيقة كما لخصها سيما تشيان (ذلك أن النسخة الكاملة قد اختفت منذ زمان بعيد).

يبدو تقرير تشانغ تشيان لقارئه كمذكرة استخباراتية مصاغة بعناية كُتبت لإعلام الإمبراطور بالظروف العسكرية والسياسية والاقتصادية في الأقاليم التي زارها أو عَلِم عنها من الآخرين. كما رأينا في الفصل الثالث، يبدو أن هيرودوت قد كتب عن رحلاته، جزئياً، للتسلية. ما من تلميح إلى هدف كهذا في تقرير تشانغ تشيان. يتجه المبعوث الصيني إلى موضوعه مباشرة. هاهوذا، على سبيل المثال، جزء من مقطعه المشهور عن وادي فرغانة:

«تقع دايوان جنوبي غربي أراضي شيونغنو، على نحو ١٠٠٠٠ لي [نحو ٣٠٠٠ ميل، وهذه مبالغة] غربي الصين. الناس متوطنون في الأرض، يفلحون الحقول ويزرعون الرز والقمح. يعملون أيضاً الخمر من العنب. في المنطقة خيول كثيرة رائعة تتعرق دماً [ربما بسبب لسع الحشرات]؛ يقال إن أسلافها قد نسلت من خيول سماوية. يسكن الناس منازل في مدن محصنة، في الإقليم سبعون مدينة أو تزيد من شتى الأحجام. يبلغ عدد السكان بضعاً من مئات الآلاف. يقاتل الناس بالأقواس والحراب ولا يستطيعون الرمي من على ظهور الخيل».

من وجهة نظر وودي، من الراجح أن الفقرات التي كتبها تشانغ تشيان عن فرغانة كانت أبرز ما في التقرير. لتطبيق سياسته الجديدة إلى الأمام في مواجهة الشيونغنو، احتاج الصيني إلى خيول أشد قوة لوحدات فرسانه. لقد ربَّى وودي خيولاً في أراضٍ مسيجة كبيرة مخصصة للاستنسال لكنها لم تكن شديدة التحمل مثل تلك التي يركبها الرحّل. كما سنرى، كان الوصول إلى الجياد «المتعرقة دماً» و«السماوية» من المراعي الغنية في منطقة فرغانة عوناً على سد هذه الثغرة في ترسانة الإمبراطور العسكرية.

بقية المقاطع من تقرير تشانغ تشيان مماثلة لنظيرتها في فرغانة بتركيزها على الأمور التي يمكن أن تشغل جدّياً بال حاكم ذي جدول أعمال لسياسة خارجية طموح. يوضع الحلفاء المحتملون من بين الرحّل، مثل اليويتشي في

السهب الأوزبكي والووسون في منطقة بحيرة بالكاش، موضع النقاش بصورة أساسية من جهة قواهم العسكرية.

مع أن تشانغ تشيان لم يخاطر بالسير حتى الهند أو فارس أو ما بين النهرين، فإن هذه الأراضي تظهر في تقريره من المعلومات التي زوده بها مخبرون (غير معرّفين) في آسيا الوسطى. ملاحظاته الوجيزة على هذه النواحي – وهو أبكر ظهور لها في كتابة صينية – محدودة جداً بقدر لا يجعل لها قيمة كبيرة، لكنها تحتوي من المعلومات ما يكفي للإشارة إلى الوجود الراجح لشبكات سفر تربط آسيا الوسطى بهذه الأقاليم. نتيجة لرحلة تشانغ تشيان وتقريره اللاحق للإمبراطور وودي، سرعان ما ازدادت حركة النقل على هذه الشبكات، وقد امتدت في المرحلة المشار إليها إلى الصين.

من «السلم والصداقة» إلى نظام الجزية

كانت بعثة تشانغ تشيان أحد جوانب المقاربة العدوانية الجديدة التي اتبعها الإمبراطور وودي مع الشيونغنو. استعمل وودي المعلومات في تقرير تشانغ تشيان للبدء بسلسلة حملات هجومية عسكرية على الشيونغنو. كان هدف الإمبراطور دفع الشيونغنو بعيداً عن الحدود الغربية للصين وتأمين المسالك التي تمضي غرباً من تشانغان إلى فرغانة، موطن «الخيول السماوية». بحلول سنة ١٠٠ قبل الميلاد، بعد الكثير من القتال الشديد، حقق وودي هذه الهدف إلى حد بعيد. صارت الواحات الواقعة على حدود صحراء تكلاماكان في المرحلة المشار إليها تحت السيطرة الصينية لأول مرة. أضف إلى ذلك أن الصينيين قد كسبوا سيطرة «بحكم الواقع» على فرغانة، التي أصبحت في المرحلة المشار إليها دولة زبوناً صينية.

كان لاتساع قوة هان العسكرية مضامين بالنسبة إلى السفر عند الصينيين. ينبئنا سيما تشيان أنه مع تكشّف التعاظم الصيني في إقليم تكلاماكان، أرسل وودي مبعوثين وسفراء عديدين إلى المزيد من المناطق البعيدة غرباً لزيارة الحلفاء المحتملين والشركاء التجاريين في الهند وفارس وما بين

النهرين. مع أننا لا نُعطى معلومات محددة عن بعثات الأسفار هذه، فإن رواية سيما تشيان معقولة. بحسبه، كانت تغادر العاصمة سنوياً من ستة وفود إلى عشرة. اشتملت كل فرقة غالباً على بضع مئات من الأعضاء، وكثيراً ما أمضت سنوات عديدة على الطريق. استجابة لذلك، أرسل كثير من البلدان التي زارتها الوفود الصينية بعثات خاصة بها إلى بلاط وودي.

أتت الاحتكاكاتُ والتبادلاتُ المتزايدة مع شعوب آسيا الوسطى بتغييرات مهمة إلى الصين. رجعت البعثات التجارية إلى فرغانة بأعداد متزايدة من «الخيول السماوية»، ما عزز من قوة الخيالة الصينيين وألهب خيال الشعراء. تنقل قصيدة من سنة ١٠١ قبل الميلاد، ولعلَّ وودي مَنْ نظمها، المشاعر القوية التي أثارتها الحيوانات الجميلة:

«الخيول السماوية آتية

آتية من الغرب الأقصى.

لقد عبرت الرمال المتحركة،

لأن البرابرة قد هُزموا....

الخيول السماوية آتية

عابرةً البراري الخالية من المراعي

الممتدة على ألف فرسخ،

متبعةً الطريق الشرقية....

الخيول السماوية قد أتت

وعلى إثرها يأتي التنين.

سوف أصل إلى بوابات السماء،

سوف أرى قصر الله».

يبدو أن وودي قد آمن بأنه عند موته سوف تنقله الخيول الإلهية إلى السماء، وهذا رأي ربما كان ذائعاً أيضاً بين أرستقراطيي هان. أظهرت القبور التي كُشف عنها من عصر هان عدداً كبيراً من الخيول المنحوتة من شتى الأحجام. لعل المتوفين، من مثل وودي، قد آمنوا بأن خيولهم سوف تنقلهم إلى الآخرة المقدسة.

تسارعت واردات الخيول في العقود التي تلت عهد وودي. لتعزيز الموقف في إقليم تكلاماكان، وسّع خلفاء وودي سلسلة نقاط التفتيش المحصنة على طول المسالك الرئيسية التي بدأ بها. لا تزال البقايا التي حتَّتها الريح من بعض هذه البنى مرئية إلى يومنا هذا. لقد شيدت الحاميات في الواحات حتى يمكن للجنود استزراع طعامهم. سنة ٦٠ قبل الميلاد، لتنسيق السياسة الإجمالية في الأراضي المفتوحة، أحدث الصينيون مكتب «الحامي العام للأقاليم الغربية». أعطت هذه الإجراءاتُ الأباطرةَ الذين جاؤوا بعد وودي قبضةً حاكمةً على إقليم تكلاماكان، وأفضت إلى تغييرات كبرى في اتفاقات «السلم والصداقة».

بين سنتي ٥٣ و٥١ قبل الميلاد تفاوض الصينيون والشيونغنو على مجموعة جديدة من الاتفاقيات لتحكم العلاقات بينهما، ودعيت من قبل الصينيين بـ «نظام الجزية». اشترط الإطار الجديد أنه بدلاً من نَيْل الشيونغنو أميرة صينية زوجة، صار لزاماً في الوقت المشار إليه على «شانيو» الشيونغنو، أو ممثله، أن يسافر إلى بلاط هان ويبايع الإمبراطور. أضف إلى ذلك أنه قد وجب على حاكم الرحّل أن يرسل أحد أبنائه إلى بلاط الإمبراطور ليقيم هناك رهينة. أخيراً، كان لزاماً على «شانيو» إرسال «جزية»، هي في العادة خيول ومواشي، إلى الإمبراطور مقابل «هدايا» من الحرير والذهب. رغم أن قوة الشيونغنو العسكرية قد اضمحلت في القرون التالية بالتدريج، فإن نظام الجزية قد حكم العلاقات بين الصينيين وشتى جيرانهم الرحّل إلى نحو سنة ١٧٥٠ (رغم بعض الانتكاسات الدورية).

من الواضح أن نظام الجزية قد كان نتاجاً لنمو القوة العسكرية الصينية، لكن المجموعة الجديدة من الترتيبات كانت أبعد من أن تكون أحادية الجانب. في الحقيقة، لقد حصل الرحّل على أشياء كثيرة من تفاهمهم الجديد مع الصينيين. مع تشغيل النظام الجديد، ازدهرت التجارة بين الصينيين والرحّل – وقد موّهت من الصينيين كمبادلة بين «الهدايا» ودفعات «الجزية»– ازدهاراً لم يحصل قبلاً البتة. كانت السلعتان الأساسيتان في التجارة المتسارعة هما الحرير المنتج عند الصينيين والخيول المنشّأة عند الرحّل. أحد جانبي هذه التجارة، في مراحلها الأولى، موضح في الجدول التالي:

«الهدايا» الحريرية الصينية إلى الشيونغنو

السنة (قبل الميلاد)	خيوط حريرية (كاتي)	نسيج حريري (قطعة)
٥١	٦٠٠٠	٨٠٠٠
٤٩	٨٠٠٠	٩٠٠٠
٣٣	١٦٠٠٠	١٨٠٠٠
٢٥	٢٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
١	٣٠٠٠٠	٣٠٠٠٠

ملاحظة: ١ كاتي = ٢/١ باوند.

مع أننا نفتقر إلى البيانات المقارنة عن الخيول إلى الصين في أثناء المرحلة، فلا ريب في أن ذلك قد نما بالتزامن مع صادرات الحرير.

أشياء جديدة في الصين

وصل إلى الصين إبَّان عهد هان، عدا عن أعداد الخيول المتنامية، الكثير من الأشياء الجديدة من الغرب جلبها مسافرون مجهولون مستعملين المسالك التي كان أول من أمّنها وودي. سريعاً، بعد عودة تشانغ تشيان، ينبئنا سيما تشيان أن العنب والفصة من فرغانة قد أُدخِلا الصين:

«الناسُ [في فرغانة] يحبون خمرهم، وخيلُهم تحب فصّتها. لقد رجع مبعوثو هان ببذور العنب والفصة إلى الصين فعمل الإمبراطور لأول مرة على استزراع هذين النباتين في بقاع ذات تربة غنية. لاحقاً، لما اكتسب هان أعداداً كبيرةً من «الخيول السماوية»، وأخذ المبعوثون من الدول الأجنبية يصلون مع حاشياتهم، كانت الأراضي على جوانب قصور الإمبراطور الصيفية كلِّها وأبراج لذته مزروعة بالعنب والفصة على مدى النظر».

جاء من فارس «بَيضٌ بكِبَر القِدْر» (ربما بيض نَعام) ومسلّون «ماهرون جداً في عَمَل الحيل». هاهوذا سيما تشيان مرة أخرى:

«لما انطلق مبعوثو هان [إلى فارس] مرة أخرى عائدين إلى الصين، أرسل الملك [ملك فارس] مبعوثين له لمرافقتهم، وبعد أن زار هؤلاء الصين وأخبروا عن عظيم اتساعها وقوتها، أرسل الملك بعضاً من بيض الطيور العظيمة التي تعيش في الإقليم، وأصحاب حيل ماهرين من ليشيان [بالقرب من بحر قزوين]، إلى بلاط هان هدايا.... بعد استجلاب السحرة وأصحاب الحيل الأجانب إلى الصين، تطورت مباريات المصارعة وعروض الأعمال الفذة غير المعتادة [برعاية الإمبراطور وودي] وتحسنت كل عام، ومن ذاك الوقت فصاعداً صارت شعبية على نحو متزايد».

وصول البوذية

من وجهة النظر طويلة الأجل، من الراجح أن مجيء البوذية كان أهم ابتكار للصينيين نتجَ عن رحلة تشانغ تشيان، وعن التعاظم اللاحق في حركة النقل من آسيا الوسطى. في البداية، وفدت البوذية شيئاً فشيئاً إلى الصين نحو سنة ٥٠ قبل الميلاد، أتى بها رهبان وتجار كانت بداية مسيرهم في الهند وآسيا الوسطى وفارس. نحو سنة ١٥٠ ميلادية أنشأ رهبان في لويانغ، وهي مدينة على النهر الأصفر كانت العاصمة الصينية في أثناء النصف الثاني من سلالة هان (٢٥-٢٢٠ ميلادية)، أول مركز لترجمة التعاليم البوذية من السنسكريتية

إلى الصينية. بالنظر إلى تجريد النصوص والاختلافات الواسعة بين اللغتين، فإن عمل الترجمة كان قطعاً صعباً جداً.

كان المتصدرون بين المترجمين في لويانغ فُرساً وهنوداً ومجموعة متنوعة من أهل آسيا الوسطى الذين سافروا إلى الصين لنشر تعاليم بوذا. قلة من أسمائهم باقية (في صيغها الصينية). كان الرأس لمشروع الترجمة في لويانغ راهباً فارسياً اسمه آن شيغاو، الذي وصل إلى لويانغ سنة ١٤٨ ميلادية وأمضى السنوات العشرين التالية منهمكاً في عمل الترجمة. جاء أحد أهم المشاركين لآن شيغاو، آن شوان، وكان أيضاً فارسياً، إلى لويانغ تاجراً. بحلول أواخر القرن، كان مترجمون مغتربون آخرون، من الهند وداشيا، يعملون في لويانغ، يساعدهم في المرحلة المشار إليها صينيون.

إن الجماعة البوذية إبان سلالة هان، وكانت قليلة العدد ويقودها المغتربون، كان أثرها في أكثر الصينيين قليلاً أو معدوماً. لكن مترجمي القرن الثاني كانوا خطوة أولى مهمة. في المراحل المتأخرة، كما سنرى، صارت التعاليم البوذية تُقبَل من الصينيين قبولاً متزايداً، وتنتشر انتشاراً واسعاً، حتى صارت قوة كبرى في ثقافة النخبة والعامة كليهما.

الصين والرحّل وروما: طريق الحرير

في مراجعتنا للأثر الذي تركته في الصينيين الاحتكاكاتُ والتبادلاتُ المتزايدة مع شعوب آسيا الوسطى، حذفنا ما لا يقل عن قضية مهمة واحدة، ألا وهي مصير الكميات الكبيرة من الحرير الذي أرسله الصينيون إلى الشيونغنو. ماذا جرى للنسيج الفاخر؟. سيأخذنا الجواب عن هذا السؤال في رحلة من الصين خلال آسيا الوسطى إلى روما، حيث وصل بعض القماش الرائع وُجْهته النهائية.

استعمل الحكام الرحّل الحرير بنفس الطريقة التي استعمله بها الأباطرة الصينيون. لقد كسوا أنفسهم بالأردية الجميلة لتمييز أنفسهم عن رعاياهم، معززين

بذلك سلطتهم السياسية. مثل الأباطرة الصينيين، كافؤوا أيضاً التابعين لهم بأردية من الحرير، موطّدين نمط العلاقات راعي- زبون التي يعتمد عليها الكثير من النخب، في الماضي والحاضر. لكن الرحّل تلقوا من الحرير أكثر مما يمكن لهم استعماله بهاتين الطريقتين. وهكذا فإنهم استعملوا الحرير، مرة أخرى مثل الأباطرة الصينيين، وسيلة دبلوماسية في علاقاتهم مع القبائل الرحّل الأخرى، واستعملوه أيضاً في التجارة. نتيجة لذلك، دخلت كميات كبيرة من الحرير في نمط من الشبكة التتابعية، أو التبادل «في خط نازل»، وهو ما رأينا دليلاً عليه في ما يتعلق بنقل اليَشَب إلى الصين إبَّان عصري شانغ ونتشو.

كما رأينا في حالة اليَشَب، نعلم أن الفلز سافر مسافة طويلة ليبلغ الممالك الصينية الباكرة، لكننا نفتقر إلى أي دليل حقيقي على كيفية وقوع ذلك. في حالة الحرير، الصورة أكثر وضوحاً، وإن لم تكن مركّزة بحدّة كما نرغب.

يتفق العلماء على أن الصينيين في ماضيهم البعيد قد اخترعوا القَزَازة، وهي طريقة إنتاج القماش من الألياف التي تفرزها دودة (البومبيكس موري) لشرنقتها، واحتفظوا باحتكار العملية إلى نحو سنة ٥٠٠ ميلادية. تباعاً لذلك، يقتضي الحرير الذي يُعثر عليه خارج الصين في أثناء العصر الكلاسيكي يقتضي ضمناً نوعاً من الاحتكاك مع الصينيين. رأينا آنفاً كيف توضح البيانات الصينية ارتفاع صادرات الحرير إلى الشيونغنو في القرن الأول قبل الميلاد. لكننا لم نعالج بعدُ قضية المسافة التي سافرها الحرير غرباً.

تشير الأبحاث الحديثة التي قام بها علماء الآثار ومؤرخو المنسوجات إلى أن كميات صغيرة من الحرير الصيني قد وصلت إلى الشرق الأوسط (فارس) وإقليم الدانوب ومنطقة بحر إيجة بحلول القرن السادس قبل الميلاد، حصل ذلك على الأرجح في مسلك شمالي خلال الأراضي المعشوشبة المتصلة بالبحر الأسود. لكن كميات الحرير كانت محدودة جداً. جاء التدفق الحقيقي للحرير الصيني إلى البحر المتوسط لاحقاً. توحي إشارات الكُتَّاب الرومان المتناثرة بأن الحرير دخل بكميات كبيرة إقليم البحر المتوسط إبَّان القرن الأول قبل الميلاد.

يدَّعي فلوروس، مؤرخ روماني من القرن الثاني الميلادي، أنه في معركة مهمة بين الرومان والفرس وقعت سنة ٥٣ قبل الميلاد (وكانت من الهزائم الكبرى للرومان)، كان للجيش الفارسي «أعلام مذهّبة ورايات حريرية». لكن كتابة فلوروس كانت بعد هذه المعركة بزمان طويل؛ ربما لا يُركَن إليه كلياً في تفصيلٍ كالقول بألوية الحرير. ينبئنا مؤرخ روماني ثانٍ، ديو كاسيوس، أنه نحو سنة ٥٠ قبل الميلاد رعى يوليوس قيصر احتفالاً سخياً قدّم فيه أكاليلاً حريريةً وقايةً لضيوفه من الشمس. لكن، مثل فلوروس، جاءت كتابة ديو، الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، بعد الأحداث التي يصفها بزمان طويل، وربما يقلل هذا من موثوقيته.

إذا كان فلوروس وديو مهزوزين نوعاً ما كدليلين على الحرير في روما إبَّان القرن الأول قبل الميلاد، فإن كتّاباً آخرين يظهرون بوضوح أنه بحلول المراحل الباكرة من السلام الروماني (نحو ١-٢٠٠ ميلادية) لم يكن الحرير حاضراً فقط، بل كان أيضاً موضع خلاف. ها هو ذا سينيكا، الكاتب والمعلم الأخلاقي من القرن الأول:

«أرى هناك ملابس من حرير، إنْ أمكن تسميتها ملابس، وهي التي لا تأتي بشيء يمكنه إسباغ الوقاية على البدن، أو حتى الحشمة، بحيث لو أن امرأة لبستها، لم تكد تستطيع أن تُقسم، بضمير نقي، أنها غير عريانة».

يسجّل تاسيتوس، وهو أحد أبدع مؤرخي روما، وجاء بعيد سينيكا، حصيلة مناظرة دارت في مجلس الشيوخ في ما يتعلق بلبس الحرير:

«لقد حُرِّم استعمال أطباق الذهب في الحفلات الخاصة، وكذلك ثياب الحرير التي انحطت إليها أزياء الذكور».

يأتي آخر أجزاء دليلنا في ما يتعلق بالحرير في أثناء الإمبراطورية الباكرة من سويتونيوس، المؤرخ من القرن الثاني الميلادي الذي كتب سلسلة كلاسيكية من السير الذاتية لحكامٍ رومان. تسجل رواية سويتونيوس عن كاليغولا (حكم

٣٧-٤١ ميلادية) ، وهو أحد أسوأ الأباطرة سمعة، تحدي الحاكم الروماني للقانون الروماني والأعراف الذكورية:

«لم يُعر كاليغولا اهتماماً للعادات التقليدية أو الراهنة في لباسه؛ متجاهلاً الأعراف الذكورية بل الآداب الإنسانية. كثيراً ما ظهر ظهورات علنية في عباءة مغطاة بالتطريز وعليها قشرة من الأحجار الكريمة الثمينة، وفي تونيك طويل الأكمام وأساور؛ أو في الحرير (الذي حظر القانون على الرجال لبسه) أو حتى في رداء نسائي.....».

لقد علم الرومان أن الحرير يأتي من مكان ما في الشرق، لكنهم لم يعلموا شيئاً يتعلق بمصدره. كانت الحدود الشرقية «للعالم المعروف» عند الرومان تنتهي في مكان ما في الهند. لا دليل لنا على أن أحداً من الرومان ذهب إلى الصين وعاد إلى وطنه. لكن رحلة كهذه لم تكن مستحيلة، ولعلها في الحقيقة قد حصلت أكثر من مرة. تسجّل السجلات الصينية زيارة قام بها وفد من «الرومان» إلى العاصمة الصينية لويانغ سنة ١٦٦ ميلادية. تنص الرواية الصينية على أن الزوار من الغرب سافروا خلال المحيط الهندي. مع أنه لا إثبات في السجلات الرومانية على سفارة إلى العاصمة الصينية، فإن تجاراً مقدامين من البحر المتوسط ربما سافروا بحراً إلى الصين، وقدّموا أنفسهم سفراء. هل عاد المسافرون الرومان إلى ديارهم؟ لا السجلات الصينية ولا الرومانية تحتوي على أية معلومات تكون عوناً لنا في الإجابة على هذا السؤال.

حتى لو كنا نفتقر إلى دليل على مسيرٍ في رحلة ذهاب وإياب من روما إلى الصين، فإنه يجوز لنا أن نختم هذا الفصل بفحص وجيز لرحالتين من الرومان سارا نصف الطريق (إلى الهند)، سافر أحدهما براً والآخر بحراً. كان إسيدور الخاراشي تاجراً يونانياً ضالعاً في التجارة بين الشرق والغرب خلال فارس في أثناء العقود المتأخرة من القرن الأول قبل الميلاد. كانت مدينته خاراش[١] واقعة على رأس الخليج الفارسي، وكانت جزءاً من المنطقة الحدودية التي حمي التنازع عليها بين روما

(١) في ما هو اليوم إيران وتدعى خرمشهر أو المحمرة – المترجم.

والفرس الفارثيين (السلالة الفارثية، ٢٥٠ قبل الميلاد - ٢٢٤ ميلادية). دليلنا الوحيد على رحلات إسيدور هو وثيقة وجيزة تعرف بـ «المحطات الفارثية»، وهي قائمةٌ بخط السير الذي اتبعه من أنطاكية في سورية الرومانية خلال ما بين النهرين وفارس حتى قندهار في ما هو اليوم أفغانستان (وكانت يومئذ تحت السلطة الفارثية). بحسب «المحطات الفارثية»، أخذ إتمام الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر ويبدو أنها غطت نحو ٣٠٠٠ ميل (علماً أن المسافة الجوية بين المدينتين هي فقط نحو ١٧٠٠ ميل).

إنّ سجلّ إسيدور المشتمل على شبكة الخانات الممتدة من الساحل المتوسطي وخلال النجد الفارسي إلى حدود الهند، مع تحديد المسافات بينها، هو دليل قوي على إحدى الوسائل التي كان يُحمل بها لاحقاً الحرير المرسل من الصين خلال آسيا الوسطى إلى الغرب. من الراجح أن إسيدور والرحالة التجار الآخرين الكثيرين الذين مرّوا خلال فارس الفارثية قد استعملوا الشريان الكبير شرق-غرب المعروف بطريق خراسان، وكانت قد مرّت عليه أكثر من ٥٠٠ سنة، ونقلوا بضائعهم في قوافل من الحمير، وهي طريقة لنقل السلع كانت، كما رأينا في الفصل الثاني ، راسخة جداً منذ سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد. من حيث الأثر، يزودنا إسيدور بالوصلة المفقودة من طريق الحرير. يمكّننا خط سيره الوجيز من رؤية كيف أن الحرير الصيني الذي وصل إلى آسيا الوسطى قد اتخذ سبيله بعدئذ خلال فارس وما بين النهرين إلى البحر المتوسط.

النظير البحري لـ «المحطات الفارثية» هو كتيبٌ وجيز لربان بحر مغفل الاسم، هو أيضاً ناطق باليونانية، وكانت قاعدته الإسكندرية في أثناء القرن الأول الميلادي. يقدّم هذا الكراس الصغير، ويعرف بعنوان «بيريبلوس البحر الإريثري» (دليل المحيط الهندي)، معلومات - يقوم معظمها على الملاحظة المباشرة - عن شروط الإبحار والفرص التجارية من البحر الأحمر وساحل أفريقيا الشرقية شرقاً إلى الهند. من الواضح أن «بيريبلوس» قد كُتب لربابنة السفن الرومان الآخرين الكثيرين والتجار البحريين الذين كانوا يشقّون مياه البحر العربي في أثناء القرون الأولى من التاريخ العمومي.

نعلم من «بيريبلوس» أن السفن من الموانئ الرومانية على ساحل البحر الأحمر المصري قد عملت رحلات منتظمة نزولاً على الساحل الأفريقي لأجل تجارة العاج وصدف السلاحف واللبان والمر. من الموانئ العربية حملت اللبان والمر والصبَّار، وكذلك العديد من المنتجات المشحونة من الهند، أعني الفلفل وغيره من التوابل، والجواهر من شتى الأنواع، والقماش المصنوع من القطن والحرير.

كذلك يتضح من «بيريبلوس» أنه بحلول القرن الأول حصلت رحلات كثيرة من موانئ البحر الأحمر وكانت تنتهي في المرافئ الهندية. أحياناً، كانت عمليات الإبحار هذه مباشرة، بإزاء الرحلات التي كانت تلازم الساحل. بحلول هذا الوقت كان ربابنة السفن الرومان قد فهموا أنماط الرياح الموسمية التي تتشكّل شروط الإبحار في سائر أرجاء إقليم المحيط الهندي. يمكن للانطلاق مباشرة خلال المياه المفتوحة إلى المرافئ الهندية في أثناء أشهر الصيف أن يوفر الكثير من الوقت، إذا وُقّتَ توقيتاً صحيحاً، بحيث يجعل العودة السريعة نسبياً ممكنة.

لقد ضَمّن الحرير مع السلع الكثيرة الداخلة في التجارة خلال البحر العربي ووردت في «بيريبلوس» قائمةٌ بها. يُذكر النسيج، المشحون بقوافل من الصين، ذكراً متصلاً بأربعة موانئ هندية. كان قماش الحرير وخيوطه متوفرين في بارباريكون عند فم نهر السند، وفي باريغازا على ساحل الهند الشمالي الغربي، وفي موزيريس على الساحل الجنوبي الغربي (مالابار). تُقرن أكثر الإشارات إلى الحرير إثارة للاهتمام من بين ما ورد في «بيريبلوس» بميناء اسمه الغانج على الساحل الشرقي للهند بالقرب من فم النهر الذي يحمل الاسم نفسه. هاهو ذا «بيريبلوس»:

«وراء هذه المنطقة... حيث ينتهي البحر في مكان ما على الطرف الخارجي، مدينةٌ داخل البرِّ عظيمةٌ جداً تدعى ثينا [الصين] يُشحن منها زغب الحرير وخيوطه وقماشه براً خلال بكتيريا إلى باريغازا، وخلال نهر الغانج رجوعاً

إلى ليميريك [ساحل مالابار]. ليس من السهل الوصول إلى ثينا هذه: ذلك أنه نادراً ما يأتي الناس منها، والقليل منهم فقط.....».

تقدّم لنا هذه الفقرة من «بيريبلوس» ليس فقط أول ذِكْر للصين في لغة غربية، بل أيضاً الدليل الذي يثبت أنه بحلول القرن الأول من التاريخ العمومي كانت مجموعة متنوعة عظيمة من الرحالة الجسورين، وأكثرهم قد فُقِدت أسماؤهم إلى الأبد، قد أنشأت صلات بين الصين وروما. كانت توغات(١) كاليغولا عبارة عن رمز إلى جانب صغير من التغيرات التي وصلت من حوض المتوسط إلى وادي النهر الأصفر.

خاتمة: سياق التاريخ العالمي

لقد كشفت الرحلات الآسيوية – ومنها الرحلات الرومانية إلى آسيا – ورعت أيضاً تحولات ذات شأن في التاريخ العالمي إبَّان العصر الكلاسيكي. كانت الروابط التجارية أمراً جلياً: ركّز كثير من الرحالة تركيزاً مباشراً على التجارة، ولا سيما الحرير، فشكّلت نتائج ذلك جزءاً مهماً، وإن كان تابعاً، من أجزاء اقتصادات بضعة مجتمعات. كذلك وصلت الرحلات بين ممثلي الدول القائمة، وأبرزها الصين، وبين زُمر الرحّل، وهذا نوع أساسي آخر من الاحتكاك. كذلك مدّت الرحلات نطاق الصلات الثقافية، كما يظهره نقْل البوذية إلى آسيا الوسطى والصين. كانت الرعاية الصينية الرسمية للرحلات علامة أساسية على تنامي أهمية الدولة الصينية بل أيضاً على اعترافها بالأهمية الدبلوماسية والتجارية أيضاً للرحلات. إن يكن بعض هذه الاحتكاكات سيضطرب بسقوط سلالة هان في الصين والانهيار اللاحق لروما، فإن جدوى هذه الصلات لم يُنس. سرعان ما سيلتقط رحالة آخرون مهمة استعادة الروابط ومدّ نطاقها.

---

(١) من لباس الرومان – المترجم.

الجزء الثاني

العصر ما بعد الكلاسيكي

اتخذ السفر في القرون التي تلت سنة ٥٠٠ ميلادية تقريباً أبعاداً جديدة، بالمقارنة مع نظيره في العصر الكلاسيكي. صار الرحالة الأفراد الأكثر بطولة يغطون في المرحلة المشار إليها مسافات أطول، محتكين مع مجتمعات أكثر تنوعاً. لقد ازداد معدل الرحلات. كذلك أخذت الرحلات تولّد عواقب أكثر شأناً، ولا سيما في دعمِ احتكاكات تجارية جديدة ونشرِ الأديان العالمية. لقد أصبح السفر حقاً جزءاً لا يتجزأ من شبكة متسارعة من الاحتكاكات بين آسيا وأفريقيا وأوروبا.

تفسّر بضعةُ عوامل الأبعاد المتغيرة للسفر. لقد كان حاسماً مقدم الأديان الجديدة، ولا سيما الإسلام، أو تنامي الاهتمام بالأديان الأخرى كالمسيحية أو البوذية. مع ابتعاد الدين عن الصبغة المحلية، أمكن للرحالة نيل حسٍّ من التأييد الإلهي، حتى وهم يتغلغلون داخل أراضٍ مترامية الأطراف. كذلك أمكنهم العثور على زملاء من المؤمنين، حتى في أوساط ثقافية وسياسية مختلفة جداً، كانوا عوناً لهم في مسيرهم، وقدّموا لهم الإلفة في الغربة. كذلك قدّم الدين دافعية جديدة للسفر، لترويج الدخول فيه أو للسعي وراء الاحتكاك مع ينابيع الإيمان في أماكن بعيدة.

لقد أمكن للتغيير السياسي أن يكون حاسماً. قدّمت الإمبراطوريات الجديدة أو تلك التي أُحييت من جديد – الخلافة العربية، إعادة إنشاء الإمبراطورية في الصين – حماية سياسية للمسافرين خلال فضاء جغرافي كبير. رعت الإمبراطوريات المغولية المتشابكة، مع أواخر العصر ما بعد الكلاسيكي، الأمن وعرضت دعوة صريحة للرحالة امتدت على نطاق من الأرض لا سابق له.

ستدخل التقانة أيضاً الميدان، وإن كان ذلك جزئياً، نتيجة للسفر والتجارة. لقد شجعت التصميمات الجديدة للسفن، ولا سيما على يد العرب، استعمالاً للمحيط الهندي أوسع نطاقاً. سوف تدخل أدوات ملاحية جديدة مع أواخر العصر، وعلى رأسها البوصلة. كذلك قدّم السفر والتجارة، ولاسيما من الأراضي الإسلامية في البداية، خرائط ذات دقة لا سابق لها، وهذه نتيجة أخرى للرحلات أمكنها بدورها ترويج المزيد من الرحلات. أخيراً، كما سنرى، قدّمت المخرَجاتُ الزائدة من روايات الرحالة الدافعيةَ والمعرفةَ كليهما لمخاطرات أخرى، لما أخذت الرحلات تتغذى على نفسها.

الفصل الخامس

الرحلات البوذية، ٤٠٠ ـ٩٠٠ ميلادية

مُقَدِّمَة

كان الرهبان البوذيون من الصين بين أكثر الرحالة المغامرين برحلات بعيدة في أثناء الألف الأول الميلادي. من القرن الثالث إلى القرن العاشر توجه آلاف الرهبان الصينيين غرباً نحو الأماكن المقدسة البوذية في الهند. سافر أكثر هؤلاء الحجاج عبرَ طريق الحرير خلال آسيا الوسطى؛ استعمل عدد أقل من ذلك المسالك البحرية التي تصل الموانئ الصينية بالمرافئ الآسيوية الجنوبية.

ألهمت البوذية رحالة آخرين أيضاً. فقبل ذلك، في العصر الكلاسيكي، خرج المبشرون البوذيون من الهند في صورة مروحة عمّت آسيا الوسطى والصين وجنوبي شرقي آسيا، وإن قلَّت لدينا الأدلة الدقيقة على رحلات محددة. في العصر ما بعد الكلاسيكي، ربطت البوذية أيضاً رحالة من اليابان بالبر الآسيوي. وهكذا، تشكّل البوذية أول الأطر الدينية الجديدة الكبرى للارتحال المعمق، مع تركيز أساسي على المسالك البرية في آسيا لكن مع بعض الاستخدام للخطوط البحرية في المحيط الهندي أيضاً. كانت الأسفار، بدورها، عوناً على توطيد دور البوذية في عدد من المجتمعات الآسيوية، لكنها كانت أيضاً عوناً على حفز المزيد من الصلات التجارية.

* * *

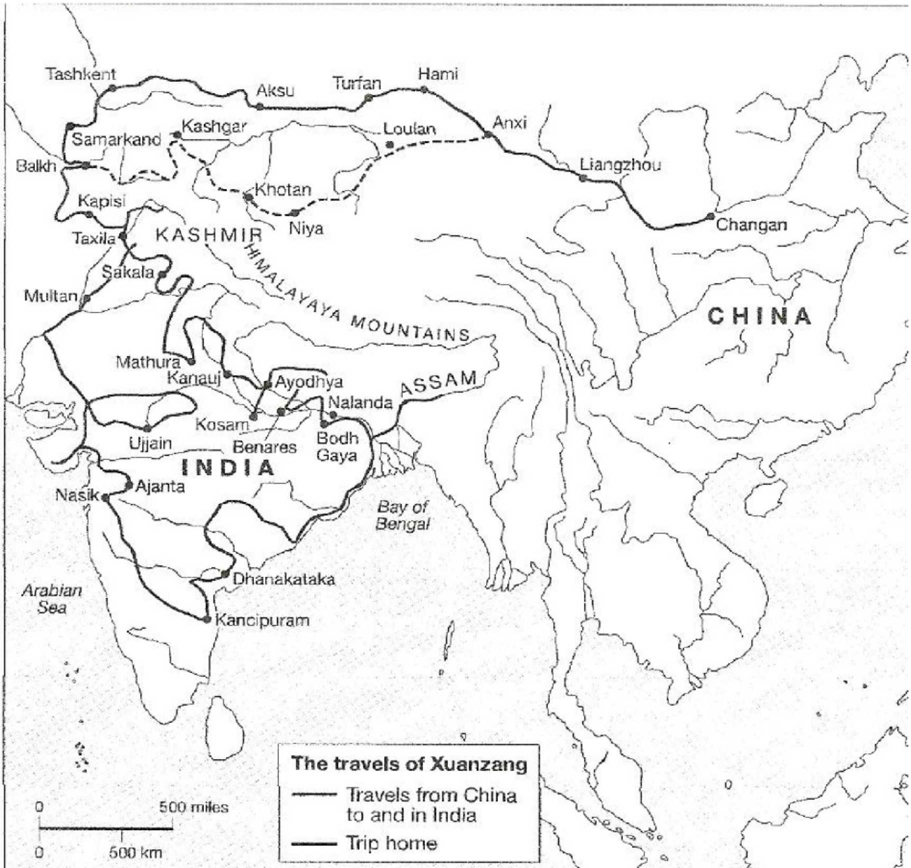
سنة ٦٢٩، غادر أشهر الرحالة البوذيين من الصين، راهب يدعى شوانتسانغ (نحو ٦٠٠-٦٦٤)، غادر العاصمة الصينية تشانغان في مسير خلال آسيا الوسطى إلى الهند. كان هدفه الحصول على نسخ سنسكريتية من النصوص البوذية التي كانت إما لم تترجم بعد إلى الصينية أو إنها تحتاج بحسب اعتقاده إلى نقلٍ بمزيد من الدقة. كان شوانتسانغ يرجو من جمع هذه الكتابات وإعداد ترجمات لها جديدة أو منقحة أن يحلّ الخلافات العقائدية التي فرقت صفوف زملائه الرهبان في الصين، وأن يقطع الشكوك التي ثارت في ذهنه في ما يتعلق بمعنى التعاليم البوذية.

في أثناء السنوات الست عشرة التالية طوى شوانتسانغ معظم مسافات الأرض التي قطعها تشانغ تشيان قبل ذلك بسبعمئة سنة، بل والكثير معها. بخلاف تشانغ تشيان، وصل شوانتسانغ إلى الهند وسافر هناك أسفاراً واسعة. في أثناء إقامته في الهند، زار أقدس المواقع عند أبناء دينه، ودرس على العلماء البوذيين الضليعين في كبرى الأديرة، وأخذ مئات المخطوطات السنسكريتية.

عند رجوع الراهب إلى العاصمة الصينية سنة ٦٤٥، بعد أن سافر ١٠٠٠٠ ميل أو تزيد، قوبل بالتهليل والترحيب. في غضون أسابيع من عودته إلى الوطن مُنح لقاء رسمياً مع الإمبراطور تايتسونغ. تأثر الإمبراطور بما سمعه من شوانتسانغ تأثراً عظيماً حتى إنه طلب منه أن يكتب رواية عن أسفاره، وأن يصبح أحد مستشاريه. قبِلَ شوانتسانغ بكتابة الكتاب، لكنه ردّ العرض بتعيينه موظفاً. بدلاً من ذلك، سأل الراهبُ الإمبراطورَ أن يموّل خطته الطموح بترجمة المخطوطات الكثيرة التي جلبها معه إلى الصين. وافق تايتسونغ على التماس الراهب، ما مكّن شوانتسانغ من إنفاق بقية عمره منهمكاً في الترجمة والتعليم. مرة أخرى، تستحق الصلة بين سياسة الدولة الصينية والسفر الملاحظة.

كانت الترجمات التي أتمّها شوانتسانغ في العقدين الباقيين من عمره – العمل الذي قام به بالاشتراك مع فريق من العلماء/الرهبان جمعه بنفسه – إسهامات كبرى بالنسبة إلى حيوية البوذية في الصين وبلدان شرقي آسيا

الأخرى. كان لرحلات شوانتسانغ أيضاً مضامين سياسية مهمة. مثل التقرير الذي رفعه تشانغ تشيان إلى إمبراطور هان، لقد زود كتابُ الرحلات الذي عمله شوانتسانغ الإمبراطورَ تايتسونغ بمعلومات قيمة عن الأحوال في آسيا الوسطى والهند في وقت كان الزعماء الصينيون ينتهجون سياسة خارجية توسعية. لنلتفت الآن إلى بعض أبرز ما في مسير شوانتسانغ العظيم.



«رحلات شوانتسانغ» (المترجم)].

راهب يروي رحلاته مرتين

لدينا مصدران كبيران لرحلات شوانتسانغ، الرسالةُ الملأى بالمعلومات التي كتبها نفسه نزولاً عند طلب تايتسونغ، وروايةٌ كثيرة المعلومات عن باكر حياة الراهب وأسفاره صنَّفها زميل له ديراني أصغر منه سناً. الكتابان قيمان جداً للبحاثة الحديثين.

كتاب شوانتسانغ، «سِجِلّ سلالة تانغ الكبرى بالأقاليم الغربية»، هو أحد أهم الأعمال في الجغرافيا الثقافية التي وضعت في الألف الأول الميلادي. الكتاب، وقد اكتمل بُعيد عودته إلى الصين، هو وصفٌ مفصل لنحو ١٣٠ «بلداً» (دولة أو إقليم) في آسيا الوسطى والهند في أوائل القرن السابع. يقوم الكتاب على ذكريات شوانتسانغ ومذكرات سفره والبحث في الأعمال التاريخية والجغرافية التي حصل عليها في الهند (وهي الآن مفقودة).

يستعيد أسلوبُ وبنيةُ كتابِ شوانتسانغ «سجلّ الأقاليم الغربية» التقريرَ الذي رفعه تشانغ تشيان إلى الإمبراطور وودي. كذلك يشابه كتاب شوانتسانغ أعمال الرحلات للرهبان الصينيين من مثل فاشيان وسون يون الذين سبقوه إلى آسيا الوسطى والهند. كتبَ كل من فاشيان (ارتحل ٣٩٩-٤١٤) وسون يون (ارتحل نحو ٥١٦-٥٢٠) تقارير وجيزة وقيمة عن رحلاتهما. لكن كتاب شوانتسانغ تفوّق على كتابات هذين الرحالتين المتقدمين إذ يزودنا بمعلومات أغزر بكثير.

جزؤنا الكبير الثاني من الدليل هو السيرة الذاتية التي عملها لشوانتسانغ هويلي، راهبٌ كان عضواً في فريق المترجمين الذي جمّعه شوانتسانغ بعد عودته من الهند. كتاب هويلي،«السيرة الذاتية لمعلم التريبيتاكا[1] في دير تشين الأكبر لسلالة تانغ الكبرى»، قائم في معظمه على شهادة شوانتسانغ، ويحتوي معلومات كثيرة عن يوميات رحلة الأخير وخبراته الشخصية غير الموجودة في «سجلّ الأقاليم

(١) هو مجموع أقوال بوذا - المترجم.

الغربية». لعل شوانتسانغ بمناقشته ذكرياته مع هويلي كان يسعى لعمل سجلّ لمسيره أكثر كشفاً لخبراته اليومية من التقرير الذي أعدّه لتايتسونغ.

لنتبع الآن خطا شوانتسانغ معتمدين من روايته لرحلاته، على الكتاب الذي عمله للإمبراطور وعلى خُطى النسخة، كما حدّث بها هويلي.

حياته الباكرة

ولد شوانتسانغ نحو سنة ٦٠٠، وهي لحظة محورية في التاريخ الصيني. قبل مولده بعقد، أعاد الإمبراطورُ ويندي، مؤسسُ سلالة سوي (٥٨١-٦١٧) القصيرة الأجل لكن المهمة، توحيد الصين لأول مرة منذ انهيار إمبراطورية هان في القرن الثالث. كان كلٌّ من الإمبراطور ويندي وابنه وخليفته يانغدي (حكم ٦٠٤-٦١٧) من رعاة البوذية، وكان السبب في ذلك جزئياً هو اعتبارهما الرهبان البوذيين حلفاء سياسيين مفيدين في وجه طائفة متنوعة من الخصوم، ومن ذلك علماء الكونفوشية ورجال دين الطاوية. لتقديم الدعم للبوذيين، رعى الإمبراطوران، من سلالة سوي، تشييد الكثير من الأديرة، وأجازا رسم الكثير من الرهبان والراهبات الجدد، وشجعا تعظيم الذخائر المقدسة.

لنا أن نخمن أن قرار شوانتسانغ أن يصبح راهباً قد تأثر بالسياسات الدينية لإمبراطوري سوي. من جهة الأب، كان شوانتسانغ سليل ثلاثة أجيال من علماء الكونفوشية الضليعين. (لا تتبئنا مصادرنا بشيء عن أمه أو آبائها). أضف إلى ذلك، بحسب هويلي، أن شوانتسانغ قد درس وهو طفل الكلاسيكيات الكونفوشية على أبيه، وانكبَّ على دراساته بجد. في أوقات أخرى من التاريخ الصيني كانت بداية واعدة كهذه في المعرفة الكونفوشية بمنزلة لوح القفز لدراسات أكثر تقدماً في التعليم الكونفوشي ولتعيين لاحق في وظيفة حكومية.

لكن، لما كان شوانتسانغ في نحو الثانية عشرة غيّر وجهته وقرر الدخول في دير بوذي. يبدو أن أحد إخوته الأكبر منه، وكان راهباً، قد شجعه على الانضمام إلى العدد المتنامي من الشبان الصينيين من أسر النخبة الذين كانوا

يصيرون رجال دين بوذيين. أمضى شوانتسانغ العقد ونصف العقد التالي في أديرة شتى، أولاً كمبتدئ، ومن ثم، وقد ناهز الثانية والعشرين، كراهب مرسوم رسماً كاملاً. في أثناء هذه المرحلة أصبح معروفاً جيداً بقدرته غير المعتادة على حفظ النصوص الطويلة والمعقدة بسرعة وبمعرفته البوذية المثيرة للإعجاب.

كانت هذه السنوات سنوات من التقلب السياسي الكبير في الصين. سنة ٦١٧ وقعت انتفاضة عسكرية أطلق شرارتها واسع عدم الرضا من سياسات ثاني أباطرة سوي فكانت النتيجة الإطاحة به. فاضت القلاقل التي أحاطت بسقوط سلالة سوي على العقد الأول من سلالة تانغ (٧١٨-٩٠٧) التي خلفتها.

لما كان شوانتسانغ في كنفٍ، ما يقيه الاضطراب السياسي المحيط به، فقد كرس نفسه لدراسة كبرى التعاليم البوذية المتوفرة يومئذ في الصين. كانت نصوصه من الماهايانا (حرفياً: «المركبة الكبرى») أحد فروع البوذية، التي انتشرت في زمان سابق من الهند إلى آسيا الوسطى ومن ثم إلى الصين وكوريا واليابان. إحدى السمات الأساسية لبوذية الماهايانا هي المكانة المرموقة المعطاة لأشخاص بوديساتفا، أي الأشخاص القديسين الذين نالوا الأهلية لدخول نيرفانا، لكنهم اختاروا بدلاً من ذلك معونة الآخرين في مساعيهم لنيل الخلاص. صار أشخاص بوديساتفا رموزاً للرحمة وللشمول، وهما فضيلتان من فضائل الماهايانا البارزة.

كانت الخصيصة الثانية لتقليد الماهايانا هي العدد العظيم للنصوص المتنوعة والمتعارضة أحياناً التي قبلها أصحاب الماهايانا تعابير موثوقة عن الاعتقاد البوذي. أفضى الحجم العظيم لصحاح الماهايانا وطبيعتها المتنوعة إلى متكرر الخلافات بين الرهبان وإلى تشكيل فرق ديرانية كثيرة، كل منها كرَّس نفسه لنص معين.

أزعجت شوانتسانغ النزاعاتُ الاعتقادية التي فرقت صفوف زملائه. واعتقد أن بعض الخلافات ناتج عن نقاط ضعف في الترجمات التي يستندون إليها، الترجمات التي تركته حيران أيضاً. لقد علم أيضاً أن بعض نصوص الماهايانا المهمة، التي لم تترجم بعدُ إلى الصينية، يمكن الحصول عليها في الهند. كانت اعتبارات كهذه أول شيء في ذهنه لما قرر، ولمّا يبلغ الثلاثين بعدُ، مغادرة الصين في مسير إلى الهند.

على الطريق

أرسل شوانتسانغ، متمسكاً بالممارسة الصينية، عريضة إلى الإمبراطور تايتسونغ يلتمس الإذن بالسفر إلى الهند. لكن الالتماس ظل بلا رد، والسبب في ذلك على الأرجح هو أنه في السنوات الأولى، وغير المستقرة نسبياً من عمر سلالة تانغ، كانت السلطات الصينية غير راغبة في إجازة السفر مهما كان نوعه في الأقاليم الحدودية. لم يردع ذلك شوانتسانغ فاجتاز البوابة الغربية الضخمة لتشانغان وانطلق في مسلك القوافل نفسه المتجه غرباً الذي استعمله آلاف المسافرين منذ زمان تشانغ تشيان. لأسباب تتعلق بالسلامة، بدأ شوانتسانغ مسيره بصحبة راهب آخر كان راجعاً من عاصمة تانغ إلى دياره في قانسو. لما افترق الراهبان بعد ذلك، لاقى شوانتسانغ أفراداً آخرين – رهباناً وتجاراً وموظفين محليين – ساعدوه بطرق شتى في حركته غرباً. لما أمر أحد الموظفين في قانسو شوانتسانغ بالعودة إلى تشانغان، هبّ الرهبان المحليون لنجدته، فواكبوه سراً نحو الغرب في جنح الليل. مزَّق موظف آخر، أثار صلاح شوانتسانغ إعجابه، مذكرة توقيف بحقه (لخرقه التقييدات على السفر)، وحضَّ الراهب على المضي قدماً بسرعة.

راغ شوانتسانغ من ملاحقيه واجتاز قانسو، فوصل إلى جوار «بوابة اليَشَب»، الحاجز الصيني الذي يعلّم الحدود بين إمبراطورية تانغ وصحراء تكلاماكان الشاسعة. كيف له، وهو الراهب المفرد، أن يعبر الصحراء المهولة؟ كانت سلسلة من الواحات التي يمكنه الحصول منها على الماء والمؤن

الأخرى تتحلق حول تكلاماكان من الشمال والجنوب، لكن المسافات بينها كانت مهولة والطرق غير معلَّمة جيداً. أضف إلى ذلك أن احتمال التعرض للسرقة من قطاع الطرق كان حقيقياً جداً.

ينبئنا هويلي أنه في هذه اللحظة من عدم اليقين، اتجه شوانتسانغ، كغيره من أصحاب الماهايانا في ظروف مماثلة، في طلب المساعدة إلى مايتريا بوديساتفا، بوذا المستقبل. بينما كان الراهب يصلي عند مشهد من مشاهد مايتريا بوديساتفا، أجيب توسله على ما يظهر. بحسب هويلي، دنا من شوانتسانغ رجل من «قبيلة هو» وعرض عليه أن يكون دليله إلى هامي، أول واحة على المسلك الشمالي حول الصحراء. (كان «هو» مصطلحاً عاماً استعمله الصينيون للأقوام الرحّل الرعاة في آسيا الوسطى؛ يوحي اللفظ بعينين غائرتين وأنف بارز ولحية كثيفة).

قبِل شوانتسانغ عرض الرجل فسار في الصحراء القاحلة على ظهر حصان أحمر مسنّ تقايض عليه مع صديق لدليله، وهو حصان قيل إنه يعرف الطريق إلى هامي. لكن الفاجعة وقعت سريعاً. في أول ليلة لشوانتسانغ تحت النجوم، دنا الدليل من الراهب شاهراً سكينه، عازماً على نحو ظاهر على سلبه. لما كان شوانتسانغ غير متأكد ممَّا يفعل فقد طلب العون الآن من بوديساتفا الرحمة والتنوير العظيم، أفالوكيتيسفارا بوديساتفا. مع ازدياد دنو الرجل المنتسب إلى هو، تلا الراهب الكتب المقدسة وتغنَّى باسم البوديساتفا. مرة أخرى استجيبت صلوات شوانتسانغ على نحو ظاهر؛ تراجع الذي كان يهم بالعدوان عليه واستطاع شوانتسانغ العودة للنوم. لكن في اليوم التالي، أخبر الدليل الراهبَ أن المسلك إلى هامي خطير جداً وأنه عائد إلى دياره.

مضى شوانتسانغ راكباً وحده، متبعاً آثار الأقدام المفروشة بالهياكل العظمية وروث الخيل. استطاع الحصول على الماء والمؤن الأخرى من الجنود المتمركزين في برجي مراقبة صينيين. لكنه بعد مفارقة البرج الثاني ضلَّ طريقه وسقطت محفظة الماء التي معه، ومن فوره اختفى محتواها في الرمل المحمص.

لأربع ليال وخمسة أيام بعد ذلك، تاه ومطيته الهرمة في الصحراء من غير ماء. بغتة، وقد شارفا معاً على الهلاك، اشتمَّ الحصان الماء؛ سرعان ما وجدا واحة صدفة. بعد يوم من استرداد العافية، صار الرجل ودابته من القوة بما يكفي للقيام بالمسير الذي يأخذ يومين إلى واحة هامي.

لما كان شوانتسانغ يستريح في هامي، أرسل قو وينتاي، ملك غاوتشانغ (هي تورفان في يومنا الحاضر)، وهي الواحة التالية على المسلك الذي يدور حول تكلاماكان، يدعو الراهب لزيارته. بحسب هويلي، كان شوانتسانغ قد خطط أصلاً للمضي قدماً من هامي نحو الشمال الغربي، آخذاً – بحسب الاحتمال – طريق وادي إيلي المخضوضر. لكن الراهب تأثر بدعوة قو وينتاي فقرر تغيير مسلكه كي يشتمل على وقفة قصيرة في تورفان. ابتهج قو وينتاي ببشائر لقاء شوانتسانغ، فبعث أحد موظفيه بخيل كثيرة وقطار من الإبل لنصب منازل استراحة على طول الطريق. بعد ستة أيام من مغادرة هامي، وصل شوانتسانغ إلى تورفان.

البوذية والحرير في تورفان

واحة تورفان انهدامٌ جيولوجي عظيم بعمق تحت سطح البحر يصل إلى ١٥٠ ياردة، ما يجعلها من أخفض النقاط على سطح الأرض. لما كانت المنطقة تتلقى من ماء المطر معدلاً سنوياً قليلاً جداً، فإن الحياة الزراعية في الواحة اعتمدت دائماً على الثلج الذائب من جبال تيانشان القريبة. لطالما وصلت كميات وفيرة من الماء البارد الصافي إلى أراضي تورفان المزروعة بالقمح ومزارع البطيخ وكروم العنب بوساطة شبكة من الأقنية المطمورة تدعى الواحدة منها «قناة».

ابتداءً من زمان تشانغ تشيان، كانت تورفان مركزاً كبيراً للتجارة البعيدة المدى وللتبادل الثقافي. كانت قوافل التجار المتجهة غرباً من الصين وشرقاً من آسيا الوسطى تتوقف في تورفان للاستراحةِ من شدائد سفر الصحراء والحصولِ

على الماء والغذاء والحيوانات الجديدة، ولتبادل السلع. أقام بعض أهل التجارة الطويلة المدى، وخصوصاً من أهل صُغْديا في ما هو اليوم أوزبكستان، جماعات دائمة في تورفان.

لما وصل شوانتسانغ إلى تورفان، كانت الواحة تحت حكم أسرة قو، وهي إحدى العشائر المحلية البارزة، لمدة تقارب قرناً ونصف القرن. كانت حدود دولتهم تبلغ نحو مئة ميل من الشرق إلى الغرب و١٥٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وتضم ثلاثين ألف نسمة. مع أن إثنية ملوك قو موضع شك، فإن مئات الوثائق التي عُثر عليها في تورفان تعطي إشارة إلى أنه عند وصول شوانتسانغ كان أكثر سكانها صينيين. من المحتمل أنهم كانوا سلالة نازحين فروا غرباً في القرنين الخامس والسادس هرباً من النزاع السياسي في شمالي الصين.

يستحق جانب آخر من تورفان في أوائل القرن السابع الملاحظة، أعني أهميتها كمركز للبوذية. بحسب هويلي، كان «بضعة آلاف» من الرهبان البوذيين يقيمون في تورفان وقت زيارة شوانتسانغ. إذا صحَّ ذلك، فإن نحو ١٠٪ من سكان المملكة كانوا ينتمون إلى طبقة رجال الدين البوذية (بالمقارنة مع أقل من ١٪ في الصين في ذلك الوقت). مع أنه من المحتمل أن الرقم الذي ذكره هويلي مبالغ فيه، فإن العلماء اكتشفوا الكثير من الأدلة الأثرية والوثائقية التي تشير إلى أهمية البوذية في تورفان. في الحقيقة، في الواحات التي تطوق تكلاماكان، في هذا الوقت، وهي عشر أو تزيد، يبدو أن البوذية قد أحدثت في تورفان أكبر أثر لها.

نعلم من هويلي أن قو وينتاي، مضيف شوانتسانغ، كان بوذياً مخلصاً. لما وصل الراهب إلى عاصمة تورفان نحو منتصف الليل، كان الملك وحاشيته بالانتظار للترحيب به. طوال عشرة الأيام التالية أسرف قو وينتاي في العناية بشوانتسانغ، فقدم له لوازم الإقامة في دير مجاور للقصر وعيّن خصياناً للقيام بحاجاته. كذلك حاول الملك إقناع شوانتسانغ بتطويل إقامته، ربما بسبب رغبته في أن يصبح الراهب مستشاره الديني وأن يتولى زعامة الجماعة البوذية

المحلية. لعل قو وينتاي كان أيضاً يفكر في شوانتسانغ بصفته صلة وصل محتملة مع الإمبراطور تايتسونغ.

لكن شوانتسانغ كان مصمماً على الاستمرار في رحلته إلى الهند كما هو مخطط. كانت النتيجة مواجهة مثيرة بين الملك والراهب. لما هدد قو وينتاي بإجبار شوانتسانغ على العودة إلى الصين، بدأ الراهب إضراباً عن الطعام من الطراز الغاندي استمر ثلاثة أيام. في اليوم الرابع، رأى الملك أن صحة شوانتسانغ في خطر، فخضع لمشيئته ووعد بالسماح له في متابعة مسيره.

إذ أُقِرَّ لشوانتسانغ حقه في المغادرة إقراراً واضحاً، فقد وافق على البقاء في تورفان شهراً إضافياً للتعليم. أمر قو وينتاي بنصب خيمة كبيرة لمحاضرات الراهب، مأوى كبير يكفي لجلوس ٣٠٠ من المتعبدين. كل يوم كان الملك يواكب شوانتسانغ إلى المنبر، ثم يجثو فيجعل من نفسه مرقاة تساعد الراهب في ارتقائه كرسيه.

لما صار شوانتسانغ متأهباً أخيراً للرحيل، ودَّعه قو وينتاي بطريقة مهيبة. أعطى الراهب ثلاثين طقماً من الكسوة الدينية، ومجموعة متنوعة من لباس الطقس البارد (أقنعة للوجه وجزم وقفازات وجوارب)، وأربعة رهبان مبتدئين كخدم له. كذلك زَوَّدَ قو وينتاي شوانتسانغ بموارد مالية لتغطية نفقاته على الطريق: مئة أونصة من الذهب وثلاثين ألف قطعة نقد فضية وخمسمئة لفافة من الحرير وقماش الساتان. لنقل هذه البضائع، أرسل الملك أيضاً ثلاثين حصاناً وخمسة وعشرين حمّالاً.

لكن، كان هناك المزيد. كتب الملك رسائل تعريف إلى أربعة وعشرين من رؤساء الدول في البلدان التي من المحتمل أن يزورها شوانتسانغ، وأرفق بكل رسالة لفافة من الحرير النفيس. إلى خان الأتراك الغربيين، الذي سوف نلقاه وشيكاً، أرسل قو وينتاي رسالة تعريف خاصة مع خمسمئة لفافة من الحرير وحِمل عربتين من الفواكه وسواها مما يؤكل (ربما من المجففات). أضف إلى

ذلك أنَّه أرسل اثنين من كبار موظفيه - خادم القصر والكاتب الملكي - لمواكبة شوانتسانغ إلى بلاط الخان.

يقدّم وداع قو وينتاي الفخم لشوانتسانغ مثالاً توضيحياً حياً عن متعدد استعمالات الحرير وانسياب النسيج غرباً في الألف الأول. من الراجح أن الكسوة الدينية التي أعطاها قو وينتاي لشوانتسانغ اشتملت على أردية مصنوعة من نفيس الحرير؛ من المحتمل أن بعض لباس الطقس البارد الذي ناله الراهب صُنع من أصناف من النسيج ذاته أكثر ثخانة (يمكنه، كما يعرف الذين يخيّمون، أن يكون كعازل فعال جداً). كانت اللفافات الخمسمئة لشوانتسانغ كالنقد. كان الغرض من اللفافات الأربع والعشرين من الحرير الرفيع الصنف التي ألحقت برسائل التعريف أن تكون أدوات دبلوماسية، تقوي علاقات قو مع نظرائه في دول الغرب. أخيراً، لا ريب في أن الخمسمئة لفافة من الحرير المرسلة إلى خان الأتراك الغربيين كانت من أشكال الأتاوة التي يدفعها تابعٌ لسيده.

الخان الأكبر للأتراك الغربيين

بعد مغادرة شوانتسانغ تورفان مضى قدماً مع فريقه من الرجال والحيوانات غرباً على طول الحدود الشمالية المقفرة لصحراء تكلاماكان. توقفوا في بضع واحات، ولا سيما قوتشا، المماثلة لتورفان في أهميتها كمركز للتجارة البعيدة المدى، وللعبادة البوذية. من واحة آقصو، الموقف الكبير التالي بعد قوتشا، انحرفت المجموعة انحرافاً حاداً نحو الشمال الغربي متوجهة نحو جبال تيانشان، السلسلة الشديدة الانحدار المكسوة قممها بالثلوج التي تحدَّت تحمُّل المسافرين آلافاً من السنين.

كان قطْع هذه الجبال واحدة من خبرات حياة شوانتسانغ الأكثر تعذيباً. يبين هويلي السبب:

«كانت الجبال منحدرة انحداراً خطيراً وسامقة حتى إنها بدت تلامس السماء. منذ خلق العالم، لم تزل مكسوة بالجليد والثلج، اللذين تراكما فتحولا إلى كتل متقطرة لم تذب قط في ربيع أو صيف. امتزج الضباب البارد مع السحاب امتزاجاً واسعاً، حتى إنه متى نظر المرء إلى فوق لم يرَ سوى البياض الشاسع بلا حدود. كانت القمم الجليدية التي علوها مئة قدم، أو عرضها عشرات الأقدام، قد تحطمت وانطرحت في عرض الطريق، فجعلت الممر الجبلي الوعر صعب الارتقاء. فوق هذا، لما كانت العصفات ترسل ندفاً من الثلج متطايراً، فإن المرء كان يرتعش في هبات الريح، رغم لبسه لنعلين مضاعفين ومعاطف ثخينة من فرو. في وقت الأكل أو النوم، ما من مكان جاف يُتوقَّف فيه. ما كان بوسع المرء سوى نصْب القِدْر لطبخ الطعام والنوم على الجليد».

أخذ الأمر من المجموعة سبعة أيام وهي تكافح حتى اجتازت سلسلة تيانشان. كان عدد الإصابات عالياً. ينبئنا هويلي أنه ما بين ٣٠ و٤٠ ٪ من الجماعة (عشرة إلى أربعة عشر رجلاً) ماتوا من البرد والجوع، وأن الخسارة بالحيوانات كانت أكبر من ذلك.

لما خرج الناجون من الجبال وجدوا أنفسهم على الشاطئ الجنوبي لبحيرة إيسّيك في ما هو اليوم قيرغيزستان. أتى بهم مسير بضعة أيام إلى طوقْموق، العاصمة الصيفية لبِهو خان، الخان الأكبر للأتراك الغربيين. قبل الانتقال إلى اللقاء بين شوانتسانغ وبِهو خان، لنقف وقفة خاطفة ونتفحص صعود الأتراك في آسيا الوسطى.

كان الأتراك رعاة من الأقوام الرحّل راكبي الخيول تجمعهم أشياء كثيرة مع من سبقهم في الأراضي المعشوشبة، السقوثيين والشيونغنو. مع رجوع أصولهم إلى إقليم جبال ألطاي، فقد أحرزوا السيطرة على أكثر آسيا الوسطى على نحو مباغت في أواسط القرن السادس. بحلول سنة ٦٠٠ وصلت حدود الإمبراطورية التركية من منغوليا في الشرق إلى البحر الأسود في الغرب، ما جعلها أكبر دولة للأقوام الرحّل تأسست حتى حينه.

لما كان الأتراك يفتقرون إلى الموارد للسيطرة على إمبراطوريتهم الشاسعة من مركز واحد، فقد شطروا أراضيهم شطرين. أدار الخانات من الفرع الأكبر للعشيرة الحاكمة، وقاعدتهم في منغوليا، الأقاليم الشرقية. كانت السيطرة على النطاق الغربي في أيدي حكام من الفرع الأصغر للعشيرة الحاكمة؛ أبقى هؤلاء الخانات مخيمات قاعدتهم في إقليم جبال تيانشان وقيرغيزستان.

كان يِهو خان (٦١٨-٦٣٠)، مضيف شوانتسانغ، واحداً من أكثر خانات الأتراك الغربيين إرعاباً. يبدو أن سلطته قد وصلت غرباً حتى جبال القوقاز. في أثناء حكمه، فتح الجنود الأتراك الغربيون أيضاً الإقليم الواقع جنوبي نهر جيحون، في ما هو اليوم شمالي أفغانستان، وهو الإقليم الذي مررنا عليه (باسم بكتيريا) في فصول سابقة. من المذهل أن الخان أقام علاقات دبلوماسية مع هرقل الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية وأباطرة تانغ في تشانغان، وكذلك مع دول عديدة أصغر منهما كتورفان.

يعطينا هويلي تصويراً ساحراً ليهو خان وبلاطه وجيشه:

«لبس الخان رداء من حرير أخضر، كاشفاً شعره، لابساً عمامة من حرير أبيض طولها عشر أقدام طوقت جبهته وتدلت وراء ظهره. أحاط به من الخدم أكثر من مئتي موظف، ضفروا جميعاً شعورهم ولبسوا أردية مطرزة. ارتدى جنوده جميعاً الفرو أو اللباد أو الثياب الصوفية الرائعة؛ وحملوا الحراب ورايات الجيش الكبيرة؛ أو حملوا الأقواس في أيديهم. كان فرسانه وخيولهم من الكثرة بحيث إنهم امتدوا حتى غابوا عن النظر....».

ينبئنا هويلي أن الخان رحب بشوانتسانغ في قصره النقّال، وهو خيمة عظيمة من اللباد ذات «زهور من الذهب مبهرة». داخل الخيمة، جلس الأتراك على وطاء مضاعف انبسط على الأرض، لكنهم قدموا لشوانتسانغ كرسياً من حديد تطوى. بحسب هويلي، كان الأتراك لا يستعملون الأثاث من خشب لأنهم كانوا من «عبدة النار» فاعتقدوا أن الخشب يحتوي عنصر النار.

سرعان ما ظهر الرسل من تايتسونغ وقو وينتاي وقدموا أوراق اعتمادهم للخان. بعد استقبال المبعوثين، أقام يهو خان وليمة فخمة. قدم الخمر للرسل ولحاشيته، وعصير عنب معد خصيصاً لشوانتسانغ. كذلك أمر الخان بالموسيقا أن تعزف. كانت استجابة شوانتسانغ لموسيقا آسيا الوسطى، التي كان لها حتماً وقعٌ مختلف جداً عما اعتاد عليه في الصين، فيها تفضيل على نحو ما. ها هو ذا هويلي:

«رنَّت موسيقا القبائل الغريبة وصلصلت في تآلف، ومع أن النغمات كانت أجنبية ويعوزها التهذيب، فقد كانت ممتعة تماماً للأذن ومبهجة للعقل».

بعد الكثير من شرب الأنخاب وتبادل الكؤوس ظهرت مقادير وفيرة من لحوم الأسماك والحملان والعجول. مراعاة لنباتية شوانتسانغ البوذية، هيَّأ الخان وجبة خاصة للراهب، فطائر محلاة ورزاً وزبدة وحليباً وسكراً وعسلاً وعنباً.

ينبئنا هويلي أنه بعد الوجبة، ورغم ممارسة «عبادة النار»، سأل يهو خان شوانتسانغ أن يلقي موعظة. أقرَّ الراهب، عبر مترجم، بالفضل عليه. اختار شوانتسانغ موضوعه تعليم الماهايانا في السلوك الشخصي المعروف بالأعمال الصالحة العشرة. في الواقع، يحضُّ هذا التعليم، وهو قائمة بمحرمات لا «بأعمال صالحة»، المؤمنين على ١- ألا يقتلوا، ٢- ألا يسرقوا، ٣- ألا يدخلوا في ممارسات جنسية غير مشروعة، ٤- ألا يكذبوا، ٥- ألا ينطقوا بكلام غليظ، ٦- ألا ينطقوا بكلام يحدث عداوة بين الناس، ٧- ألا يدخلوا في حديث تافه، ٨- ألا يكونوا جشعين، ٩- ألا يغضبوا، ١٠- ألا يتخذوا آراء باطلة.

بحسب هويلي لما انتهى شوانتسانغ من محاضرته، فإن يهو خان «انحنى وقبل مبتهجاً التعاليم بإخلاص». مع أن هويلي هو مصدرنا الوحيد لهذا المنظر الصارخ، وفيه خضع زعيمٌ من القوم الرحّل عابد للنار، لرسول اللاعنف من رسل البوذية، فإنه ربما حصل فعلاً. إن كثيراً من أقوام آسيا الوسطى الرحّل الذين اجتاحوا شمالي الصين بعد انهيار سلالة هان قد انشدّوا إلى البوذية لأسباب سياسية. لعل تقبّل يهو خان الظاهر لرسالة شوانتسانغ في اللاعنف

كان له جذر ضارب في رغبة الخان في حسن العلاقات مع الصين، التي ظل رسله يطلعونه عليها اطلاعاً جيداً، وحيث كانت البوذية في صعود. توحي أطلال معبدين بوذيين عظيمين عُثر عليها بالقرب من طوقموق إلى أن البوذية، وبغض النظر عن راسخ اعتقادات الخان، كانت وطيدة في المنطقة في ذلك الوقت.

مثل قو وينتاي، حاول يهو خان ثني شوانتسانغ عن عزمه لما أعلن الراهب عن خطته بمتابعة مسيره. إذ فشل الخان في مسعاه، فقد قدّم للراهب هدايا وداعية من الحرير: مجموعة من الأردية الدينية مصنوعة من حرير الدمقس الأحمر وخمسين ثوباً[1] من الحرير النفيس. أضف إلى ذلك أن الخان عيّن شاباً عاش في العاصمة الصينية بضع سنين مترجماً رسمياً لشوانتسانغ. كلّف المترجم بكتابة رسائل تعريف إلى البلدان الواقعة أمام شوانتسانغ وبمرافقة الراهب حتى كابيسا، بالقرب من كابول الحالية في أفغانستان، وهي الحد الجنوبي لسلطة الخان.

في صُغْديا وبكتيريا

فارق شوانتسانغ وجماعته خان الأتراك الغربيين واتّبع مسلك القوافل الأعظم الذي يمضي جنوباً فغرباً حتى سمرقند في ما هو اليوم أوزبكستان. منعطفين جنوباً، اجتازوا الممر المعروف بالبوابة الحديدية، فعبروا نهر جيحون، ودخلوا ما هو اليوم أفغانستان (بكتيريا). في حركة المسافرين خلال أفغانستان، توقفوا في مدن القوافل قندوز وبلخ وباميان وكابيسا. بوصول شوانتسانغ وجماعته إلى كابيسا وصلوا إلى حدود الهند. قبل المزيد من تتبّع الراهب جنوباً لنقف فنتفحص المسلك الذي اتبعه خلال صُغْديا وبكتيريا، في مسير طوله نحو ألفِ ميل.

---

(١) قطعة طولها ٤٠ ياردة – المترجم.

مررنا على هذين الإقليمين قبلاً مرتين، في الفصلين الثالث والرابع. كما رأينا في الفصل الثالث، أمضى الإسكندر الأكبر بضع سنين فيهما في عشرينيات القرن الرابع قبل الميلاد. في الفصل الرابع، رأينا كيف سافر تشانغ تشيان إلى صُغْديا وبكتيريا في عشرينيات القرن الثاني قبل الميلاد، وعاد إلى بلاده بالأخبار عن الإقليم وأراضيه المعشوشبة الناضرة وتجارته النابضة بالحياة.

بحلول الوقت الذي اجتاز فيه شوانتسانغ هذين الإقليمين، كانت التجارة قد ازدادت ازدياداً عظيماً. كانت المدن التي زارها عناصر رئيسية من عناصر شبكة مدن طرق الحرير التي ازدهرت بعد رحلة تشانغ تشيان. إخبار شوانتسانغ هو عون لنا على فهم هذا التطور. هاهو ذا الراهب يتحدث عن سمرقند:

«سمرقند بلاد محيطها ستمئة أوسبعمئة لي (٥٠٠ إلى٦٠٠ ميل) متطاولة من الشرق إلى الغرب وضيقة من الجنوب إلى الشمال. محيط العاصمة [واسمها سمرقند أيضاً] عشرون لياً، بل أكثر، وهي معقل لا يتزعزع، عدد سكانها كبير جداً. البضائع النفيسة من بلدان شتى كثيرة تُخزَّن هنا. التربة غنية وخصبة، وأصناف المحاصيل كلها مستزرعة. الأشجار والغابات وافرة النماء تحمل أزهاراً وثماراً وفيرة. تُخرج هذه البلاد خيولاً حسنة كثيرة، وحرفيوها الماهرون من خير الحرفيين بين شتى البلدان».

كذلك يزودنا شوانتسانغ بمعلومات عن أهمية البوذية في صغديا وبكتيريا. بسبب وصوله قبيل فتح الإقليمين من الجيوش العربية الإسلامية، فإن ملاحظته في ما يتعلق بقوة البوذية مهمة. إنه يمكّننا من معرفة أن معظم آسيا الوسطى، التي سرعان ما ستصبح جزءاً من العالم الإسلامي، كانت لا تزال بوذية في أوائل القرن السابع.

ملاحظاته عن الأحوال في بلخ وباميان وكابيسا أمثلة إيضاحية على أهمية البوذية. في بلخ، حيث تزوج الإسكندر أميرة بكتيرية، وجد شوانتسانغ ما يزيد على ٣٠٠٠ راهب بوذي وأكثر من مئة دير. ينبئنا أن الرهبان في بلخ لم

يكونوا من أتباع الماهايانا، وإنما انتسبوا إلى مدرسة في البوذية أقدم عهداً وأكثر محافظة تدعى تيرافادا (حرفياً: «عقيدة الشيوخ»). مع أن صيغة تيرافادا من البوذية لم تحرز تقدماً كبيراً في بلدان شرقي آسيا، فإن شوانتسانغ وجد الكثير من جماعات رهبان تيرافادا في آسيا الوسطى، حيث عاشوا على ما يبدو في وفاق مع خصومهم من الماهايانا.

خارج بلخ، وجد شوانتسانغ بضعة أديرة بوذية كبيرة، ما يشيرإلى أن بوذية آسيا الوسطى كانت مهمة في البقاع الريفية كأهميتها في المدن. إلى الجنوب الغربي من المدينة زار ديراً كان مركزاً بارزاً للدراسات البوذية. كانت في الدير، ويعرف بالدير الجديد، قاعات مزخرفة «بأشياء ثمينة» وتمثال لبوذا محلَّى «بالجواهر المشهورة». من الظاهر أن الدير الجديد، الذي كان مقصداً مهماً للحجاج، كان أيضاً محلاً لمجموعة من الذخائر المقدسة البوذية، التي يعتقد المؤمنون أنها تشتمل على سنٍّ لبوذا واثنين من الأدوات التي يُعتقد أنه قد استعملها، وهي طست للغسل ومكنسة. كانت هذه هي الأولى من ذخائر مقدسة بوذية كثيرة رآها شوانتسانغ بعد ذلك في مسيره.

شمالي بلخ، رأى شوانتسانغ اثنتين من الاسطبات[1] البوذية الكبيرة، ارتفاع كل منها أكثر من ثلاثين قدماً، شيدت لتكريم اثنين من التجار المحليين يُعتقد أنهما من أوائل تلاميذ بوذا. بحسب التراث المحلي، لما كان بوذا على وشك إلقاء أولى عظاته قاطبة بالقرب من المدينة الهندية فاراناسي، عرض عليه تاجران بلخيان طعاماً في صورة حبوب محمصة وعسل. ليعبر بوذا عن شكره، أمضى وقتاً يلقي على التاجرين إرشاده بتعاليمه الأساسية، وهي المبادئ الخمسة والأعمال الصالحة العشرة. ثم إنه أرسلهما إلى ديارهما ببعض من شعره وأظافره، مع توجيهات بتشييد صرح من نمط نصف كروي ليضم الذخائر. عند البلخيين، كان هذا المشهد أول اسطبة بوذية، لهذا فهو مصدر فخر محلي عظيم (ودخلٍ من الحجاج).

---

(١) الاسطبة: برج بوذي على هيئة هرم أو قبة – المترجم.

شوانتسانغ هو مصدرنا الوحيد عن لقاء بين بوذا والتاجرين البلخيين، وعن أصل الاسطبة البوذية. مع أنه لا يمكن إثبات هذه القصة الآسرة، فمن الواضح أن المسافرين التجار كانوا مهمين في نشر البوذية من الهند. من الراجح أن في حكاية التاجرين البلخيين نسخةً مشخصنة من سيرورة تاريخية متطاولة تشتمل على عدد من التجار طوال قرون كثيرة.

القصة مثيرة للاهتمام أيضاً بسبب أنها تلفت عنايتنا إلى الطريقة التي أدخلت فيها على رسالة بوذا الزهدية في أصلها تعديلاتٌ بعد موته. بالتدريج، اتصل تلامذته بتقاليد في المحبة الدينية أقدم عهداً وتشرَّبوها، وهو تطور فتح الطريق على تعظيم النتف من جثمانه المحروق في بنى تشيّد لاحتوائها. لما أخذت الاسطبات تجذب الحجاج، وجد الرهبان، الممنوعون من العمل اليدوي، متبرعين يساندون أنشطتهم المتنوعة.

قاد المسلك من بلخ إلى الجنوب شوانتسانغ نحو جبال هندو كوش شديدة الانحدار، والمكسوة بالثلوج، حيث كان السفر، بحسب هويلي، أصعب منه في سلسلة تيانشان. عند أصل جبال هندو كوش بلغ شوانتسانغ وادي باميان حيث وجد «بضعة آلاف» من رهبان تيرافادا يعيشون في كهوف صخرية، وتمثالين عظيمين لبوذا. ها هو ذا وصف شوانتسانغ:

«إلى الشمال الشرقي من المدينة الملكية، عند زاوية الجبل تمثال صخري لبوذا منتصب، ارتفاعه مئة وأربعون أو مئة وخمسون قدماً، بلون ذهبي مبهر ومحلًّى بالجواهر البراقة. إلى الشرق ديرٌ بناه أحد ملوك البلاد الماضين. إلى الشرق من الدير تمثال نحاسي لبوذا منتصب، طوله أكثر من مئة قدم. صُبَّ التمثال قطعاً منفصلة ثم لُحِمت بعضها مع بعض فكوَّنت التمثال».

كان شوانتسانغ في المرحلة المشار إليها في حضرة تمثالين لبوذا هما أعظم ما نحت البتة. لقد أخطأ، لأسباب تبقى غير واضحة، في أمر «النحاس» المستعمل في بوذا الأصغر. التمثالان كلاهما اقتطعا من الجرف ذي الصخر

الرملي المهيمن على الموقع نحو آخر العصر الكلاسيكي. لعل رقاقات الذهب والطلاء البراق الذي زيّن يومئذ سطوح صورتي بوذا الضخمتين هما السبب في اختلاط الأمر على شوانتسانغ. أو لعل أحد الرهبان المحليين قال له إن التمثال الأصغر مصنوع من نحاس.

عند باميان انعطف شوانتسانغ شرقاً وأخذ طريقه عابراً هندو كوش إلى كابيسا (اليوم باغرام)، وهي مركز أساسي للتجارة البعيدة المدى وعاصمة صيفية سابقة لكانيشكا (حكم ٧٨-٩٦م)، وهو ملك كوشانا ونصير للبوذية. يمكّننا شوانتسانغ من رؤية أن مساعي كانيشكا في سبيل البوذية قد أحدثت نتائج دائمة. ينبئنا الراهب أن الملك الحالي، ومن الراجح أنه سليل أحد فروع قبائل الهون، كان شديد الحب لتعاليم بوذا حتى إنه كان يصنع كل سنة «صورة فضية لبوذا ارتفاعها ثماني عشرة قدماً». كان في العاصمة أكثر من مئة دير وأكثر من ٦٠٠٠ راهب من الماهايانا.

ينبئنا شوانتسانغ أنه كان في الريف المحيط ما لا يقل عن ستة أديرة كبيرة، كان أكثرها على ما يبدو مقصداً مهماً للحجاج. احتوى اثنان من الأديرة الريفية على ذخائر مهمة لبوذا، بالتحديد: سنّ وضفيرة شعر وعظمة من جمجمته. يُظهر دير آخر منها، وشيّد على يد الملك كانيشكا، بشكل بارز اسطبة يزيد طولها على مئة قدم. أطلت اسطبة مصنوعة من النحاس المحلَّى بالذهب، كذلك يبلغ ارتفاعها مئة قدم، على المساحة المحيطة بواحد آخر من الأديرة. تعزيزاً لهذه الصورة من الحضور البوذي القوي في آسيا الوسطى، يخبرنا شوانتسانغ أن اسطبة كبرى ثالثة، وتنسب إلى الإمبراطور الهندي أشوكا (٢٦٨-٢٣٢ قبل الميلاد)، قد استقرت على قمة جبل واقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة.

دلت اسطبة أشوكا شوانتسانغ على أنه كان يقترب من الهند. كذلك فعَلَ حضور جماعات من النسّاك الجاينيين والهندوس في كابيسا. كانت المقابلة الأولى لشوانتسانغ مع الجاينيين والهندوس صدمة له:

«هاهنا أكثر من عشرة من معابد ديفا [معابد هندوسية أو جاينية] فيها أكثر من ألف مؤمن من الهراطقة، يمشون إما عريانين أو ملطخين أجسادهم بالغبار [روث البقر؟]؛ يضع بعضهم عقداً من الجماجم حلية للرأس».

دخول الهند: غاندارا وكشمير

يعرّف شوانتسانغ قُرَّاءه بالهند من خلال وصف عام شامل للثقافة والحياة الاجتماعية والممارسات الاقتصادية والمؤسسات السياسية الهندية. لعمل هذه التحفة الوجيزة في الكتابة الإثنوغرافية، من الراجح أنه اعتمد على أعمال العلماء الهنود، وكذلك ملاحظاته الخاصة به. في هذه الصفحات، التي تظل في يومنا هذا تعريفاً قيماً بالهند في القرن السابع، نجد أوصافاً لنظام الطبقات والأديان واللغة ونظام الكتابة والمدن والهندسة المعمارية الداخلية والأزياء والحلي الشخصية والتربية والإدارة الحكومية والقضايا العسكرية والقوانين والضرائب وممارسات الدفن والزراعة والممارسات الغذائية وأمور الصحة الشخصية.

بالنسبة إلى شوانتسانغ، ابتدأت الهند في ما هو اليوم أفغانستان واشتملت على شمالي باكستان (غاندارا عند الفرس والإغريق). لقد أعلى كل من أشوكا وكانيشكا من شأن البوذية هنا برعاية تشييد الأديرة والاسطبات الكثيرة. إبَّان حكم كانيشكا أصبحت غاندارا أول مركز كبير للنحت البوذي.

في أثناء مرور شوانتسانغ خلال غاندارا وجد أن المنطقة قد كانت مركزاً كبيراً للمرويات والذخائر البوذية. مع قوة عقل شوانتسانغ وعلمه الواسع، آمن بالحوادث ما وراء الطبيعة والمعاجز. في ناغاراهارا (هي اليوم جلال آباد في أفغانستان) دخل مغارة تدعى كهف الظل، المشهورة بسبب واسع الاعتقاد بأن بوذا قد حل هناك ذات مرة في زيارة ماورائية ثم غادر تاركاً ظله. على مثال الكثير من نظراء شوانتسانغ من أهل الأديان، لقد خرج من الكهف مؤمناً أن صلواته قد استُجيب لها وأنه رأى ظل بوذا. بالقرب من هناك، زار اسطبات يُعتقد أنها تحتوي قطعاً من جمجمة بوذا وإحدى حبتي عينيه، وكانت «بحجم التفاحة البرية».

لما كان شوانتسانغ في غاندارا رأى أيضاً أدلة كثيرة على تخريب للأبنية البوذية، ولا سيما الأديرة. كانت الهجمات على الأديرة بحسب أكبر الاحتمالات هي من عمل أحد فروع الهون، وهم الأقوام الرحل الرعويون الذين حكموا المنطقة نحو قرن، ابتداءً من سنة ٤٥٠. توضح ملاحظات شوانتسانغ عن الأديرة المخربة في غاندارا أن انحطاط البوذية، على الأقل في هذه المنطقة، كان واقعاً جداً لما بدأت الجيوش العربية الإسلامية تصل في أثناء النصف الثاني من القرن السابع.

في كشمير، المنطقة شرقي غاندارا، وجد شوانتسانغ نفسه في مركز آخر للثقافة البوذية. ينبئنا أنه كان في هذه الناحية أكثر من ١٠٠ دير وأكثر من ٥٠٠٠ راهب. كان ما لا يقل عن واحد من الأديرة الكشميرية مركزاً كبيراً للعلوم البوذية، يجذب العلماء- الرهبان من المناطق الأخرى. كذلك، كانت كشمير موطناً لأربع اسطبات كبيرة شيدها أشوكا، يعتقد أن كلاً منها يحتوي مقدار باينت(١) من عظام بوذا.

رحب الملك الكشميري بشوانتسانغ في عاصمته الواقعة على شاطئ بحيرة دال بالقرب مما هو اليوم سريناغار. أثارت معرفة شوانتسانغ بالبوذية إعجاب الملك فأمدّ الراهب بعشرين من النساخ لمساعدته في أخذ النصوص، وخمسة من الخدم للقيام بحاجاته الشخصية.

ظل شوانتسانغ في كشمير طوال السنتين التاليتين. درس في ذلك الوقت على عالم بوذي بارز اسمه سامغاكيرتي، علّمه بضع «ساسترات» (رسائل للماهايانا) أساسية. لعله قد درس السنسكريتية في هذه المرحلة. من المحتمل أيضاً أن شوانتسانغ قرر أخذ إقامة طويلة في كشمير، السبب في ذلك، جزئياً، هو الجمال الطبيعي الاستثنائي للمنطقة. بعد سنتين على الطريق، اجتاز

(١) يعادل الليتر الواحد ٧٦.١ باينت - المترجم.

فيهما شوانتسانغ سلسلتين من أكثر سلاسل الجبال في العالم هولاً، لعله كان راغباً في استراحة طويلة. وهل من مكان لفترة راحة أفضل من بحيرة دال؟.

على خُطى بوذا

بعد مغادرة كشمير، أمضى شوانتسانغ السنوات الأربع التالية مرتحلاً خلال شمالي الهند، وكان يومئذ تحت حُكم الملك هارشا فاردانا (حكم ٦٠٦-٦٤٧). معتمداً على التقليد البوذي الراسخ في كرم الضيافة للمسافرين، نزل شوانتسانغ في العديد من الأديرة المحلية. لم تجر الأمور كلها على ما يرام. لقد سلبته قطاع الطرق مرتين؛ نجا من القتل في الحادثة الثانية بشق الأنفس. استمر شوانتسانغ، المرن دائماً وأبداً، في المضي قدُماً. دامت بعض وقفاته في الأديرة أشهراً كثيرة. استعمل هذه الانقطاعات لمزيد دراسة للنصوص البوذية الأساسية، واشتملت أحياناً على كتابات بارزة لتيرافادا.

سنة ٦٣٧، بعد ثماني سنوات من انطلاق شوانتسانغ من تشانغان، وصل إلى مقصده. كان في المرحلة المشار إليها في الأجزاء المستقيمة الوسطى من نهر الغانج، وهي الناحية التي تقع فيها الأماكن الأربعة الأكثر قداسة عند البوذيين. يقع أحد هذه المواقع، وهو موضع مولد بوذا، في ما هو اليوم نيبال. الثلاثة الأخرى - الأماكن حيث نال بوذا التنوّر، وحيث ألقى أولى عظاته، وحيث مات - هي في الهند. طوال السنوات الخمس التالية بقي شوانتسانغ في هذه المنطقة، ماشياً على خطى بوذا.

لا ريب في أن أبرز ما في إقامته المديدة في الأرض المقدسة البوذية كان الوقت الذي أمضاه بالقرب من شجرة بودي (التنوّر)، وهي البقعة التي هي عند البوذيين علامة مركز الكون. بحسب التقليد البوذي (الذي قبِل شوانتسانغ بصحته)، نسلت الشجرة التي رآها في ثلاثينيات القرن السابع، بالقطع، من الشجرة التي نال بوذا التنوّر تحتها قبل ذلك بـ ١١٠٠ من السنين. ينبئنا هويلي أن الشجرة لما رآها شوانتسانغ كانت بطول خمسين قدماً تقريباً، ذات لحاء

أبيض مصفرّ وأوراق خضر ملساء. تبدو الشجرة التي تنشر أغصانها فوق هذا الموقع اليوم، وربما هي فرعة من قَطعات أقرب عهداً، مثل ذلك على نحو كبير.

وصْفُ هويلي لزيارة شوانتسانغ لشجرة بودي مشحون بالعاطفة:

«عند وصول المعلم [شوانتسانغ] إلى هناك، تعبّد لشجرة بودي ولصورة بوذا، وهو ينال التنوّر، التي صنعها مايتريا بوديساتفا. بعد أن نظر إلى الصورة بإخلاص عميق، سجد أمامها وأسِف بحزن قائلاً يؤنب نفسه: 'لا أدري أين كنت مولوداً في مجرى التناسخ لما نال بوذا التنوّر. الذي أمكنني إنما هو المجيء إلى هنا في هذا الوقت، آخر عصر الصورة. إنه ليجعلني أعتقد أن عوائقي الكارْمية[١] كانت حتماً ثقيلة جداً! كان يقول هذا وقد اغرورقت عيناه بدموع الحزن».

أمضى شوانتسانغ ثمانية أيام أو تسعة في الجوار المباشر لشجرة بودي، حيث كان يقع العديد من المواقع المقدسة الأخرى (كما هو الحال اليوم). لما تصادفت زيارته مع نهاية الاعتكاف الصيفي الديراني، كان في الناحية أيضاً بضعة آلاف من الرهبان الآخرين.

من شجرة بودي، سافر شوانتسانغ ستين ميلاً إلى جامعة نالاندا، المجمع الكبير من المعابد والأبنية الديرانية والذي كان يجذب العلماء من كل أرجاء العالم البوذي. ينبئنا هويلي أنه كان في وقت زيارة شوانتسانغ ١٠٠٠٠ راهب وستة أديرة منفصلة في حرم الجامعة، وهي التي بقاياها مفتوحة اليوم للزائرين. من الراجح أن أباطرة غوبتا، حكام الهند من سنة ٣٢٠ إلى نحو سنة ٥٥٠، هم مؤسسو الجامعة. لدعم أنشطة الرهبان، فرض حكام غوبتا وخلفاؤهم، ومنهم الملك هارشا، الضرائب على المزارعين المحليين. لما كان شوانتسانغ في نالاندا،

---

(١) نسبةً إلى كارْما وهو الاعتقاد بأن لكل عمل قصدي جزاء ولو في بدن آخر – المترجم.

كان المزارعون يأتون عند بوابة الدير يومياً بعربات محملة بالرز والزبدة والحليب.

يصف هويلي مباني نالاندا والمساحات المحيطة بها بأنها جذابة على نحو استثنائي. هاهو ذا وصفه للمساكن الديرانية:

«حجرات الرهبان كلها في شتى الأقسام هي من أربعة طوابق. الروافد الأفقية في أعلى السقف محفورة بصور تنانين صغيرة، والدعامات الأفقية مطلية بكل ألوان قوس قزح، وسنادات الدعامات الخضر متباينة مع الأعمدة القرمزية. في أعمدة المدخل والدرابزونات نقوش تزيينية وحلي محفورة مجوفة. الأجزاء السفلى المربعة من قواعد الأعمدة مصنوعة من اليشب ورؤوس العوارض السقفية محلاة بالرسوم. حروف السقوف انتصبت عالية في ضوء الشمس، والأفاريز اتصلت بحبال تدلت منها أعلام مثلثة حريرية ملونة».

* * *

أثار جمالُ المجمع الديراني إعجابَ شوانتسانغ، بيد أنه كان قد شدّ إلى نالاندا لأنه المركز صاحب الصدارة في المعرفة البوذية في القرن السابع. إن المكتبةَ الضخمة، والهيئةَ التدريسية التي تضم ألفين من العلماء، وجذْبَ العلماء من الخارج قد جعل من نالاندا الخَلَف الآسيوي الجنوبي للمكتبة اليونانية-الرومانية و«الحوض الفكري» اللذين ازدهرا في الإسكندرية في أثناء العصر الكلاسيكي.

يبدو أن أكثر الرهبان المقيمين في نالاندا كانوا طلاباً أتوا للدراسة على علماء معلمين من مثل الراهب المسنّ سيلابهادرا، الذي أصبح راعياً لشوانتسانغ. ينبئنا هويلي أن الطلاب كانوا يحضرون كل يوم مئات المحاضرات يلقيها الخبراء في تعاليم ماهايانا وتيرافادا. كذلك نعلم من هويلي أن مقررات نالاندا قد اشتملت على دراسة كتب فيدا الهندوسية والمنطق وقواعد السنسكريتية والطب والعرافة. بالنسبة لعالم مثل شوانتسانغ، كان الوصول إلى نالاندا قد بدا حتماً فيه شيء من الشبه بدخول نيرفانا.

حظي شوانتسانغ بترحيب الرهبان وجعل من نالاندا قاعدته طوال بضع سنين تالية. بحسب هويلي، كان المضيفون الرهبان كرماء في تزويده بما يحتاج. كان للراهب النموذجي في نالاندا خادمان من العوام؛ أعطي شوانتسانغ عشرة. أضف إلى ذلك أنه نال مخصصات يومية هي ١٢٠ ورقة فَوْفَل (مخدر ضعيف)، وعشرون جوزة أريقا، وعشرون جوزة طيب، وأونصة بخور، وباينت رز غير دبق، وما يطلبه من الزبدة والحليب. كذلك نال مدداً شهرياً من الزيت النباتي (للطبخ والإضاءة) مقداره ثلاثة باينتات.

في السنوات التي أمضاها شوانتسانغ في نالاندا كرَّس نفسه على نحو أساسي لدراسة التعاليم الكبرى لماهايانا وتيرافادا. مثل البوذيين في كل مكان في الوقت المشار إليه، كان علماء نالاندا يؤكدون أهمية التعلّم من المحاضرات لا من دراسة النصوص المكتوبة. من الواضح أن شوانتسانغ قد اكتسب الكثير من محاضرات أستاذه الكبير، سيلابهادرا. لكن شوانتسانغ انشدّ أيضاً إلى مكتبة النصوص البوذية (المكتوبة باليد على قشر البتولا وجريد النخل) التي ضمها الدير. لما كانت هذه الكتابات بالسنسكريتية، فقد جعل إتقان هذه اللغة الهندو أوروبية أحد أهدافه الأساسية في أثناء إقامته في نالاندا. كان للفصاحة بالسنسكريتية أن تمكّنه من أن يعمل نُسَخاً دقيقة من النصوص الأساسية وأن يشرع، حال رجوعه إلى تشانغان، في العمل على ترجمتها إلى الصينية. ينبئنا هويلي أنه بحلول وقت مغادرة شوانتسانغ لنالاندا كان «ضليعاً تماماً بهذه اللغة، ويستطيع التحدث مع أهل تلك البلاد بطريقة علمية، بأناقة عظيمة».

لقاء الملك هارشا

نال شوانتسانغ الكثير في أثناء سنواته التي أمضاها في الأرض المقدسة البوذية. لقد تعبّد عند شجرة بودي وكثير سواها من المواقع المقدسة عند البوذيين. في نالاندا أثرى كثيراً معرفته الكبيرة أصلاً بالتعاليم البوذية، وأتقن السنسكريتية، وحصل على نسخ من سوترات وساسترات كثيرة. هل حان الأوان الآن للعودة إلى الصين؟ كان الجواب عند شوانتسانغ هو لا.

بدلاً من أن يعكس شوانتسانغ وجهة خطاه ويتوجه عائداً إلى تشانغان، فقد قرر استكشاف شرقي الهند وجنوبيها. تبقى أسبابه لفِعْل ذلك ضرباً من اللغز. يبدو أن جزءاً من التفسير هو رغبته في زيارة المملكة الجزيرة سريلانكا، المركز الكبير لبوذية تيرافادا. لكن لما وصل شوانتسانغ إلى جنوبي الهند، ربما إلى مدينة كانتشيبورام، قابل رهباناً سريلانكيين أخبروه أن بلادهم يمزقها الصراع السياسي وينبغي للمسافرين أن يجتنبوها. ثم إن شوانتسانغ انعطف شمالاً فغرباً واتبع مساراً متعرجاً أرجعه في آخر الأمر إلى نالاندا. مع أن تفاصيل هذه «الرحلة الجانبية» التي قام بها إلى جنوبي الهند لا يمكن توثيقها، فمن المحتمل أنه غطى في هذا القسم من مسيره نحو ٣٠٠٠ ميل.

كانت زيارة شوانتسانغ الثانية إلى نالاندا هي المناسبة التي أخذ يستعد فيها للعودة إلى الصين. لكن مغادرته أُخرت. أولاً، أصرَّ كومارا ملك آسّام، التي تقع عاصمتها إلى الشرق من نالاندا بستمئة ميل، على زيارة شوانتسانغ له. بعد ذلك، وبينما كان شوانتسانغ في آسّام، استدعي إلى المقر المؤقت للملك هارشا على الأجزاء المستقيمة الشرقية من نهر الغانج. لما كان الملك هارشا الحاكم على معظم شمالي الهند، فإن هذه «الدعوة» الثانية كان يصعب جداً تجاهلها. حشد كومارا أسطولاً صغيراً من القوارب النهرية وواكب شوانتسانغ صاعداً نهر الغانج.

لما وصل شوانتسانغ وكومارا إلى المكان المعيّن للقائهما مع هارشا، لم تكن علامة على مضيفهما. كان هارشا يدرك أهمية الدخول في وقت حسن وبحركات معدة ومرتبة على نحو حسن فظهر بعد حلول الليل. هاهو ذا وصف هويلي:

«أخبر بعضهم قائلاً: «تلتهب بضعة آلاف من المشاعل والشموع على النهر وتُسمع جَلبة الطبول المنظِّمة للخُطى». قال الملك [كومارا]: «هذا حتماً الملك هارشا قادماً». ثم إنه أمر بإيقاد الشموع، وذهب شخصياً مع وزرائه مسافة طويلة للترحيب به.

كلما خرج الملك هارشا، كانت تُضرَب دائماً بضع مئات من الطبول المعدنية ضربة واحدة لكل خطوة يمشيها. يُعرف هذا بضرب الطبول الإيقاعية المنظِمة للخُطى. للملك هارشا وحده هذا الامتياز.... عند وصوله تعبّد عند قدمي المعلم [شوانتسانغ]، ونثر الزهور، ونظر إليه بتعظيم.....».

مع أن هارشا كان انتقائياً على نحو ما في أمور الدين، فلقد كان وضع الخطة من زمان بعيد لرعاية مجمع / مناظرة علنية كبرى في عاصمته في كاناوْج تشهد على نحو بارز محاضرةً يلقيها شوانتسانغ. كانت نية الملك الظاهرة هي منح شوانتسانغ فرصة للبرهان على تفوّق تعاليم ماهايانا التي يحملها على أفكار جميع المجموعات الدينية الأخرى، بوذية وغير بوذية.

كان ممثلو تقاليد الهند الدينية الكبرى، ومعهم حكام إقليميون شتى، سيُدعَون إلى كاناوْج لسماع المحاضرة. كان المشاركون في اللقاء الذي يختلفون مع أفكار شوانتسانغ سيعطَون خمسة أيام لتقديم نقائضهم. بعد مهلة إضافية مدتها ثلاثة عشر يوماً يُعلَن الفائز. بعد أن شرح هارشا خطته لشوانتسانغ، أصدر الدعوة للاجتماع. ثم إن الملك والراهب أبحرا صاعدين الغانج إلى كاناوج.

في خبر هويلي كان المجمع في كاناوج أمراً فخماً. كان في الحاضرين ثمانية عشر من ملوك المناطق، و٣٠٠٠ من علماء ماهايانا وتيرافادا الديرانيين من أرجاء الهند، و١٠٠٠ راهب من نالاندا، و٢٠٠٠ من البراهمة والجاينيين. عقدت الاجتماعات في قاعتين كبيرتين مسقوفتين بالقش والقصب شيدهما هارشا لأجل المناسبة. كانت الجلسات تبدأ كل يوم بموكب ملون على رأسه فيل يحمل تمثالاً لبوذا من ذهب. كان هارشا وكومارا، وقد لبسا بصورة الإلهين الهندوسيين إندرا وبراهما، يواكبان الفيل المقدَّم. ها هو ذا وصف هويلي للموكب اليومي:

«لبس كلٌّ منهما [هارشا وكومارا] تاجاً سماوياً وإكليلاً وتحلّيا بعقدين من اللؤلؤ وأقراط من اليشب. حمل فيلان آخران بسرجين مزركشين الزهور الثمينة وسارا خلف صورة بوذا؛ نثرت الزهور بينما الفيلة تسير في الموكب على طول

الطريق. طُلِب إلى المعلم وأساتذة الملك أن يركبوا فيلة مختلفة سارت في إثر الملك في الموكب. رُتِّب أيضاً ثلاثمئة فيل لركوب ملوك البلدان المختلفة والوزراء والرهبان ذوي المناقب العظيمة.....».

لما كان عدد الحاضرين في كل جلسة كبيراً جداً، فقد اضطر شوانتسانغ إلى استعمال بضع طرق لتقديم أفكاره. ألقى محاضرته من على كرسي خاص على المنصة، لكن من الراجح أن أقواله إنما كانت مسموعة فقط لجزء صغير من المجتمعين. للذين كانوا بعيدين جداً بما لا يمكنهم سماعه، قرأ راهب من نالاندا نسخة مكتوبة من المحاضرة. أضف إلى ذلك أن نسخة ثانية مكتوبة من المحاضرة قد عُلقت خارج بوابة القاعة للجميع لقراءتها.

لم تُقدَّم نقائض من المجتمعين في أثناء الأيام الخمسة التي ألقى فيها شوانتسانغ محاضرته أو في أيام المهلة الثلاثة عشر التي تلت ذلك. لكن هويلي ينبئنا أنه بعد أن أتمّ شوانتسانغ محاضراته، حاولت زمرة من رهبان تيرافادا و«الهراطقة» (هندوس أو جاينيين) قتله. في نسخة شوانتسانغ من الحادثة ذاتها، أضرمت زمرة من البراهمة النار في أحد المباني ثم حاولت اغتيال هارشا. يمكننا الاستنتاج من هذين الخبرين أنه كانت على الأقل معارضة لأفكار شوانتسانغ، لكن الخشية من هارشا جعلت من المستحيل التصريح بذلك في المناظرة.

أُعلن فوز شوانتسانغ في «المناظرة» وقُدّمت له هدايا كثيرة من هارشا والملوك الإقليميين الثمانية عشر. لم يقبل أياً منها. هل كانت لديه شكوك في أسباب «انتصاره»؟ لا ندري. على كل حال، ألح هارشا على شوانتسانغ فأقنعه بمرافقته إلى «موقع إعطاء الصدقات»، وهو موضع قائم بالقرب من التقاء نهري الغانج وجامونا، حيث خطط الملك للإشراف على أحد المراسم الاستثنائية. كل خمس سنين كان هارشا يدعو رعاياه إلى هذه البقعة كي يمنحهم ثروته (ثم يستردها عاجلاً). أخّر شوانتسانغ موعد مغادرته إلى الوطن مرة أخرى وانضم

إلى هارشا لأجل مراسم إعطاء الصدقات. رحل والملك إلى المراسم بصحبة الحكام الثمانية عشر الآخرين الذين شاركوا في مجمع كاناوج.

ينبئنا هويلي أنه لما وصل هارشا وصحبه إلى موقع إعطاء الصدقات وجدوا أكثر من ٥٠٠٠٠٠ راهب وعامّي بانتظارهم. حفلت الحوادث بالمراسم واستغرقت شهرين ونيف لإتمامها. هاهو ذا هويلي متحدثاً عن الأيام الأربعة الأولى:

«في اليوم الأول نصبت صورة بوذا في قاعة الكوخ المسقوف بالقش في موقع إعطاء الصدقات، فقُدِّمت إليها النفائس والأردية [التي لهارشا] وكذلك الأطعمة اللذيذة. عزفت الموسيقا ونثرت الزهور إلى حلول الليل حين رجع المتحمسون إلى مخيماتهم. في اليوم الثاني، نُصبت صورة إله الشمس [الهندوسي]، فقُدِّم إلى هذه الصورة نصف مقدار النفائس والأثواب الذي قُدِّم في اليوم الأول. في اليوم الثالث، نُصبت صورة شيفا [الإله الهندوسي]، فكانت التقديمات لها مثل التقديمات لإله الشمس. في اليوم الرابع، أُعطيت الصدقات إلى أكثر من عشرة آلاف راهب.....».

ثم جاء دور البراهمة، الذين نالوا الصدقات طوال الأيام العشرين التالية. بعدها جاء الجاينيون. وُزّعت الهبات عليهم طوال الأيام العشرة التالية. أخيراً، جاز «للفقراء والبائسين» أن يتقدموا. وزّعت الصدقات عليهم في الأيام الثلاثين الختامية من المراسم.

مع نهاية المراسم كان هارشا قد وهب كل شيء ما عدا فيلته وخيوله وأسلحته. صلَّى الملك، لابساً بذلة خشنة، لبوذا معلناً أنه إنما رغب في المتعلقات كي يمكنه أن يهبها صدقة.

في الوقت المشار إليه، جاء دور الملوك الثمانية عشر – التابعين لهارشا – كي يتدخلوا لصالحه. ولقد فعلوا ذلك عاجلاً فاشتروا جميع البضائع التي وهبها ثم ردوها إلى سيدهم الأعلى. في ظرف أيام قليلة حاز هارشا من جديد

كل ما قد وزعه صدقة! بالمصطلحات الاقتصادية المحضة، كان الأثر الصافي للمراسم المفصلة هو نقل بعض ثروة التابعين لهارشا إلى بعض رعاياه. لم يكن هارشا هو الحاكم الهندي الوحيد الذي اتبع سياسة «فرض الضرائب بصفته مسرحاً»؛ في طريق عودة شوانتسانغ إلى الصين، شهد اثنين إضافيين من مراسم إعطاء الصدقات، أقامهما ملك كابيسا.

قاصداً الوطن

سنة ٦٤٣، بعد عقد ونيف في الهند، انطلق شوانتسانغ نحو وطنه. زوَّده هارشا بفيل ومعه كمية كبيرة من النقد ذهباً وفضة. كذلك أرسل الحاكم الهندي أربعة موظفين إلى البلدان التي سيجتازها شوانتسانغ برسائل توجب إمداد الراهب بالخيول والمواكبات. من كومارا، قبِلَ شوانتسانغ رداء صوفياً بلا أكمام يُطرَح على الكتفين سوف يكون نافعاً على نحو خاص في أول ألف ميل من مسيره قاصداً الوطن، وفيه سيواجه الراهب جبال هندو كوش مرة ثانية، ثم سيعبر سلسلة بامير التي تضاهيها هولاً.

لا ينبئنا هويلي عن حجم صَحب شوانتسانغ في السفر، لكن ما كان للراهب أن يغادر وحده. اشتملت أمتعته على أكثر من ٥٠٠ صرّة من المخطوطات، وسبعة تماثيل لبوذا، وما لا يقل عن وعاء واحد حاوٍ للذخائر، ورزم من بذار الزهور الهندية النادرة. ينبئنا مصدر صيني أنه لما وصل شوانتسانغ إلى تشانغان سنة ٦٤٥، احتاج الأمر إلى عشرين حصاناً لحمل أمتعته.

في ركوب شوانتسانغ شمالاً خارجاً من الهند إلى بكتيريا، تابع طريقته في الإقامة في الأديرة المحلية، حيث كان يُستقبل كضيف شرف. زوده الحكام الذين قابلهم بالأدلاء والمواكبات والحمالين. مع ذلك، كانت رحلة العودة إلى الصين، المسير الذي ربما بلغ ٣٥٠٠ ميل، شاقة جداً. بينما كان القارب، الحامل لبعض أمتعته، يعبر الأجزاء العليا المستقيمة من نهر السند، انقلب. عامت خمسون صرة من المخطوطات ورزم بذار الزهور وذهبت مبتعدة. إن عبور

الراهب بحمله الثقيل للممرات المثلجة والعاصفة في سلسلتي هندو كوش وبامير – على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم ونيف – قد فرض عليه بذل الجهد بأقصى حدوده البدنية. فقَدَ أكثر حماليه في هندو كوش. نفقَ فيله في بامير.

لما هبط شوانتسانغ المنحدرات الشرقية لبامير سنة ٦٤٤، كان مرة أخرى على حافة صحراء تكلاماكان، الإقليم الذي كان يدخل في الوقت المشار إليه تحت السيطرة الصينية. كانت أول وقفة له في واحة كاشْغَر، المركز الكبير للتجارة البعيدة المدى وللعبادة البوذية، والذي كان قد صار في عهد قريب دولة تابعة للصين. من كاشغر، اتبع المسلك الجنوبي حول الصحراء إلى واحة خوتان المزدهرة، التي كانت قد انتقلت أيضاً في عهد قريب إلى المدار الصيني كدولة تابعة. رحب حاكم خوتان، وهو نصير قوي لبوذية ماهايانا، بشوانتسانغ.

بقي شوانتسانغ في خوتان سبعة أشهر أو ثمانية. ينبئنا هويلي أنه كان في المملكة الواحة الصغيرة مئة دير وأكثر من ٥٠٠٠ راهب، وهو ادَّعاء يبدو معقولاً في ضوء أبحاث علماء الآثار الحديثين. في أثناء وقفة شوانتسانغ القصيرة في خوتان، ألقى محاضرات على الرهبان كما أرسل إلى الواحات الأخرى يطلب نسخاً من النصوص التي فقدها في نهر السند.

لكن يبدو أن السبب الأساسي لتوقف شوانتسانغ في خوتان كانت رغبته في الحصول على إذن رسمي بدخول الصين من جديد. بعيد وصوله إلى الواحة، أرسل رسالة، بوساطة قافلة تجار، إلى الإمبراطور تايتسونغ، وكان قصره في تشانغان على ١٥٠٠ ميل شرقاً. في الرسالة، اعترف شوانتسانغ أنه سنة ٦٢٩ قد «خاطر بالعمل خلافاً للقانون» و«خرج سراً إلى الهند»، لدرسة تعاليم بوذا. الآن، بعد ذلك بخمس عشرة سنة، مضى الراهب قائلاً، هو عائد إلى الصين بكتب مقدسة كثيرة ويتمنى مقابلة الإمبراطور. رحب ردُّ تايتسونغ، وقد وصل بعد ذلك بشهور كثيرة، بالراهب ترحيباً حاراً واشتمل على معلومات بأن الموظفين المحليين سوف يمدونه بالحمالين والخيول لنقل أمتعته. في الوقت

المشار إليه بدأ شوانتسانغ آخر جزء من مسيره الطويل، جزء سيأخذه إلى عاصمة تانغ.

في ربيع سنة ٦٤٥، ولما كان شوانتسانغ وحاشيته يقتربون من أسوار تشانغان، مروا بحقول القمح والدخن الخضراء، وهما المحصولان اللذان يأخذان ماءهما من الشبكة المحكمة من قنوات الري القائمة على طول نهر وي. عند البوابة الغربية الضخمة لعاصمة تانغ، البوابة ذاتها التي غادرها قبل ذلك بست عشرة سنة، حيا شوانتسانغ وفدٌ من الموظفين الإمبراطوريين وحشدٌ من المعجبين. لقد صار في وطنه.

استعادة للرحلة وتأمل

خلال أيام من وصول شوانتسانغ إلى تشانغان، نظمت السلطات مراسم تشريفات له. وضِعت الذخائر المقدسة والتماثيل والنصوص التي حملها معه إلى الوطن في معرض عام، ثم نقلت في عرض مبهرج إلى دير كان الإمبراطور بناه حديثاً تكريماً لأمه. بعد ذلك بأسابيع قليلة التقى شوانتسانغ تايتسونغ في عاصمته الشرقية الثانوية في لويانغ. هذا اللقاء هو الذي حضَّ فيه الإمبراطور شوانتسانغ على كتابة تقرير بالبلدان والشعوب التي زارها، ووافق، إذ لم يمكنه إقناع الراهب بأن يصبح موظفاً إمبراطورياً، على رعاية عمله في الترجمة.

أمضى شوانتسانغ السنوات التسع عشرة الباقية من عمره متخذاً قاعدة له الأديرة الواقعة في عاصمتي تانغ أو بالقرب منهما. شرع شوانتسانغ، عاملاً مع فريق المترجمين الذي جمع بعضه إلى بعض بعد لقائه مع تايتسونغ، شرع بسرعة يعمل على النصوص التي جلبها معه من الهند. ساعده أحد مصاحبيه في كتابة «سجلّ الأقاليم الغربية». بالإضافة إلى هذا العمل، وجد على نحو ما وقتاً للقيام بقدر كبير من التعليم.

كان شوانتسانغ أحد أعظم المترجمين الصينيين للكتاب المقدس البوذي. لقد ترجم في عقدين من الجهد المكثف خمسة وسبعين نصاً – ما يقرب من ربع

الصحاح البوذية كاملة – من السنسكريتية إلى الصينية. مع أن مأثرته الضخمة كمترجم لم تضع حداً للنزاعات المذهبية في صفوف البوذيين الصينيين، فإن الترجمات التي أنتجها قد زادت كثيراً من أهمية التعاليم البوذية في الثقافة الأدبية الصينية.

كذلك كان لترجماته أثر بالغ في البوذية في كوريا واليابان وفيتنام، وهي البلدان الثلاثة حيث كانت الفصاحة بالصينية علامة للشخص المثقف. إبَّان سلالة تانغ، قدِم دفقٌ مستمر من الرهبان من كوريا واليابان (وعدد أقل من ذلك من فيتنام) إلى تشانغان للدراسة على المعلمين البوذيين الصينيين. كان الرهبان، بعد تمضية سنة أو نحوها في عاصمة تانغ، يرجعون إلى ديارهم بنسخ من الكتب المقدسة البوذية، كثير منها من ترجمة شوانتسانغ. بهذه الطريقة، شعّ نفوذ شوانتسانغ وراء نطاق الصين إلى منطقة شرقي آسيا الأكثر إتساعاً.

كذلك تستحق التدبّر قضية أثر شوانتسانغ في سياسة تايتسونغ الخارجية التوسعية. في ثلاثينيات القرن السابع وأربعينياته – عصر رحلات شوانتسانغ – أعاد تايتسونغ إرساء السلطة الصينية في إقليم تكلاماكان لأول مرة منذ انهيار سلالة هان. سنة ٦٣٠ دمَّر جيش صيني ضخم قوات الأتراك الشرقيين، مانحاً الصينيين السيطرة على معظم الأراضي المعشوشبة المغولية. في الوقت نفسه تقريباً، أفضت سياسة فرّق تسُدْ الصينية البارعة إلى انهيار إمبراطورية الأتراك الغربيين (الذين استضاف حاكمهم، يهو خان، شوانتسانغ سنة ٦٣٠). سريعاً بعد هذه الانتصارات على معظم الأقوام الرحّل في آسيا الوسطى، اكتسب الصينيون السيطرة من جديد على الواحات المحيطة بصحراء تكلاماكان. كما رأينا، أصبحت كاشغر وخوتان، وقد زار شوانتسانغ كلتيهما في مسيره نحو الوطن، دولتين تابعتين للصين في ثلاثينيات القرن السابع. مع نهاية العقد التالي، دخلت تحت الحكم الصيني واحتا تورفان وقوتشا، وقد أمضى شوانتسانغ فيهما كلتيهما وقتاً في طريقه مغرّباً. نتيجة لهذه المكاسب الإقليمية، أمسك

الصينيون من جديد، طوال قرن تقريباً، بزمام قِطاع طريق الحرير الممتد من العاصمة الصينية إلى منطقة وادي فرغانة.

مثل أكثر أباطرة النصف الأول من سلالة تانغ، كان تايتسونغ راعياً للبوذية. لهذا السبب وحده، كان من المحتمل أن يريد الإمبراطور لقاء شوانتسانغ. لكن تايتسونغ كان أيضاً حتماً متحمساً جداً للقاء الراهب المشهور لأسباب لا شأن لها بأمور الإيمان. لقد عاد شوانتسانغ لتوّه من الأقاليم التي كان تايتسونغ ماضياً في امتصاصها إلى إمبراطوريته. كان للمعلومات التي قدمها الراهب أن تيسّر عملية الفتح. لنا أن نُخمّن أن «سجلّ الأقاليم الغربية» الذي عمله شوانتسانغ قد أمدّ تايتسونغ وخلفاءه بمعلومات عززت قبضاتهم على إقليم تكلاماكان وقيرغيزستان طوال القرن الذي جاء بعد ذلك.

من المؤكد أن الصين اكتسبت معرفة ببعض المنتجات الجديدة، خصوصاً من الهند، في هذه المرحلة، من مثل السكر المكرّر. من الواضح أن أنواع الصلات التي عقدها الرحالة، وضخّمتها الروابط التجارية الجديدة ما بين الأقاليم، قد ولّدت هذه التغيرات في الثقافة المادية. مثال ذلك أن الكرسي قد عُرفت في الهند قبل وصول الفكرة إلى الصين بوقت طويل. لقد أخبر شوانتسانغ عن استعمال الكراسي من قبل السلطات الهندية العالية الرتبة: «يستخدم الموظفون مقاعد مطلية ومزينة على نحو جميل، بحسب أذواقهم». أفضت المعرفة بهذا الشيء، من الرحالة، بالبوذيين الصينيين إلى تبنّي الكراسي على نحو أكثر اتساعاً، لكن مع التحذير بخصوص أنواع الراحة التي ينبغي اجتنابها. في أثناء التأمل. من هذا بدوره، دخلت الكراسي الاستعمال الصيني دخولاً أكثر عمومية، على الأقل في الطبقات العليا. يمكن للأسفار أن تأتي بعوائد واسعة الانتشار لكن مبتذلة على نحو مدهش.

كذلك حاجج بعض المؤرخين أن الرحالة البوذيين الصينيين، وأهل التجارة من الأقوام الرحّل الذين احتكّوا بهم، كان لهم تأثير في الممارسة الاقتصادية

الصينية كما في السياسة الخارجية. ورأوا أن رجال الأعمال الصينيين اكتسبوا إعجاباً جديداً بإمكانات التجارة الخارجية والمبادئ التجارية، التي تساعد على استثارة زيادة في النشاط التجاري المديني في سلالة سونغ التي جاءت بعد تانغ. ما من جدال في أن التجارة والتصنيع الصينيين قد حمي نشاطهما بحلول القرنين العاشر والحادي عشر (ابتدأت سلالة سونغ سنة٩٦٠). إن احتمال التحفيز بالمثال الأجنبي، الذي جاء به، ليس فقط أهل التجارة بل الرحالة – الإخباريون البوذيون، لا يمكن استبعاده. لن تكون هذه هي المرة الأولى، أو الأخيرة، التي كان فيها للإلهام الديني آثار اقتصادية، غير مقصودة على نحو ما، لكنها كبيرة.

أمر آخر من الإرث الدائم لشوانتسانغ جديرٌ بالملاحظة. في القرون التي تلت وفاة شوانتسانغ، أصبحت رحلته موضوعاً لحكايات وأغانٍ شعبية. في ساحات القرى والأسواق في سائر أرجاء الصين، عمدَ الحكواتيون والمغنون إلى ترفيه جماهيرهم بحكايات فكاهية قائمة على رحلات شوانتسانغ قياماً فضفاضاً. مع مرور الزمان، أضاف الحكواتيون إلى رفاق شوانتسانغ في السفر قرداً بطولياً وخنزيراً جشعاً، لكل منهما قوى ماورائية. بالتدريج، صار القرد، ويدعى سون وو– كونغ، الشخصية المركزية في الحكاية، وتوارى شوانتسانغ في الخلفية.

سنة ١٥٩٢، ظهر هذا التراث الشفاهي الغني، الذي ألهمته في البداية رحلات شوانتسانغ ثم صار في المرحلة المشار إليها متميزاً بقرد كثير الفكاهة، ظهر في الكتابة بصورة رواية هي «رحلة إلى الغرب». يعدُّ علماء الأدب «رحلة إلى الغرب»، وتُنسب إلى كاتب اسمه وو تشينغ– إن، واحدةً من كلاسيكيات الأدب الصيني الخالدة. لعل ما يضاهي الرواية في الأهمية هو بُقيا التراث الشفاهي الذي عنه ظهرت. في صين اليوم، يواصل الحكواتيون وأصحاب الدمى ومغنو الشوارع التقليدَ الطويل الأمد في ترفيه الجماهير بحكايات ترجع في غاية أصلها إلى رحلات راهبٍ بوذي من القرن السابع عالمٍ وشديدِ التحمل.

رحالة بوذيون آخرون

ألهمت البوذية أيضاً رحالة آخرين، أحدثت رحلاتهم صلات جديدة بين شتى أرجاء آسيا الشرقية والجنوبية. مثال ذلك أنه بحلول القرن السادس كان رهبان كوريون روّاد يرحلون إلى الهند للدراسة وتعلّم السنسكريتية، وكذلك لتعميق فهمهم للتعاليم البوذية. سنة ٥٢٦، قام راهب يدعى كيوميك بهذه الرحلة، وأتى معه براهب هندي وعدد من النصوص الدينية السنسكريتية. رحَّب الملك الكوري المحلي بالوفد وشرع في رعاية جهود علمية إضافية. كذلك أتت البوذية برهبان كوريين إلى المراكز الدينية في الصين.

قام طلبة يابانيون، أيضاً في القرنين السادس والسابع، برحلات كثيرة إلى الصين لتعزيز فهمهم للبوذية. لقد أتت أسفارهم بأشياء غير الإلهام الديني: لقد نُقلت أيضاً جوانب أخرى من الثقافة الصينية، وتركت الأساليب الفنية المصاحبة للبوذية انطباعاً عميقاً في اليابان. استمرت الصلات الطلابية ورحلات الحج في إلهام الأسفار داخل اليابان وبين الصين واليابان وكوريا. حتَّى وقت متأخر كالقرن الثالث عشر، استمرَّ الحكام الإقليميون اليابانيون في رعاية الرحلات الدراسية، وكذلك في دعوة الكهان الصينيين إلى اليابان لترؤس المؤسسات البوذية. لقد درّب أحد الزوار الصينيين هؤلاء امرأة يابانية، موغاي نيوداي، لتكون خليفةً له، ما يشير مرة أخرى كيف يمكن للاحتكاكات أن تُنتج آثاراً أوسع نطاقاً.

كذلك أحاطت شبكة السفر البوذية بجنوبي شرقي آسيا، ولا سيما قبل وصول النفوذ الإسلامي الشديد. اجتذب مركز تعليمي بوذي كبير في باليمبانغ في سومطرا (ما هو اليوم إندونيسيا) العديد من الزوار الصينيين. دشّن حاجّ صيني آخر جسور، ييجينغ، هذه الوصلة سنة ٦٧١. لقد وصل إلى باليمبانغ في طريقه إلى الهند، بحراً كما هو واضح، وأمضى ستة أشهر هناك. (سوف يمضي بعد ذلك نحو خمس وعشرين سنة في الهند). درس ييجينغ السنسكريتية والعقيدة البوذية، ورجع بكثير من النصوص إلى الصين، مترجماً إياها لأجل

واسع الاستعمال. كتب أيضاً العديد من السير الذاتية لحجاج صينيين آخرين، ليس إلى الهند بل أيضاً إلى باليمبانغ، وشجّع عمله دفقاً مستمراً من المسافرين الورعين.

كذلك كان ييجينغ هو الذي عبّر عن بعض التحدي العاطفي الذي يشتمل عليه هذا النوع من السفر الريادي، حتى حين يحفظ عليه ثباتَه الإيمانُ الديني: «لقد مررت خلال آلاف المراحل المختلفة في أثناء مسيري المنفرد الطويل. بلبلت خيوط الحزن فكري مئة ضعف. لماذا يمشي ظِلّ بدني وحده على حدود خمس هندات؟». بيد أنه أجاب عن سؤاله هو، بلغة التصميم البوذي: «إن حزنت لقِصَر العمر وأسفت لذلك، فأنى لي أن أشغل [زمان الأبدية] المديد؟» كانت هاهنا، في فلك جوزة، الصلة العميقة بين الدافعية الدينية وبين تحدي سفر المسافات الطويلة في القرون ما بعد الكلاسيكية.

خاتمة

بدأ عصر الرحلات البوذية العظيم يتحرَّك نحو خاتمته بحلول القرن الثامن. لم تزل داخل الأراضي البوذية وفي ما بينها أسفار حج مهمة، ولقد ظل الطلبة يسافرون إلى مراكز التعلم الكبرى. ظلت الممرات تتقاطع من اليابان وكوريا في الشمال نحو جنوبي شرقي آسيا. كما ازدهر النشاط الاقتصادي داخل هذا النطاق، حيث نشط التجار الصينيون في سائر أرجاء الإقليم؛ في الحقيقة، لقد عملت في هذا النطاق فقط حاجات الصين إلى المنتجات الخارجية، ولا سيما الشاي والتوابل.

لكن الأسفار البطولية، خارج المجازات التي صارت في المرحلة المشار إليها معلومة، قد خبت. أضعف انحطاطُ البوذية في الهند الباعثَ التبشيري الأصلي والرغبة لدى البوذيين الآخرين في زيارة شبه القارة؛ كان الزعماء الهندوس أقل اهتماماً في التمدد الديني. انقلب أباطرة تانغ المتأخرون على البوذية، فكان ذلك تثبيطاً آخر للسفر تحت هذه الرعاية الدينية. ربما كان أهم شيء هو أن النشاط العسكري والديني الإسلامي قد أزاح على نحو متزايد

البوذية، ومنشآت السفر البوذية، في آسيا الوسطى (انظر الفصلين السادس والسابع). منح هذا الأمر فرصاً جديدة لرحالة من أقاليم آخرى، لكنه ثبّط المخاطرات البوذية. على نحو أكثر اتساعاً، أخذ أهل التجارة المسلمون يهيمنون على المحيط الهندي، فكان ذلك رادعاً آخر للتمدد البوذي.

في هذا السياق، انزاحت بؤرة السفر المغامر إلى الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، وإلى أوروبا بُعيد ذلك. لقد استمر المحفز الديني، لكنه ركز الانتباه على الإسلام، وبالتدريج على المسيحية.

الفصل السادس

إطار جديد حاسم

مُقَدِّمَة

أخذ العصر الكلاسيكي بسرعة ينشئ حوافز دينية جديدة للسفر، على نحو ما شهدت به الرحلات البوذية. سرعان ما جاءت بعقب ذلك تجاسرات تجارية جديدة. بحلول القرن العاشر، انطلق بحارة عرب وفرس على نحو متواتر في رحلات تستغرق ثمانية عشر شهراً إلى ساحل الصين. مع أن هذه الرحلات الطويلة استُبدِلت لاحقاً بحجلات أقصر، قِصراً ما، قام بها مسلمون من أهالي الهند وجنوبي شرقي آسيا، فإن الاحتكاكات التجارية قد استمرت.

لكن القرون الثلاثة التي تلت سنة ١٠٠٠ كانت هي التي شهدت أكبر التحولات حسماً في المنظومات ذات الصلة بالسفر والاحتكاك في أفروآسيا. سوف تجتمع هذه التحولات مع البواعث الدينية، ولا سيما من الإسلام والمسيحية. اشتملت التحولات على الأجهزة السياسية والتقدم الاقتصادي أكثر من أي شيء آخر، لكن بضع تقانات جديدة قد استوعبت بكثرة، ولا سيما على الجانب البحري. لقد كان هذا الإطار، بدوره، هو الذي سيسمح بتضخيم الرحلات الإسلامية والمسيحية على نحو أبعد من المستويات التي صيغت من الروّاد البوذيين.

اجتمعت بضعة تطورات واسعة في الممارسة الدينية، وفي الحياة الاقتصادية، وفي أشكال الحكم لإنتاج ازدياد ملحوظ في عدد الرحلات البرية

والبحرية وطولها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. لقد ارتحل جنود وبحارة وتجار وحجاج ومبشرون وعبيد وأسرى وصنّاع وعلماء ومسلّون ومبعوثون دبلوماسيون وسعاة بريد رسميون ودجّالون ومغامرون ومتمردون، ارتحلوا شرقاً وغرباً بأعداد كانت أكبر بكثير من أي وقت مضى.

من البوذية إلى الإسلام في آسيا الوسطى

كما رأينا في الفصل السابق، كان ارتحال شوانتسانغ في آسيا الوسطى قبيل نقطة انعطاف كبرى في تاريخ ذلك الإقليم. سنة ٦٥١ اندفعت الجيوش العربية الإسلامية، مفعمة بالنشاط من فتوحها في فارس، إلى الشمال الشرقي واستولت على مدينة القوافل مرو (الآن ماري في توركمانستان). كان فتح مرو علامة على دخول القوى العسكرية الإسلامية إلى سهول آسيا الوسطى. في أثناء القرن التالي، اندفعت شرقاً بثبات، مكتسبة حلفاء وداخلين في الإسلام جدداً من بين شعوب الترك على طول الطريق. سنة ٧٥١ نجحت القوى الإسلامية في هزيمة جيش صيني كبير عند نهر طَلَس في جبال بامير بالقرب من فرغانة (في ما هو اليوم قيرغيزستان).

منح النصر في طلس القادة العسكريين المسلمين السيطرة على معظم آسيا الوسطى غربي سلسلة بامير. في وقت شوانتسانغ كان هذا الإقليم بوذياً في معظمه؛ أصبح في الوقت المشار إليه إسلامياً. مع أن السجلّ الوثائقي رقيق، فإن الأدلة التي لدينا توحي أنه بحلول سنة ٨٥٠ كان سكان مدن آسيا الوسطى غربي بامير قد دخلوا الإسلام، وأنه بحلول سنة ٩٥٠ لحق بهم الناس في الأرياف.

كانت إحدى العواقب المهمة للتغير في المشهد الديني لآسيا الوسطى هي تآكل شبكة الأديرة البوذية التي اعتمد عليها شوانتسانغ وما لا يحصى عددهم من المسافرين الآخرين. كثيراً ما استهدف الجنود المسلمون الأديرة لأنهم رأوا في التماثيل والرسوم البوذية الواقعة هناك مظاهر لعبادة الأصنام. أضف إلى ذلك أنه مع دخول الشعوب غربي بامير في الإسلام بالتدريج، فإن الأديرة التي

سلمت من الهجوم الإسلامي الأولي واجهت انكماشاً ثابتاً في العائدات. نتيجة لذلك، بحلول سنة ١٠٠٠ فإنه لم يبقَ إلا القليل من «شبكة الضيافة» البوذية التي قدّمت ملاذاً لمسافرين عديدين في معظم آسيا الوسطى لنحو ألف سنة.

لكن الأثر الإجمالي لانتشار الإسلام إلى آسيا الوسطى وأقاليم العالم الأخرى كان نافعاً بوضوح للمسافرين. مثال ذلك أن أوائل خلفاء السلالة العباسية (٧٥٠ – ١٢٥٨) أتوا بالوحدة السياسية لأجزاء كبيرة من الإقليم الشاسع الممتد من نهر السند إلى الأطلسي. ربما طوال ١٥٠ سنة كان «السلام الإسلامي» العباسي، تحت إشراف خلفاء من مثل هارون الرشيد (حكم ٧٨٦ – ٨٠٩)، نعمة على المسافرين من كل الأصناف، خلال رقعة واسعة من أفروآسيا.

كان انتشار تعاليم الإسلام وطرق حياته أكثر دواماً من النظام السياسي الذي أقامه العباسيون. حيثما ذهب القادة العسكريون ورجال الإدارة والدعاة والعلماء المسلمون شجعوا على استعمال اللغة العربية وأنشؤوا المؤسسات التعليمية الإسلامية، وأقاموا الأجهزة القضائية القائمة على الشريعة الإسلامية. بالتدريج أفضت هذه الجهود إلى إنشاء حس جديد من الوحدة الثقافية بين متنوع الشعوب التي دخلت في الدين الجديد.

لما كان المسلمون يرون أنفسهم، على نحو متزايد، أعضاء في جماعة دولية من المؤمنين (بالعربية: أمة) بينها ممارسات مشتركة، فقد قلّت فرصة حصول «صدمة ثقافية» عند المسافرين المنتقلين من إقليم إلى آخر في «دار الإسلام» (لفظتان عربيتان تعبران عن الأرض الواقعة تحت حكم الشريعة الإسلامية). فوق هذا، كان لركنين من الأركان الخمسة (الفرائض الضرورية) المفروضة على المسلمين صلةٌ بالمسافرين وثيقةٌ محددةٌ. إن الركن الذي دعا المؤمنين للقيام بحجة واحدة على الأقل إلى الأماكن المقدسة في مكة قد حفز زيادةً في عدد القوافل إلى شبه الجزيرة العربية من مدن كالقاهرة ودمشق وبغداد، ومن مواقع أكثر بعداً من ذلك في العالم الإسلامي. بالمثل، أنتج الركنُ الذي أوجب على المسلمين الإسهام

في الهيئات الخيرية عوائدَ استعملتها السلطات الإسلامية لإنشاء شبكة من الخانات أو النُزُل اشتملت عادةً على مخازن للبضائع وإسطبلات لحيوانات الحمل. وفت الخانات، التي دعيت بسرايات القوافل، بحاجات التجار والحجاج والموظفين والعلماء. مع ازدياد عدد المسافرين هؤلاء بعد سنة ١٠٠٠م، أصبحت «شبكة الضيافة» الإسلامية الجديدة أكثر إحكاماً، حالَّةً محلَّ سابقتها البوذية ومنتشرة فوق رقعة أوسع منها.

الصين تثب إلى الأمام

ابتداءً من نحو سنة ١٠٠٠م كانت الصين مصدراً لسلسلة كبرى ثانية من التحولات التي نفعت المسافرين، ولا سيما الذين ساروا في البحر. بعد هزيمة الصينيين على يد القوى الإسلامية العربية في طَلَس سنة ٧٥١م، انسحبوا من إقليمين أساسيين شرقي سلسلة بامير، ألا وهما صحراء تكلاماكان ورواق قانسو، وهي الأراضي التي ما عادوا قادرين على الدفاع عنها من هجمات الرحّل. بترك الحاميات في تكلاماكان وقانسو، تخلى أباطرة تانغ عن السلطة على قطاع مهم جداً من طريق الحرير. طوال بضع مئات من السنين الآتية وقع إقليما تكلاماكان وقانسو فريسة لعدد منتالٍ من شعوب آسيا الوسطى، ما أدى إلى تضاؤلٍ ما في التجارة والسفر بين الصين وآسيا الوسطى.

كان خروج سلالة تانغ من أراضيها الغربية مجرد جانب واحد من سلسلة تحولات أوسع من ذلك أعادت تشكيل الحياة في الصين بطرق مهمة ابتداءً من نحو سنة ٧٥٠م. أفضت الصراعات الداخلية المستمرة والهجمات المتواصلة للرحّل الترك من الغرب والشمال إلى انهيار نظام تانغ سنة ٩٠٧م. بعد مرحلة وجيزة من الارتباك السياسي، أسس قائد عسكري اسمه تشاو كوانغيين سلالة سونغ (٩٦٠-١٢٧٩) وأعاد إرساء السلطة المركزية في الصين (لكن على رقعة أكثر اختصاراً بالمقارنة مع الحدود في باكر عهد إمبراطورية تانغ).

كان عهد سونغ زماناً لانقلاب كبير في الوجه الاقتصادي والاجتماعي للصين. قبل ذلك، في أثناء النصف الثاني من سلالة تانغ، فرّ كثير من الصينيين

من الاضطرابات السياسية والعسكرية في إقليم النهر الأصفر - عُقر دار البلاد التقليدي سياسياً واقتصادياً - إلى السلامة النسبية للجنوب الصيني شبه المداري، أعني الأجزاء المستقيمة السفلى من نهر يانغتسي والساحل. يبدو أن هذا المنحى استمر في أثناء القرن العاشر، بحيث إنَّه بحلول سنة ١٠٠٠م، ولأول مرة في التاريخ الصيني، زاد عدد الناس في الأقاليم الجنوبية، «أرض السمك والرز»، على عددهم في الشمال شبه الجاف، موطن الدُخن والقمح.

برز الجنوب الصيني في الوقت المشار إليه كمركز لنهضة اقتصادية عظيمة دامت بضعة قرون، ولّدت تموجات وصلت حتى البحر المتوسط. حفزت سلالاتٌ جديدة من الرز السريع النضج وابتكاراتٌ في طرق الزراعة الناتجَ الزراعي، فكان ذلك وقوداً لنمو سريع في السكان ولاتساع المدن. مضى إنتاج الشاي والمنسوجات والورق والخزف والفحم والحديد والفولاذ في تصاعد سريع. كذلك فعلَ المنحى في النشاط التجاري. لتسهيل الزيادة في التجارة، طبعت حكومة سونغ في العملة الورقية. أضف إلى ذلك أن سلطات سونغ استبقت السياسة التي أدخلها أباطرة تانغ، وهي الاعتماد اعتماداً متزايداً على دفع الضرائب نقداً بدلاً من الدفع عيناً. نتيجة لهذه التطورات، كانت الصين لبضعة قرون بعد سنة ١٠٠٠م هي موطن أكبر اقتصادات العالم من حيث الإنتاجية والابتكار التقاني والتوجه التجاري.

كان أحد أهم جوانب النمو الاقتصادي السريع إبَّان سلالة سونغ هو التسارع العظيم في ضلوع الصين في الاقتصاد ما وراء البحار. في الماضي، كما رأينا في فصول متقدمة، كان معظم التجارة الأجنبية للصين موجهاً نحو طريق الحرير خلال آسيا الوسطى. لقد استمر هذا المسلك في حمل المسافرين التجار وغيرهم في أثناء النصف الأول من سلالة سونغ، وإن كان ذلك بمعدل منخفض نوعاً ما.

مع ذلك، رعى أباطرة سونغ التجارة البحرية بقوة من بداية نظامهم، ومن الراجح أن السبب في ذلك هو أنهم رأوا فيها مصدراً قيماً محتملاً لعوائد ضريبية

إضافية. في أثناء عصر تانغ رُخِّص لميناء صيني واحد فقط، هو غوانغتشو، الدخول في التجارة الخارجية؛ زاد أباطرة سونغ العدد إلى تسعة. أقيمت في كل واحدة من هذه المدن الساحلية «مفوضية تجارة بحرية» للإشراف على التجار، وللتحقق من أمر السفن، ولفرض التعرفة على الواردات. كوفئ التجار الصينيون الذي زادوا من المبالغ الضريبية المستلمة بأن عُيّنوا في مناصب رسمية. كذلك حسّن أباطرة سونغ من أحوال التجارة المحمولة بحراً بأن أخذوا على عاتقهم تنظيف قعور المرافئ وتشييد أحواض بناء السفن والأرصفة والأرصفة الممتدة في البحر والمخازن والمحطات البحرية.

سنة ١١٢٧م سقطت عاصمة سونغ في كايفينغ على النهر الأصفر أمام جيش من الصيادين/المزارعين من مَنشوريا يعرفون بالجورتشين، الذين استولوا بسرعة على شمالي الصين كله. نتج عن فقدان وادي النهر الأصفر أن تعززت «الاستراتيجية الجنوبية» لأباطرة سونغ. في أثناء النصف الثاني من عصر سونغ، العصر الذي عرف بسلالة سونغ الجنوبية (١١٢٧-١٢٧٩)، نقل الأباطرة عاصمتهم إلى مركز التجارة الجنوبي العظيم، هانغتشو. وإذ فقدَ الأباطرة قدرتهم على جمع الضرائب في الشمال، فقد حاولوا التعويض، جزئياً، بتكثيف جهودهم لزيادة التجارة البحرية.

نتيجة لذلك، بحلول أواسط القرن الثاني عشر، صار تحت تصرّف أصحاب السفن في الصين أسطول ضخم ومعقّد تقانياً لم يكن له – على الأرجح – نظير في مكان آخر من العالم. اتسمت الجونكات (من لغة الملايو: جونغ) الصينية بالصواري المتعددة وأشرعة الخيزران القوية، وببدن للسفينة ذي حجرات منيعة من الماء، ودفّات ثابتة (بدلاً من مجاديف التوجيه) وبوصلة النوتية. بلغ طول بعض هذه المراكب ٢٠٠ قدم وأمكنها حمل ما يصل إلى ٥٠٠ طن من الحمولة. مع أن الجونكات صممت أساساً لحمل الشحنات، فقد اتخِذت فيها ترتيبات لأخذ الركّاب، وكان أكثرهم بلا ريب تجاراً. اشتملت أسباب

الراحة على قمرات خاصة وماء عذب للاغتسال وخُضَر طازجة تُستزرع في سلال على ظهر السفينة.

كانت هذه السفن مشارِكات كبرى في ما دعاه الصينيون باسم تجارة «نانباي» (البحار الجنوبية)، أعني التجارة الجارية في البحار الصينية والمحيط الهندي. حملت المراكب من غوانغتشو، ومن الموانئ البارزة حديثاً على الساحل صعوداً ومنها قوانتشو، الحرير والشاي والراوند والزنجبيل والخزف الصيني والبضائع المعدنية إلى المرافئ في جنوبي شرقي آسيا (هي في يومنا الحاضر فيتنام وجاوا وشبه جزيرة الملايو وسومطرا) وجنوبي آسيا (سريلانكا والهند) والخليج الفارسي. في رحلة العودة، كانت تحمل العاج والبخور والفلفل والقماش القطني والقرفة وجوز الطيب وبعض توابله ومجموعة متنوعة من الأشياء النادرة في «نانباي» – والعديد من المسافرين التجار.

السلام المغولي

كان «السلامُ المغولي»، وهو قرن من الاستقرار النسبي خلال معظم أوراسيا، نحو ١٢٥٠–١٣٥٠م، جاء إثر فتوحات تشينغّيس (جنكيز) خان (توفي ١٢٢٧) وفتوحات خلفائه المباشرين نعمةً عظيمةً ثالثة للمسافرين إبَّان العصر ما بعد الكلاسيكي. سنة ١٢٥١م لما نُصب مونغْكِه، حفيد تشينغّيس، خاناً أكبر، كانت الأراضي الواقعة تحت حكم المغول تمتد من كوريا وشمالي الصين خلال آسيا الوسطى إلى البحر الأسود وحافة السهل الهنغاري، وهي مسافة تقارب ٦٠٠٠ ميل. كان امتداد الإمبراطورية المغولية لا سابق له في التاريخ العالمي.

لكن الشهية المغولية للتوسع كانت أبعد من أن تشبع. سنة ١٢٥٣م أمر مونغْكِه أحد إخوته الأصغر منه، هولاكو، بإحراز السيطرة على غربي آسيا، وكان معظمه لا يزال تحت السلطة الاسمية للخلفاء العباسيين في بغداد. في غضون خمس سنين سقطت بغداد بيد الغزاة، وأُعدم آخر الخلفاء، ودُفِعت

الجبهة المغولية ما وراء نهر الفرات إلى سورية. هنا، غير بعيد من القدس وشواطئ المتوسط، أوقف أخيراً تقدّم المغول غرباً. سنة ١٢٦٠ م، في موقع بالقرب من الناصرة، في ما هو اليوم شمالي فلسطين، هزم جيشٌ مصريٌّ المغولَ وأجبر الرحّل على الانكفاء إلى الفرات، الذي أصبح حينئذ الحد الغربي للعالم المغولي في الشرق الأوسط (أعني فارس الكبرى).

مع زحف هولاكو وجنوده غرباً نحو بغداد في أثناء خمسينيات القرن الثالث عشر، استأنف مونغْكِه وأخاه الآخر، خوبيلاي، المحاولة المغولية لفتح الصين، وهو من الأهداف الأولى للرحّل منذ زمان تشينغيس. لقد أخذ الأمر أكثر من عقدين من القتال، من سنة ١٢١١م إلى سنة ١٢٣٤م، لاستخلاص شمالي الصين من الجورتشين. بل إن الرحّل احتاجوا إلى وقت أكثر من ذلك لهزيمة قوات سونغ الجنوبية وإحراز السيطرة على الأرض في الجنوب الصيني حيث المستنقعات والتلال. بعد المكاسب الأولية في أثناء خمسينيات القرن الثالث عشر، توقفت العمليات في الجنوب مؤقتاً عندما أطلقت وفاة مونغْكِه سنة ١٢٥٩م صراعاً بين الأمراء الإمبراطوريين على منصب الخان الأكبر الجديد.

بحلول سنة ١٢٦٤م خرج خوبيلاي ظافراً في الصراع على خلافة مونغْكِه، وسرعان ما جدد المسعى لفتح أراضي سونغ الجنوبية. للانتصار في الجنوب، استعمل خوبيلاي وقادته شتى المكائد التي تعلموها من غير المغول. علّم المنشقون والأسرى الصينيون المغولَ كيف ينتجون المتفجرات. شيد مسلمون من الشرق الأوسط أولو خبرة في فن الحصار الحربي منجنيقات معقدة استعملها المغول لرمي مقذوفات مشتعلة على أسوار المدن الجنوبية. أدرك خوبيلاي أنه سيتعيّن على جنوده القتال فوق الأنهار وفي المياه الساحلية فاستدعى المنشقين الصينيين والكوريين - واثنين من القراصنة الصينيين السيئي السمعة - كي يجتمعوا ويقودوا بَحرية«مغولية». كانت المساعدة من هؤلاء الأجانب مهمة للمغول، وكانت عوناً لهم على سحق آخر مقاومة أبدتها سونغ الجنوبية في معركة بحرية نشبت بالقرب من غوانغتشو سنة ١٢٧٩م.

بتوحيد خوبيلاي شمالي الصين وجنوبيها لأول مرة منذ عشرينيات القرن الثاني عشر، صار في الوقت المشار إليه حاكماً لأغنى بلدان العالم وأكثرها سكاناً. لقد صار أيضاً، نظرياً، «الخان الأكبر»، أي الحاكم المغولي الأعلى الواجب على الخانات الذين كانت قواعدهم في الأقاليم الأخرى من أوراسيا الإذعان له. لكن أزمة الخلافة التي نشبت بعد وفاة مونغْكِه كانت علامة على النهاية الفعلية للوحدة السياسية بين الأمراء المغول. في أثناء ستينيات القرن الثالث عشر تفككت الإمبراطورية المغولية إلى أربع خانات[١] مستقلة في أساسها. في روسيا عُرف الحكام المغول باسم خانات القبيلة الذهبية. في فارس عُرفوا بالإيلخانات. كانت آسيا الوسطى، وهي أقل الخانات استقراراً، هي مُلْك خانات الجَغَطاي. وفي الصين، حكم خوبيلاي كإمبراطور من الطراز الصيني.

عنى تفكك الإمبراطورية المغولية بعد وفاة مونغْكِه أن علينا أخْذ مصطلح «السلام المغولي» مع حبة ملح، لأنه في أثناء القرن التالي حصل صراع كبير بين شتى الخانات وداخلها. اتسم بالحدة على نحو خاص التنافسُ بين خانات القبيلة الذهبية في روسيا والإيلخانات في فارس، الساعين كليهما للسيطرة على الأراضي الرعوية الغنية في إقليم القوقاز. أضف إلى ذلك أن خانات القبيلة الذهبية وخانات الجَغَطاي كانوا باستمرار على عداء مع خوبيلاي. كذلك كانت تقاتلات محلية ومتفرقة كثيرة داخل شتى الخانات ترجع جذورها العميقة إلى المشاحنات الإقليمية والإثنية والقبلية والأسرية القديمة العهد.

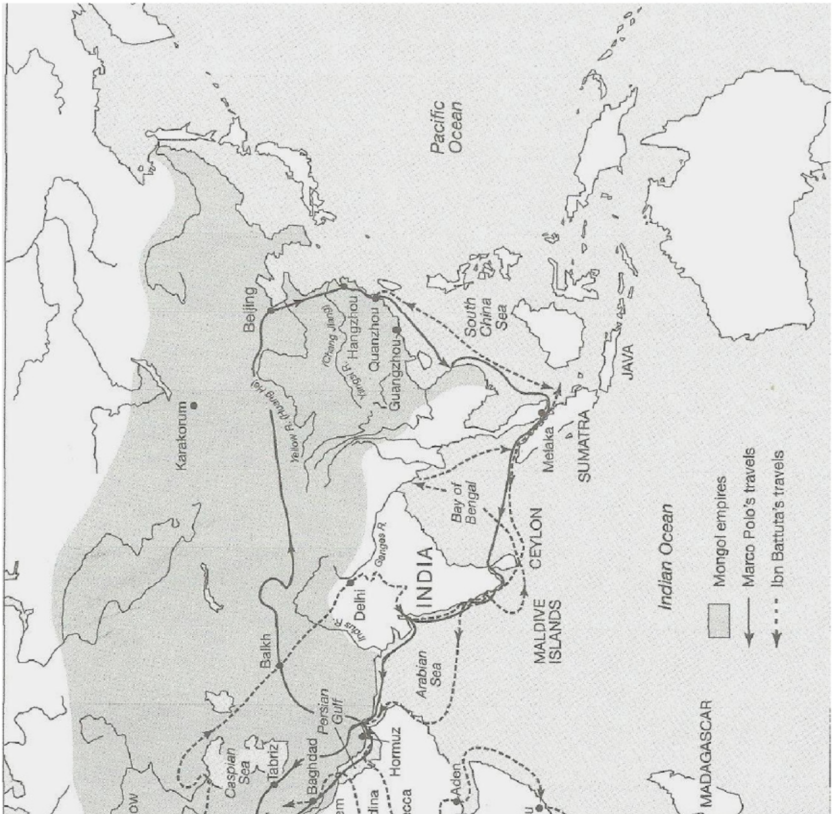
مع ذلك، كان القرن المغولي زماناً لاستقرار غير معتاد خلال معظم أوراسيا بالمقارنة مع العصور الأقدم والأحدث. عموماً، كان الخانات ناجحين في إقامة النظام (إن لم يكن السلام) السياسي وفرضه على مسافات لا سابق لها.

---

(١) أي دول يحكم كلاً منها خان (ملك) – المترجم.

كانت إحدى الإشارات إلى فعالية الخانات في ما يتعلق بهذا الأمر هي الازدياد الحاد في عدد المسافرين على طريق الحرير وتنوّعهم. كان في المسير جنودٌ وتجارٌ وحجاج ومبشرون وصنّاع وعلماء ورسامون ونحاتون ومسلّون ومبعوثون دبلوماسيون وسعاة بريد رسميون، أكثر من أي عهد مضى. لقد سافر عدد كبير من الأوروبيين والروس والفرس والعرب شرقاً إلى آسيا الوسطى والصين. ارتحل عدد أقل من ذلك نوعاً ما من الصينيين وأهل آسيا الوسطى غرباً إلى فارس. في حالة واحدة، سافر أحد التُرك المسيحيين النساطرة من شمالي الصين إلى فارس ثم مضى قُدُماً إلى أوروبا الغربية مبعوثاً من الإيلخان.

أسهمت سياسات مغولية محددة في ازدياد أسفار المسافات الطويلة بطرق عدة. لما زحف جنود هولاكو غرباً نحو بغداد في خمسينيات القرن الثالث عشر، أجبروا أهل المناطق التي اجتازوها على بناء الطرق والجسور لعرباتهم ومركباتهم. لم تكن الطرق مرصوفة لكنها كانت أوسع وأثبت من آثار الأقدام التي حلت محلها. صُنعت الجسور عادة من قوارب وضعت بعضها بجانب بعض وغُطيت بسطح من الخشب والتراب، وهي طريقة استعملها الفرس إبَّان غزوهم اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد. أعان خانات المغول وأمراؤهم على ازدياد عدد القوافل على طريق الحرير بإقراضهم الفضة لأصحاب التجارة من المسلمين والترك الذين نظموا شركات تجارية دُعيت «أورْطوي». لتسريع سفر سعاة البريد والمبعوثين المغول، أنشأ الخانات شبكة بريد تتابعية مترامية الأطراف، عُرفت بجهاز «يام»، اشتملت على خانات وإمدادات بخيول جديدة واقعة على فواصل منتظمة على المسالك الرئيسية. حملَ المرخّصون باستعمال جهاز «يام» جوازات سفر مغولية دُعيت «ألواح السلطة» (بالمغولية: غيريغي، بالفارسية: بايزا) حسّنت كثيراً الآمال بمسيرٍ سالمٍ من هجمات قطاع الطرق.



«رحلات ماركو بولو وابن بطوطة» (المترجم)]

الفصل السابع

الرحالة المسلمون، ٧٠٠ - ١٤٠٠ ميلادية

مُقَدِّمَة

لم يكن عجباً أن كان الرحالة المسلمون هم المستفيدين استفادة ظاهرة من التغيرات العظيمة التي طرأت على إطار الاحتكاكات في القرون الأخيرة من العصر ما بعد الكلاسيكي. سنرى أن أعظم الرحالة قاطبة، هو ابن بطوطة، استفاد مباشرة من شبكة الطرق والفنادق في أرجاء الشرق الأوسط وآسيا الوسطى؛ ومن زمن الاستقرار النسبي الذي أتى به الحكم المغولي؛ ومن ازدهار المراكز التجارية المتناثرة من البحر المتوسط إلى أفريقيا وإلى آسيا. لكن أنماط السفر الإسلامية ابتدأت قبل ذلك في العصر ما بعد الكلاسيكي، ولبضعة أغراض. لقد امتدت المسالك الأكثر طموحاً، براً داخل آسيا الوسطى، لكن أيضاً في خلال أجزاء شتى من المحيط الهندي. يستكشف هذا الفصل هذه الأسبقيات وبلوغها الذروة بعد ذلك في الرحلات الإسلامية العظمى من القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر الميلادي.

سعاة بريد ودبلوماسيون

في أثناء النصف الثاني من القرن السابع أقام الخلفاء الأمويون (حكموا بين سنتي ٦٦١ و ٧٥٠) شبكة اتصالات إمبراطورية، تدعى البريد، جعلوا عمادها فيلقاً من سعاة البريد راكبي الدواب، وأرخبيلاً محكماً من الفنادق والإسطبلات، ربطت

عاصمتهم دمشق بغيرها من المدن المهمة في الإمبراطورية العربية – الإسلامية. كما رأينا في الفصل الثاني، لقد مضى وقت طويل على استعمال هذا النوع من الاتصالات في الشرق الأوسط وفي أقاليم أخرى.

الأدلة الباقية في ما يتعلق بجهاز البريد الأموي قليلة، لكن الصورة تصبح أوضح قليلاً بعد تغيير النظام سنة ٧٥٠م وتأسيس السلالة العباسية (٧٥٠–١٢٥٨). لقد وسّع الخلفاء العباسيون الجهاز الأموي، فنقلوا مركزه إلى عاصمتهم الجديدة بغداد، بحيث إنه بحلول القرن التاسع صار سعاة البريد يقطعون على ظهور الإبل والحمير والخيل والبغال المسافة الممتدة على طول الإمبراطورية، وهي على نحو تقريبي الأراضي الواقعة بين ما هو اليوم كابول والجزائر، وهي مسافة تقارب ٤٠٠٠ ميل. أيضاً، في مرحلة متقدمة من القرن العاشر، وسّع الجهاز حتى صار يشتمل على ما يزيد عن ٩٠٠ محطة بريد، كل منها يضمُّ ما بين ستة أميال واثني عشر ميلاً من أقرب محطة مناظرة لها. يزودنا المؤرخ الطبري بمعلومات في ما يتعلق بسرعة شبكة سعاة البريد العباسية، فيذكر أن الرسل راكبي الدواب كانوا يقطعون نموذجياً تسعين ميلاً في اليوم، وهذه مسافة لا يمكن تحقيقها إلا بالركوب ليل نهار.

كان للسفر على شبكة الاتصالات الإمبراطورية صلة بالحكومة في معظمه. كان المستعملون الأساسيون هم موظفو الخليفة، علماً أنه قد كانت تنقل أيضاً رسائل متبادلة خاصة. أضف إلى ذلك أن الغرض من البريد المحمول إلى بغداد ومنها كان هو تعزيز سلطة الخليفة أو سلطة شتى النخب العسكرية التي كانت تحكم باسمه. وعليه، لما تفكك جهاز سعاة البريد في أواسط القرن الحادي عشر، تسارَعَ تشظي العالم العباسي. لكن قبل وقت طويل من هذه النزعة الانحدارية التي بلغت ذروتها بنهب المغول بغداد سنة ١٢٥٨، فإن الخلفاء رعوا نوعاً آخر من السفر، ألا وهو البعثات الدبلوماسية إلى الدول المجاورة والبعيدة.

إن أمثلة قليلة من الأسفار البعيدة المسافة التي قام بها دبلوماسيو العهد العباسي سوف تكون وسيلة إيضاح لأهمية هذا النوع من السفر. على ما يظهر، تثبت الأدلة المحدودة من أوروبا الكارولينجية[1] أن شارلمان (حكم بين سنتي ٧٨٦ و ٨١٤) قد أرسل في ثلاث مناسبات سفارات إلى بلاط الخليفة هارون الرشيد (حكم بين سنتي ٧٨٦ و٨٠٩) في بغداد. بحسب المصادر الأوروبية، ردَّ هارون الرشيد التحية بأن أرسل مبعوثين لمرافقة اثنتين من الفرق الكارولينجية في طريق العودة إلى البلاط الفرنكي في آخِن. بعد ذلك بوقت قصير، سنة ٨٢١، سافر تميم بن بحر مبعوثاً عباسياً إلى عاصمة الأويغور الرحّل في ما هو اليوم منغوليا. بعد هذا بقرن، سنة ٩٢١ أو ٩٢٢م، أرسل الخليفةُ المقتدر ابنَ فضلان من بغداد رسولاً إلى ملك البلغار، وكانوا يومئذ مقيمين بالقرب من الأجزاء السفلى المستقيمة من نهر الفولغا في جنوبي شرقي روسيا.

مع قلة الأدلة في ما يتعلق بالبعثات الدبلوماسية العباسية، فإن النتف التي بحوزتنا تقدّم شيئاً إضافياً إلى فهمنا للأسفار السياسية العربية- الإسلامية. مثال ذلك أن الرواية الوجيزة لرحلة تميم بن بحر إلى آسيا الوسطى تنبئنا أنه حالما وصل تميم إلى الأراضي المعشوشبة شرقي سمرقند، فإنه استمر في مسيره شرقاً راكباً أفراساً متتابعة قدمها له خان[2] الأويغور. بحسب تميم، كانت للأويغور شبكة واسعة من محطات البريد طواقمها رجال يبيتون في الخيام. أخبر تميم أنه سافر على هذا الجهاز أربعين يوماً حتى وصل إلى عاصمة الأويغور، على مسافة ٢٠٠٠ ميل تقريباً. وهذا يُحسب على سرعة وسطية تبلغ نحو خمسين ميلاً في اليوم، وهو رقم معقول كلياً.

---

(١) نسبةً إلى أسرة فرنكية حكمت أوروبا بين سنتي ٧٥١ و ٩٦١ - المترجم.

(٢) الملك بالتركية - المترجم.

بحارة

إن مسير تميم بن بحر من بغداد إلى منغوليا مسافة إجمالية قدرها ٣٥٠٠ ميل تقريباً، مع كونه مثيراً بحد ذاته، يظهر على نحو ما بصورة أصغر قليلاً مما يبدو عندما يقارن بالأسفار المعاصرة له التي قام بها التجار المسلمون خلال المحيط الهندي. فالمسافة بين البصرة، وهي أحد الموانئ العباسية الكبرى في القرنين الثامن والتاسع، وبين غوانغتشو، وهي أكبر مركز صيني معاصر من المراكز الوسيطة للتجارة والشحن البحري، هي ٦٠٠٠ ميل أو تزيد. في أوائل القرن التاسع، أخذ التجار المسلمون - وهم خليط من العرب والفرس - يبحرون بين هذين المرفأين (يقفون على الطريق بينهما وقفات كثيرة)، وبفعلهم ذلك أقاموا واحداً من أطول المسالك التجارية في العالم قبل سنة ١٥٠٠ ميلادية.

الأدلة المكتوبة على هذه الرحلات البحرية الأولى العابرة للمحيط الهندي إلى ساحل الصين ضئيلة لكنها تلقي ضوءاً على الأمر، وخصوصاً عندما يُنظر إليها مع البقايا المادية. تنبئنا السجلات الصينية عن مذبحة عظيمة ارتكبت بحق العرب والفرس في غوانغتشو في أثناء انتفاضة على سلطات تانغ سنة ٨٧٨ ميلادية، وهذا دليل يوضح على ما يظهر أن جماعة عظيمة من التجار المسلمين قد أفلحوا على نحو ما في عبور المحيط الهندي بحلول هذا الوقت. يتعشّق التقرير الصيني مع مصدرين عربيين- فارسيين مهمين. يقوم «وصف الصين والهند»، وهو كتاب يرجع إلى ما بين القرنين التاسع والعاشر ويُنسَب إلى تاجر فارسي اسمه سليمان، على تجارب التجار والبحارة الذين سافروا مراراً وتكراراً من ميناء سيراف على الخليج الفارسي، وكان يومئذ في أوجه، إلى غوانغتشو. هاهنا مجموعٌ له القدر نفسه من الأهمية يضم حكايات لأحد الملاحين عنوانه «كتاب عجائب الهند»، ويرجع إلى القرن العاشر ويُنسَب إلى أحد ربابنة السفن الفرس اسمه بُزْرُك بن شهريار. في «عجائب الهند» تدور إحدى أمتع القصص حول ملاح ماهر من سيراف اسمه أَبْهَرَة وهو، في خبر بُزْرُك، أول بحار سافر بانتظام من الخليج الفارسي إلى ساحل الصين. تُعنى

حكاية أخرى من حكايات بُزْرُك بتاجر يهودي من عُمان، هو إسحاق بن يهودا، أبحر إلى الصين ورجع بكمية عظيمة من المسك وسوى ذلك من الأشياء النادرة.

مع أن في عملَي سليمان وبُزْرُك كليهما قيمة حقيقية عند طلبة الرحلات البحرية التجارية في المحيط الهندي، فإن الكتابين كليهما مبهمان في ما يتعلق بزمان عمليات الإبحار. وهاهنا تتقدم الأدلة الأثرية لتلعب دورها. لقد كشفت الحفريات في موقع سيراف، في ما هو اليوم إيران، عن كميات ذات شأن من الخزف الصيني، يؤرخه العلماء في أوائل القرن التاسع. وعليه، فإن التجار العرب- الفرس القائمين في موانئ الخليج قد أخذوا، على ما يبدو، يحجزون لهم مكاناً في الرحلات البحرية البعيدة إلى غوانغتشو في وقت ما في أثناء حكم هارون الرشيد.

لقد حفلت هذه الرحلات بالأخطار حتماً. تذخر حكايات بُزْرُك بالعواصف وتحطُّم السفن والقوى المواكبة احترازاً من القراصنة السلابين وهذه جميعاً، على ما يبدو، بقايا حقيقة من الراجح أنها تعبّر عن مخاوف حقيقية أحس بها البحارة والتجار عند تفكيرهم في القيام برحلة بحرية شرقاً. اشتملت الوقفات المهمة في المسلك على موانئ في ساحل مالابار الهندية وماليزيا وجنوبي فيتنام. على ما يبدو، استغرق الإبحار إلى كل واحد من هذه المقاصد نحو شهر، ومعه شهر آخر تحتاجه الخطوة النهائية من فيتنام إلى غوانغتشو. إذا أخذنا في الحسبان مدة التوقف الضرورية في كل واحدة من هذه المواقف الكبرى على الطريق (للتبادل التجاري وأخذ إمدادات جديدة وصيانة السفن)، فإن الزمان الإجمالي الذي تحتاجه الرحلة البحرية من الخليج الفارسي إلى ساحل الصين كان يبلغ على الأرجح نحو ستة أشهر.

الحجاج الأولون

إذا كان التجار هم أكثر المسافرين المسلمين تكراراً للسفر في أثناء هذا العصر، فمن المحتمل أن الحجاج إلى مكة كانوا هم زمرة المسلمين الذين يأتون

في المرتبة الثانية في احتمال القيام برحلات طويلة. إن علماءَ الأسفار الأولى لمحظوظون بوجود الحجاج لأن المسافرين من أهل الدين كانوا بالنسبة إلى سعاة البريد غير المعروفين والتجار المتكتمين أكثر احتمالاً أن يتركوا سجلات بأسفارهم. وفي الحقيقة، إن الرحلة، أي حكاية السفر الإسلامية، وهي من الأجناس الكبرى عند الكتّاب المسلمين، كان اختراعها في معظمه على يد الحجاج إلى مكة. لننعطف الآن وننظر في ما تقدمه لنا تجارب اثنين من الحجاج الأولين من عون على فهم أسفار المسلمين ذات الأسباب الدينية.

ذهبت الملكة زبيدة (٧٦٣-٨٣١)، زوجة هارون الرشيد، للحج إلى مكة بضع مرات (وكذلك فعل الخليفة) . ما من حكاية عن هذه الرحلات، لكن أدلة أخرى، بعضها أثري، تشهد على أهميتها في رفع مستوى منشآت السفر التي يحتاجها الحجاج، وخصوصاً من ذلك ما كان يُعدُّ جزءاً من القافلة السنوية إلى مكة التي كان ينظمها المسؤولون العباسيون في بغداد. كان الجزء الصعب من الرحلة، على هؤلاء الحجاج، يبدأ من الكوفة، وهي مدينة للقوافل على المجرى الأسفل لنهر الفرات بالقرب مما هو اليوم النجف في العراق. كان بين الكوفة ومكة نحو ٨٠٠ ميل من الصحراء العربية الكالحة. رعت زبيدة أمر تشييد صهاريج المياه وحفر الآبار وبناء دور الراحة على طول هذا المسلك المهم. نتيجة لمساعي الملكة، أُطلق اسمها على بضعة مواقع من طريق الكوفة – مكة تشريفاً لها. بحلول القرن الثاني عشر، لما كانت حركة مرور الحجاج قد ازدادت ازدياداً عظيماً، صار الطريق الذي يربط الكوفة بمكة يدعى «درب زبيدة».

ولِد الثاني من الحاجّين اللذين لوّحنا بذكرهما آنفاً، وهو نَصيري خسرو، في أوائل القرن الحادي عشر بالقرب من بلْخ، وهو موضع تقاطع الطرق في آسيا الوسطى، والذي مررنا على ذكره مرات في الفصول السابقة. لقد أصبح نصير مسؤولاً إدارياً عند الأتراك السلاجقة، وكانوا يومئذ يمدون نطاق قبضتهم على الولايات الشرقية من الإمبراطورية العباسية. في الثانية والأربعين من العمر عزم نصير على الاستئذان في ترك وظيفته مؤقتاً عند السلاجقة والذهاب للحج إلى

مكة. في السنوات السبع التالية، من سنة ١٠٤٦ إلى ١٠٥٢م، سافر نصير في الشرق الأوسط كثيراً، وأقام في القاهرة ثلاث سنين، وحج إلى مكة أربع مرات. بعد رجوع نصير إلى دياره، دوّن وصفاً لأسفاره يدعى «سفر نامه»، وهو أول سجل حقيقي لتجربة حاج مسلم متوفر الآن بالإنكليزية.

يحتوي كتاب نصيري خسرو على ثروة من المعلومات عن الكثير من جوانب السفر في عقر دار الإسلام في القرن الحادي عشر. لقد حرص على تعيين مسالكه، وكثيراً ما كان دقيقاً في أمر المسافة بين المراحل وموسوساً للدلالة على تواريخ وصوله إلى المواضع على طول الطريق. تظهر سمات كتابه هذه بوضوح في سجله لحجته الأولى إلى مكة.

ينبئنا نصير أنه انطلق خارجاً في آذار سنة ١٠٤٦م من مدينة القوافل مرو (ماري في ما هو اليوم تركمانستان)، حيث كان يقيم بصفته موظفاً سلجوقياً، انطلق يصحبه أخوه ومملوك هندي. توجه الثلاثة غرباً من طريق نيسابور وتبريز وبحيرة وان وحلب وبيروت فوصلوا إلى القدس بعد ذلك بعام على وجه الضبط. أمضوا الأشهر الثلاثة التالية في زيارة المواقع المقدسة في القدس وبضع بلدات فلسطينية أخرى. ثم إن نصيراً (وربما أخاه) التحق بجماعة من الحجاج قاصدين مكة سيراً على الأقدام، فبلغوا البلد الحرام في حزيران سنة ١٠٤٧م.

قدّر الحاج الفارسي أنه قَطَعَ بحلول الوقت الذي أتى به مسلكه غير المباشر إلى القدس مسافة ٨٧٦ فرسخاً، أو نحو ٣٠٠٠ ميل. لو أضفنا ١٠٠٠ ميل أخرى لرحلته من القدس إلى مكة لوصلنا إلى رقم تقديري هو ٤٠٠٠ ميل لمسيره من آسيا الوسطى إلى مكة الذي أخذ منه خمسة عشر شهراً.

في سرد نصير لتجاربه على الطريق، يزودنا بأخبار مشوّقة فيها معلومات عن الأقاليم التي اجتازها، والمدن التي زارها، والشعوب التي صادفها. نطّلع على المشهد الجبلي لشمالي غربي فارس، وبيع لحم الخنزير في الأسواق الأرمينية، والأسوار العظيمة التي تحيط بمدينة ديار بكر في شرقي الأناضول،

والنواعير والأطلال الرومانية في سورية، والمرفأ الفسيح في عكا (في فلسطين)، الميناء المتوسطي، وجلال قبة الصخرة في القدس.

مع وفرة المعلومات الغنية التي يقدمها نصير بطرق كثيرة، فإنه مع ذلك يتركنا نخمن الأجوبة عن بعض المسائل الآسرة. لننظر في ثلاث منها: إذا نحينا جانباً رحلته ماشياً على قدميه من القدس إلى مكة، كيف انتقل من مكان لآخر؟ ما الاحتياطات التي اتخذها للأمان؟ لماذا تحاشى بغداد واجتنب درب زبيدة في كلٍّ من مسيره خارجاً من دياره وراجعاً إليها؟ للإجابة عن هذه المسائل أهمية كبيرة في كل إعادة بناء تامة لحركات خسرو، وفي فهم القضية الأوسع التي تتعلق بالأسفار الإسلامية الأولى عموماً.

من المحتمل جداً أن نصيراً سار أكثر الطريق من مرو إلى القدس على حمير وإبل متتابعة. بحسب ما رأينا في الفصول السابقة، تألفت قوافل التجار من صفوف طويلة من الحمير والإبل التي طالما اجتازت الشرق الأوسط جيئة وذهاباً، وكانت ذائعة الاستعمال في حياته. كان من السهل عليه جداً أن يلتحق بأي عدد من القوافل، وبفعله ذلك يكسب أمناً إضافياً من غارات قطاع الطرق. إن متواتر تعليقات نصير على أسعار السلع في الأسواق وذِكْره العرضي للأجور التي يدفعها التجار وإشاراته المتناثرة إلى الخانات توحي أن سفره كان حتى القدس هو على الأرجح على هذا النحو. ينبىء مسلكه أيضاً بارتباط مع تجار القوافل: كانت نيسابور وتبريز وديار بكر وحلب وعكا مواقف مهمة للتجار الذين يسحبون الشحنات على المسالك البرية الكبرى في الشرق الأوسط.

ينبئنا نصير أنه في مرحلة من مراحل مسيره، بينما كان يمضي غرباً من تبريز خلال الأراضي العالية من أرمينيا، قد ارتحل مع جندي أُرسل لمساعدته. المسؤول عن هذه المعونة غير واضح. في مرحلة متقدمة داخل أرمينيا، رافق نصيراً لبعض الوقت ساعي بريد، غير معرّف إلا هكذا، لكن من المحتمل أنه رسول من بغداد. في أرمينيا الجبلية، حيث كان قطع الطرق وباء متفشياً، كان يُنصح بتدابير أمان إضافية تتخذ صورة مرافقات رسمية.

قبل أن نترك نصيري خسرو، لنرجع إلى قضية المسالك التي اتّبعها في مسيره خارجاً من دياره وعائداً إليها. من الواضح أنه استعمل في أكثر الطريق المسالكَ التجاريةَ الكبرى، لكن الأمر البارز في ما يتعلق بالمسالك التي اختارها هو كم كانت غير مباشرة، وخصوصاً مسيره خارجاً من دياره. بعد انطلاق نصير من مرو، لماذا لم يتوجه مباشرة إلى بغداد من خلال طريق خراسان الأعظم الذي يعبر فارس، ثم يستمر في مسيره حتى الكوفة، ومن ثم إلى مكة من خلال درب زبيدة؟ تبرز المسألة نفسها من فحص مسلكه إلى دياره. مرة أخرى، لقد اجتنب درب زبيدة وبغداد، مختاراً بدلاً من ذلك طريقاً صعباً في جهة الجنوب إلى البصرة، ومن ثم ممراً يثير التحدي جداً يصعد جبال زاغروس إلى أصفهان.

لا ينبئنا نصير بأسباب اجتنابه بغداد، لذلك يجب علينا أن نحزر لماذا فعل ذلك. لعل الجواب هو في الوضع المعقد الديني والسياسي الذي ساد في بغداد أواسط القرن الحادي عشر. كان نصير من أتباع أحد مذاهب الأقلية الشيعية يدعى الإسماعيلية أو السبعية. كان الخلفاء العباسيون هم رؤساء فرع الأغلبية السنية من الإسلام. مع أن الحكام الفعليين العسكريين والسياسيين في بغداد منذ أواسط القرن العاشر، وهم البويهيون، كانوا شيعة، فلقد كانوا على وشك أن يزاحوا جانباً على يد السلاجقة، وكانوا سنيين. لو أن نصيراً ذهب إلى بغداد لكان في مدينة السلطة فيها موضع شك، السلطة الدينية والسياسية كلاهما. لعله اتجه منصرفاً عن عاصمة العباسيين كي يجتنب أن يعلق في الظروف الدينية والسياسية المتصارعة والمتغيرة.

طور جديد

في حجة نصير الأولى سنة ١٠٤٧م، اضطر إلى المشي من القدس إلى مكة لأنه في تلك السنة، بحسب ما ينبئنا، لم تكن قوافل للحجاج. أضف إلى ذلك أن نصيراً يخبر أن الكثير من النزُل في مكة التي شيدها الخلفاء للحجاج من العراق وفارس وآسيا الوسطى قد «صارت أطلالاً»، وأن الصهاريج التي

أنشئت لجمع ماء المطر للحجاج كانت فارغة. لعل تعليقات نصير على المشاق التي واجهها تشير إلى أن الحج عند المسلمين قد انحط مستواه على نحو ما في القرن الحادي عشر.

لكن بحلول القرن التالي انتعش الحج عند المسلمين على ما يبدو، وفي بعض الأحيان أخذ يتحد مع ما قد يدعى السفر العلمي، وهو رحلات أثمرت تقارير أغنى وأكثر تفصيلاً تتحدث عن الأماكن المزارة والمشاهد المرئية. يُقدّم ابن جبير، المولود في إسبانيا – الأندلس سنة ١١٤٥م، نموذجاً ابتدائياً هاهنا.

جاء في المرويات أن ابن جبير، وكان موظفاً عند حاكم مسلم في إسبانيا، قد أرغمه مستخدمه على شرب أقداح من الخمر، وهو حرام في الشريعة الإسلامية. لقد كان ذلك ذنباً عظيماً دفعه ليعزم على السفر إلى مكة، ولقد احتفظ بمجلة أو سجل بالسفرة (رحلة). خرج من جنوبي إسبانيا سنة ١١٨٣م وغاب سنتين. رغم أن سفره كان في المرحلة الصليبية، إلاَّ أنَّه وجد راحة كلية في حجز مكان له على متن السفن المسيحية، ولقد علّق بالفعل قائلاً إن التجار المسيحيين والمسلمين قد اختلط بعضهم ببعض بسهولة، وكانت الأجور مناسبة جداً، ولو أن المجتمَعين كانا في حرب. وعليه، فقد ركب سفينة إيطالية إلى مصر. كان يكره السفر بحراً، ولقد واجه عواصف روّعته، وفي مرحلة من المراحل غرقت سفينته بالفعل، لكنه ثابر على المضي. ما إن وصل إلى الشرق الأوسط حتى قام بالزيارة، ليس فقط إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، بل إلى القدس ودمشق وبغداد، فقدّم أوصافاً غنية لفن العمارة الذي قابله. ولقد اكتسب حماساً للسفر دام العمر كله. لقد قام برحلتين أخريين: محاولة أخرى دامت سنتين، ورحلة بحرية إلى الإسكندرية في مصر وخلالها مات. سوف يكون لعمله وصيغته أثر قوي في خلَفه الرحالة العظيم، ابن بطوطة، الذي استعمل لعمله العنوان ذاته.

يستحق جانب آخر من جوانب رحلات المسلمين الاهتمام: لقد انتشرت الرحلات في صورة مروحة، ليس فقط بين إسبانيا / شمالي أفريقيا والشرق

الأوسط/آسيا الوسطى، وكذلك خلال المحيط الهندي، بل أيضاً جنوباً في جهة مناطق أخرى من أفريقيا. وعلى هذا النحو فإن بُزْرُك ربان البحر الفارسي الذي مررنا عليه آنفاً في هذا الفصل، دوّن في قصصه قصة عن رحلاته من عُمان انحداراً على ساحل شرقي أفريقيا. تشتمل هذ القصة أيضاً على الأفارقة، الذين بيع بعضهم لتجارة الرقيق، وهؤلاء سافروا إلى الشرق الأوسط، وفي بعض الأحوال عادوا إلى أفريقيا. بحلول القرن العاشر، كان بعض أهل التجارة يرتحلون روتينياً من الخليج الفارسي انحداراً على الساحل بعيداً إلى ما هو اليوم موزامبيق.

تَنَقَّل كثير من الرحالة وأهل التجارة بين ممالك غربي أفريقيا، مثل غانا ومن بعدها مالي، وبين ساحل شمالي القارَّة. دُوّنت روايات عدة، ضاع أكثرها منذئذ. جمع عالم مسلم أندلسيّ، هو البكري، ولم يكن رحالة، هذه الروايات معاً في دراسة عملها عن أفريقيا في القرن الحادي عشر. يقدّم البكري معلومات مفصلة عن الحكومات فيها، وأديانها، ومن ذلك انتشار الإسلام، وأنماط التبادل التجاري أيضاً. لقد قبِلَ، على مثال الكثير من الرحالة الذين يعتمدون على روايات عن البلدان الغريبة، بعض المعلومات المنافية للعقل، من مثل القصة التي تروى عن نوع من الماعز الأنثى التي تلقح بمجرد الحك بشجرة. وكرر أيضاً الروايات المشكوك فيها التي تتحدث عن تفشي أكل لحم البشر. لكن عمل البكري، في معظمه، يقدّم معلومات مفصلة عن شتى الممالك الأفريقية وعن الاهتمامِ بأعراف مختلفة عن أعرافه والتسامحِ معها. إن المعرفة بأفريقيا سوف تلعب، وسنرى ذلك، دوراً مهماً في مغامرات ابن بطوطة، مثلما أن الأخير سوف يضيف مقداراً عظيماً إلى ما كان معلوماً عن شبه القارة(١) العظيمة.

لقد وُجِدَ أيضاً رحالةٌ روادٌ آخرون. أخبر ابن بطوطة نفسه عن لقاء له بالشيخ الصالح عبد الله المصري، المعروف «بالسائح»، لكن مع ثنائه عليه

---

(١) الهند – المترجم.

بقوله: «وهو من الصالحين». فلقد كان حريصاً على لحظ أن المصري لم يزر قط الصين أو سريلانكا أو إسبانيا أو مالي. «وقد زدت عليه بدخولي هذه الأقاليم». لقد قدّم الإسلام شبكة مفصلة مترامية الأطراف وتشجيعاً فعالاً على السفر، ومعهما وفرة أسبقيات في أسفار من شتى الأنواع. لكن ابن بطوطة كان هو الذي اغتنم هذا كله فعاش عيشة مغامرة لا تضاهى.

أعظم رحالة العالم؟

ولد أبو عبد الله ابن بطوطة لأسرة من علماء الشريعة الإسلامية في طنجة، وهي مدينة ساحلية في المغرب سنة ١٣٠٤م. درس هو أيضاً الشريعة، ونال أفضل تعليم متاح، وسنة ١٣٢٥م باشر السفر للحج إلى مكة – مبتدئاً بهذا حياة مهنية مذهلة، حياة سفر بحسب الأسلوب الوطيد جداً في العالم الإسلامي. أمضى في رحلته سنة ونصف، زار فيها أيضاً شمالي أفريقيا ومصر وفلسطين وسورية. بعد زيارة مكة، ذهب أيضاً إلى العراق وفارس، مستفيداً من شبكة السفر المعروفة داخل الشرق الأوسط. مع أن الشرق الأوسط كان في ذلك الوقت مقسماً سياسياً، بعد انهيار الخلافة، فإن الرحلات استمرت، واستفاد ابن بطوطة عند وصوله إلى فارس، وحيث يتجه شرقاً في آخر أمره، من الحكم المغولي السياسي الراسخ.

السنوات الأولى

على مثال كثير من الرحالة العظماء، لا نعلم عن باكر حياة ابن بطوطة، أو حتى عن دوافعه الشخصية، إلا القليل وبالحزر. لا ريب في أن غنى أسرته ومكانتها يسّرا له أن يعيش عيشة سفر واسع. كانت طنجة مدينة تجارية، تسهم بنشاط في التجارة المتوسطية، وكانت هذه التجارة نفسها آخذة في الازدياد. لكن السياق الجلي لرحلات ابن بطوطة كان هو امتداد الأمة الإسلامية من إسبانيا والمغرب، غرباً، إلى جنوبي شرقي آسيا، ومسالك التجارة الممتدة بين الشرق والغرب، والتي رافقت الإسلام في تطوره إبَّان القرون ما بعد الكلاسيكية. كان

ابن بطوطة رحالة مذهلاً، غطى من المسافات أكثر مما حققه رحالة آخر إلى حينه، بيد أنه كان يعمل داخل منظومة راسخة، ولا يتقحم روتينياً داخل أرض غير مألوفة. وكما سنرى، لما أصرَّ على المضي إلى ما وراء العالم الإسلامي، سرعان ما شعر بعدم الارتياح، وإن ثابر في كثير من الأحيان على المضي.

شكّل الإسلام إطاراً لرحلات ابن بطوطة ببضع طرق معينة. أول ذلك أنَّه بصفته من علماء الشريعة والفضلاء المهذبين، كان له الوصول إلى ما تتيحه له مهنته في شتى أرجاء العالم الإسلامي. كان لأهمية الشريعة الإسلامية معنى ألا وهو أن رجال الشرع لم يكونوا مقيدين بدول سياسية خاصة، بل كان لهم أن يعملوا داخل مجال الأراضي التي يسود فيها الإسلام. مع افتقارنا إلى التفاصيل الشخصية، يمكننا الافتراض أن ابن بطوطة قد تزيا، أيضاً، بالزي الشائع عند رجال الشرع المسلمين ونحن نعلم أنه كان، على مثال نظرائه، ملتحياً. الأمر الآخر هو أن ابن بطوطة كان منغمساً في أعمال الورع المجهدة المميزة للحركة الصوفية في الإسلام. لقد اشتمل أكثر أسفاره على زيارات لأولياء الصوفية الصالحين ولمشاهدهم، حيث أمكنه أن ينقل أخبار الحياة الدينية الإسلامية لجمهور عريض من المسلمين المثقفين المتحمسين جداً للأخبار والإلهام الدينيين. أضف إلى ذلك أن ابن بطوطة قد تأثر بلا ريب، ولا سيما في رحلاته الأولى، ليس فقط بعميق الالتزام بفريضة الحج بل أيضاً بالرغبة في الاستفادة من مراكز التعليم الإسلامي المتقدمة، كالقاهرة وبغداد، التي تفوقت بمراحل على ما كان متاحاً في المغرب في ذلك الأوان. وأخيراً، استفاد ابن بطوطة أيضاً من فريضة الزكاة الإسلامية. لقد تكرر كثيراً، في أسفاره، حتى أثناء الرحلة الأولى التي اخترق فيها شمالي أفريقيا نحو مكة، أن الحكام والأغنياء من الأفراد الصالحين كانوا يعطونه نفقة أو غير ذلك من السلع، ذلك أن الإنفاق على ابن السبيل كان من المصارف الأساسية للزكاة التي فُرِضت بصفتها أحد أركان الإسلام المقدسة الخمسة. بعد ذلك، في الشرق الأوسط، ساعد الفقهاء المسلمون أو الحكام المحليون ابن بطوطة مراراً وتكراراً، إما بتقديم النفقة أو قوافل الإبل

وغير ذلك من مؤن السفر. إن صلاح ابن بطوطة الواضح ومكانته الاجتماعية والعلمية أنزلاه منزلة رفيعة لنيل المساعدة العطوف.

جعل ابن بطوطة بواعثه الدينية واضحة، في وصفه لانطلاقه خارجاً من وطنه، خروجاً سوف يصبح أول خطوة نحو غيبة سنين طويلة: «كان خروجي من طنجة، مسقط رأسي... معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وراكب أكون في جملته، لباعثٍ على النفس شديد العزائم وشوقٍ إلى تلك المشاهد الشريفة كامن في الحيازم. فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور الوكور، وكان والدايّ بقيد الحياة فتحملتُ لبعدهما وصباً كما لقيا من الفراق نصباً»(١).

الحجة الأولى

اشتمل الحج نفسه، وكان هو السبب في رحلة ابن بطوطة الأولى، على مسير ٣٠٠٠ ميل من المغرب إلى مكة. لما كان من المستحيل استعمال السفن الأوروبية أو الإسلامية على ساحل شمالي أفريقيا، فقد سافر أكثر الحجاج براً، مسافرين زمراً طلباً للأمان من الأخطار الكثيرة، ومن ذلك اللصوصية، التي كانت تهديداً دائباً. كان في وسع ابن بطوطة الانطلاق وحده آمناً، لأن المغرب كان يومئذ تحت حكم ملكي مستقر، لكن كان له أن يتوقع أن يعثر في الطريق على زمر من المسافرين. ولما تحرك لحق، فعلاً، برفاق، وبمشاكل غير مرتقبة أيضاً. في مرحلة من المراحل، أصابه المرض، وأُلح عليه حتى يلبث في مكانه حتى يبرأ، لكنه حاجج قائلاً إنه إذا كان الله قد قضى بموته فلتكن وفاته في الطريق، وأصرَّ على المضي. بعد ذلك هاجمته وصحْبه عصبةٌ من اللصوص راكبين الإبل، لكن، كما قال، «عصمنا الله منهم». في مفصل آخر من مفاصل

(١) أخذت هذا الاقتباس وما شاكله عن: رحلة ابن بطوطة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٥٨م- المترجم.

رحلته، حاقت به الوحدة، لما سلّم أهل إحدى المدن على بعض صحبه وتجاهلوه؛ لكن أحد الحجاج آنسه ولازمه إلى أن نزلوا جميعاً آمنين في مدينة جديدة. بحلول الوقت الذي خرجوا فيه من مدينة تونس، على مسافة أخرى من الطريق في شمالي أفريقيا، كان قد أفلح في ترقية دراساته الإسلامية فاتُّخِذ إماماً[١] لزمرة المسافرين بسبب قوته العلمية الغزيرة ومؤهلاته الشرعية. أيضاً، خطب ابن بطوطة ابنة لأحد صحْبه، لكنه اختلف بعد ذلك مع أبيها عند اطّراد الرحلة ففسخ العقد؛ لكنه تزوج حينئذ واحدة أخرى من بين صحْبه (وهي الأولى من عدة زوجات سيذكرهن في رحلاته، من غير ذكر معلومات عن أولئك النسوة أو كيف جرت علاقته بهن).

في مصر، لقي ابن بطوطة أحد الصوفية الذي أدرك حماس الشاب للسفر. حضَّ الصوفي زائره على القيام برحلات إلى الهند والصين ليلقى صوفيين زملاء له هناك، وهذه إشارة أخرى إلى الاتساع العظيم للروابط الإسلامية في العصر ما بعد الكلاسيكي وما وراءه. كتب ابن بطوطة، في ما كتبه لاحقاً، قائلاً إنه «عَجِب» من نبوءة الصوفي: «وألقي في روعي التوجّه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه».

إن اشتراك ابن بطوطة في رحلة حج مبهرجة على نحو كبير جعله شخصاً غير اعتيادي بين الرحالة المسلمين، لكن لم يجعله نموذجاً مثالياً. لقد كان، على كل حال، يزور بقاعاً إسلامية ذات أهمية خاصة. كان قليلاً عدد الذين لهم الوقت أو الموارد التي تُنفَق في سفر طويل كهذا، ومثالهم ابن جبير. مع أن الوصف الذي وضعه ابن بطوطة لاحقاً لهذه الرحلة الأولى مثير للاهتمام جداً عند المؤرخين بملاحظاته لمكة والقاهرة ودمشق وبغداد، فإنه أيضاً يوافق باعتدال الإطار المعروف جداً: لقد وُجدت في الوقت المشار إليه روايات بالعربية أخرى كثيرة تصف الأماكن نفسها. من المؤكد أن ابن بطوطة قام برحلة

---

(١) الصحيح: قاضياً، بالرجوع إلى النص العربي – المترجم.

وجيزة براً من بغداد إلى فارس وآسيا الوسطى، مستفيداً مرة أخرى من استقرار السيطرة المغولية، لكن هذه أيضاً لم تكن تجربة غير معتادة في العقود التي هي عمر الإمبراطورية المغولية.

كانت السلسلة التالية من الخطوات هي التي أخذت تُفرد ابن بطوطة بصفته شخصاً وجد راحة عظيمة على نحو خاص في الوصول إلى أقصى امتدادات الإسلام، وصار له حماس للسفر مفاجئ، نهم على نحو ظاهر. وفي الحقيقة، لقد أخذ ابن بطوطة يجد نفسه في أماكن لم يعتزم قط الذهاب إليها.

تجوالات

بعد إقامة طويلة في مكة، في زيارة أخرى لها، انطلق إلى اليمن والخليج الفارسي (الذي يعرف في المنطقة، في يومنا هذا، بالخليج العربي). مرة أخرى، وجد فرصاً للدراسة الدينية والشرعية، لكن سرعان ما مضى نحو عدن، وفي ذهنه في ذلك الوقت، على الأرجح، لو يمكنه العثور على سفينة تتوجه نحو أفريقيا، فإنه سوف يذهب إلى هناك أيضاً (علماً أنه كان يكره السفر بحراً). لقد دخل في هذه المرحلة في قلب تجارة المحيط الهندي، مختلطاً مع تنوّع في الناس أعظم مما قابله في أسفاره إلى حينه. كذلك أخذ يلقى طائفة واسعة النطاق من التجار الأثرياء، الذين ربما أسهموا في خط سفره، بيد أنهم نالوا ثناءه على كل حال لأنهم دفعوا الزكاة «على ما فرضه الشرع».

في أفريقيا، أتت به الوقفة الأولى إلى مكان يدعوه «أقذر مدينة في المعمورة وأوحشها وأكثرها نتناً»، لكن سرعان ما وصل إلى الصومال، مقديشو بالتحديد، وهي ميناء أفريقي مزدهر حيث الكلام بالعربية ذائع جداً وحيث أتاحت المؤهلات الدينية لابن بطوطة أن يحتك بإمام المدرسة الإسلامية المحلية وبحاكم المدينة. كذلك، كانت هذه المرحلة هي التي أصبحت فيها رواية ابن بطوطة أكثر تنوعاً، يصف فيها أزياء وعادات غريبة عليه، وإن توافقت عادةً مع الأحكام الإسلامية. وعليه، يجمع تقريره بين العَجَب من الأثواب الملونة والمواكب الموسيقية للحكام

الساحليين الأفارقة، وبين ملاحظته أيضاً عاداتهم الصالحة واحترامهم «لأهل الدين والنسب الشريف».

من شرقي أفريقيا رجع ابن بطوطة إلى الجزيرة العربية، وهي رحلة بث فيها التشويق مخاوفه من أن دليله كان يريد قتله كي يسلبه أثوابه، لكن ابن بطوطة هزَّ بالرمح مهدداً وانصرف، فوصل منهكاً إلى بلدة قَلهات حيث أخذ ستة أيام استراحة في منزل الحاكم المحلي. كانت الوقفة الأخرى، وقد رجع مخترقاً الجزيرة العربية، هي مكة مرة أخرى.

كان المقصد التالي لابن بطوطة، من حيث المبدأ، هو الهند، حيث كان يرجو أن ينال وظيفة في سلطنة دلهي، وهي إمبراطورية إسلامية شاسعة في شبه القارة. لكن مساعيه لتدبير وسيلة النقل التي تمضي إلى هناك مباشرة – وكان ذلك يشتمل عبور الخليج الفارسي – أخفقت فتوجّه بدلاً من ذلك براً إلى البلدان التي يهيمن عليها الأتراك في شمالي الشرق الأوسط. أخذ مركباً إيطالياً صعَدَ به الساحل الشرقي للمتوسط – في الوقت المشار إليه كان الأوروبيون يهيمنون على مسالك النقل البحري هذه – ثم عزم على الانتقال براً خلال الأناضول. لقد آنسه رفاق أتراك من أهل الصناعات أكرموه وأضافوه في انتقاله من بلدة إلى أخرى. لقد لقي، كما هي الحال دائماً، عدداً من علماء الدين وأبناء النخبة السياسية. لقد جلب له علمه اهتماماً جديداً من الحكام الأتراك، المتحمسين لمزيد علم بالشريعة الإسلامية ولاكتساب الشرعية كحكام مسلمين، وكُلّف بكتابة أحاديث نبوية، وهي أهم ما في الإسلام من تصنيف شرعي تقليدي. لقد أخذ في اكتساب الثروة، ومن ذلك أول مملوك له، ما جعل سفره أكثر تعقيداً، لكنه صار، على الأقل في مرة واحدة، أكثر راحة. كذلك وجد، على نحو متزايد، أنه بحاجة إلى استئجار مترجمين، لأن العثور على متكلمين بالعربية صار أقل توقعاً.

مع بقاء ابن بطوطة نظرياً متوجهاً إلى الهند، لكن متحمساً جداً – على الأرجح – لاستكشاف امتدادات الحضارة الإسلامية، فقد عبر في المرحلة التالية إلى القرم، متوجهاً نحو الممالك المغولية الضخمة، أو الخانات، في روسيا

وآسيا الوسطى. في مرحلة من المراحل تفاعل مع مجمع للتجار الأوروبيين، زاخر بالكنائس التي أثارت أجراسها حنقه لِما رآه فيها من علامة على خرق لحرمة الدين، لكن سرعان ما انتقل إلى مدن إسلامية على نحو أكثر رسوخاً.

في آخر المطاف، بحلول سنة ١٣٣٢م، وصل ابن بطوطة إلى مركز السلطة المغولية في روسيا، شمالي بحر قزوين على نهر الفولغا. بحلول الوقت المشار إليه كان ينتقل بقطار من العربات، وهي تجربة جديدة بالنظر إلى عظيم تجربته مع دواب الحمل (الحمير أو الإبل)، لكنها وسيلة السفر الشائعة في آسيا الوسطى. على مثال الزوار الأوروبيين قبل ذلك ببضعة عقود (انظر الفصل الثامن)، وجد الخان متسامحاً ومتحمساً معاً للتعامل مع الزوار الأجانب. كان البلاط مسلماً من حيث المبدأ، لكن ابن بطوطة وجد الكثير مما يقوله عن العادات الطليقة للنساء المغوليات، وقد تعوّدن على أخذ دور اجتماعي وسياسي مهم وعلني. كانت النساء، عنده، تبدو مثل خادمات فأذهله اللطف الذي كنّ يُعاملن به في المآدب، إذ كان الحاكم لا يجلس حتى تأخذ الملكة مجلسها. ولقد أضاف: «وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب».

ما يثير السخرية على نحو ما أن إحدى زوجات الحاكم هي التي فتحت السبيل أمام مغامرته التالية. بكت امرأة رومية اسمها بَيلون، كانت قد أُرسِلت من قبل الإمبراطور البيزنطي المحاط بالأعداء، والذي راودته آمال عقيمة في عقد تحالف، بكت لما حدثها ابن بطوطة عن المسافات التي قطعها في سفره من بلده الأصلي، لقد ذكّرتها أسفاره كم هي بعيدة عن ديارها. لكنها نالت الإذن بالرجوع إلى القسطنطينية لتضع مولودها، ولقد عمل ابن بطوطة على ترتيب أمر مرافقتها – في أول تجربة له على وجه التحديد خارج حدود الإسلام. لقد آلمه أن الأميرة خلعت كل تظاهر لها بالإسلام حالما خرجت من الحصن[١]،

---

(١) هو حصن مَهْتولي أول أراضي الروم – المترجم.

عند دخولها ما يدعوه «بلاد الكفر». لكنه اعترف بأن صحبه احتملوا صلاته بعناية.

أمضى في القسطنطية شهراً، حيث طوّف في أرجاء المدينة كلها من غير تعليقات تحريرية. بعد ذلك، رجع إلى المركز المغولي في روسيا، أما الأميرة فبقيت عند أبيها. بعد ذلك، وأخيراً، وفي شدة الشتاء، غادر أقصى مقصد وصل إليه في جهة الشمال وأخذ في تجواله نحو الهند، وهي رحلة ضخمة بنفسها ولنفسها. قابل الكثير من التجار العرب والمسلمين الآخرين، وكان بعضهم متوجهاً نحو الهند، وبعضهم نحو الصين، وبعضهم نحو الشرق الأوسط رجوعاً. وأخيراً، بعد اجتياز بَلْخ (وقد وجدها «خاوية على عروشها غير عامرة») ومدن للقوافل أخرى عدة، اخترق هندوكوش داخلاً إلى وادي نهر السند في ربيع سنة ١٣٣٣م. لقد مرت على خروجه من مكة آخر مرة ثلاث سنوات، ولقد كان متحمساً جداً إلى نيل استخدام أكثر دواماً في بلاط سلطان دلهي الذي سمع عن تسامحه وغناه، والذي اشتهر بحماسه الشديد لاستخدام الأجانب الموهوبين. بالطبع كان على ابن بطوطة أولاً أن يتجول قليلاً في أرجاء شمالي الهند الغربي، إخلاصاً منه لطبعه: لقي بعض شيوخ الصوفية (النسَّاك)، وحصلت مناوشة بينه وبين كركدن، وواجه لاحقاً عصبة كبيرة من قطاع الطرق الهندوس ونجا منهم. كذلك واجه إجراءات بيروقراطية مفصلة تفصيلاً غير معتاد. لقد تحققت حكومة دلهي من أمر القادمين الجدد بعناية، ووجب على ابن بطوطة أن يتعهد بخدمة الدولة حتى سُمح له بالمزيد من التقدم.

من الهند إلى الصين

أقام ابن بطوطة في مكان واحد تقريباً لأكثر من ست سنين، وهي فترة راحة غير معتادة. لقد نال منصباً رسمياً وعاش عيشة رخاء مدة من الزمان. لكن الصعوبات السياسية أحدقت بالسلطان، وكان في انتقامه متعطشاً للدماء أكثر مما يتقبله ذوق ابن بطوطة. أيضاً، لعل المغربي اتخذ زوجة له من المعسكر غير المناسب، ولازم قطباً صوفياً كان على الجانب غير المناسب من السلطان. في مرحلة من المراحل اعتُقل ابن بطوطة، فصام ورتّل القرآن ملتمساً

حفظ الله. وبعد إطلاق سراحه، اتّبع أسلوباً في الحياة أكثر تواضعاً وسعى إلى سبيل يخرجه من سيطرة السلطان. اقترح الخروج إلى مكة للحج، وهو مما يصعب رفضه، لكن السلطان عرض عليه بدلاً من ذلك فرصة ليصبح سفيراً له في البلاط المغولي في الصين، علماً منه بحبه «للأسفار والجولان». كانت هاهنا فرصة لمزيد مغامرة، مرة أخرى خارج حدود الإسلام، وكان فيه أيضاً دعمٌ مالي وسياسي قوي. سنة ١٣٤١م، كان ابن بطوطة قد وضع قدمه على الطريق من جديد.

كان الكلام عن الخروج من الهند أسهل من فعله. مرة أخرى، اضطرت الزمرة التي كان ابن بطوطة فيها إلى مقاتلة عدد كبير من قطاع الطرق الهندوس وإلى التغلب عليهم، في وضعٍ حيث كانت سلطة سلطان دلهي تتدهور بسرعة. بحسب الرواية التي وضعها الرحالة لاحقاً، قتل مع صحبه عدداً كبيراً من المهاجمين، لكن ابن بطوطة انفصل في تلك العملية عن زمرته الكبرى، وفي مرحلة من المراحل وقع في الأسر. مع أنه كان لا يتكلم الهندية، فإن القليل من آسريه كانوا يعرفون الفارسية فتمكن من المجادلة في أمر إطلاق سراحه، وإن كان ذلك على حساب التخلي عن كل ما يملك. تولى أمره مسلم هندي، وتمكّن من الالتحاق من جديد بجزء من الوفد الرسمي؛ مع أن بعض زملائه تطيروا من الرحلة، فقد أصر على المضي قُدُماً، وفي آخر المطاف أفلح في الوصول إلى ساحل الهند الغربي، حيث كان السلطان دبّر أمر السفينة. لكن مشاكله لم تكن قد انتهت. لقد تهيأ لركوب إحدى السفن الصينية الضخمة التي أثرت فيه بحجمها ومتانتها بالقياس إلى سفن الدَّهو العربية الأصغر حجماً والأكثر رقة. جرفت عاصفةٌ القارب بعيداً وفيه كل الهدايا التي اؤتمن على حملها في بعثته إلى المغول في الصين. أدرك ابن بطوطة أن بعثته قد أُجهِضت فدخل في عداد أتباع مسلم محلي، وقاد قوة عسكرية محلية توجهت لقتال دولة – مدينة هندوسية منافسة على الساحل الغربي، لكن الحملة فشلت، بعد نجاح أولي.

لكن، إذا كان من الواضح أن الخيارات الرسمية لابن بطوطة كانت آخذة في النفاد فإن اهتمامه ببلوغ الصين ظل يتوقد كما كان، فقرر الانطلاق بمفرده، معوّلاً على كرم الضيافة عند الجماعات الإسلامية في جنوبي شرقي آسيا. زار أولاً جزر المالديف، ملاحظاً أنه سمع عنها «الكثير». لكن خطته الأولية وهي أن يُمضي قليلاً من الوقت كسائح تغيرت، لما اتضح أن علمه بالشريعة يمكّنه من تسلُّم منصب في السلطة في الدولة الإسلامية الفتية القائمة في الجزر، حيث كان يُرحَّب بعمق بكل مرجعية رفيعة تأتي من الخارج. ثبّت ابن بطوطة منصبه غير المتوقع بأن اتَّخذ زوجة له من إحدى أسر النخبة، مستمتعاً استمتاعاً واضحاً بالفرصة التي سنحت له ليكون لاعباً أساسياً. سوف يدّعي لاحقاً – ومن المستحيل العلم كم نفخ في حجم حياته المهنية – أنه بذل جهداً كبيراً لإرساء الشريعة والعقوبات الإسلامية الشرعية في الجزر، في وجه ما رآه بوضوح ممارسة سيئة. لكنه لم يفلح في حملته لجعْل النساء المحليات يسترن نصف أجسادهنّ العليا، رغماً من بضعة أوامر بوجوب أن يلبسن الثياب. «فكنتُ لا تدخل إليّ منهنَّ امرأة في خصومة إلا مستترة الجسد، وما عدا ذلك لم تكن لي عليه قدرة». سرعان ما وضعت المنافسات السياسية المحلية نهاية لحياة ابن بطوطة المهنية في المالديف، فأبحر إلى سريلانكا. سوف ينضم لاحقاً إلى مسؤولين في مَعْبَر (في جنوبي شرقي الهند) من أجل وضع الخطط لتنظيم قوة تهاجم المالديف، لكن هذه الخطط لم تثمر شيئاً.

طوّف ابن بطوطة في سريلانكا قليلاً، واشتمل تطوافه على رحلة إلى «قمة آدم»، وهو جبل تعظمه، لأسباب مختلفة، بضعة أديان. لقد انضم في هذه المجازفة إلى زوار مسلمين وبوذيين وهندوس، وخيّمَ ثلاثة أيام بالقرب من القمة. أفلح أيضاً في الحصول على هدايا قيمة من الحاكم المحلي. ولما عاد رحالتنا وركب سفينته لأجل المرحلة التالية من سفره، سرعان ما تحطمت السفينة مرة أخرى، واحتجز داخلها ليلةً في وسط المياه العالية لأنه لم يكن يحسن السباحة جيداً بما يكفي لينجو بنفسه. جاءت عقب ذلك نوبة خطرة من الملاريا ومن

بعدها – وقد أخذ طريقه مرة أخرى – هجوم للقراصنة فَقَدَ فيه كل الجواهر التي أعطيت له في سريلانكا. «لم يتركوا لي ساتراً خلا السراويل». كان الاضطراب متفشياً في مياه جنوبي الهند وجنوبي شرقي آسيا، حيث نشط الكثير من القراصنة، لكن ابن بطوطة كان ينال في هذه المرحلة مقداراً من سوء الحظ أكبر من قسطه. كان ما يثير الإعجاب، كما هو الأمر دائماً، تصميمُه على الاستمرار في التقدم. بعد انعطافات قليلة، واصل تقدمه أخيراً إلى بورما فشبه جزيرة الملايو فجزيرة سومطرا وكان فيها شبكة تجارية إسلامية تتصل بالصين مباشرة.

كان الإسلام في أول بدء توطده في ما هو اليوم إندونيسيا، لكن كانت هناك بنية دينية فيها كفاية كي يعثر ابن بطوطة على موظفين محليين يضيفونه، فينعم بالفرصة للنقاش في الشريعة الإسلامية. نظم أمير محلي السفينة التي ستأخذه إلى الصين، فوصل إليها بعد رحلة بحرية دامت نحو أربعة أشهر، سنة ١٣٤٦م.

كان الوصف الذي وضعه ابن بطوطة لاحقاً للصين سطحياً على نحو غير اعتيادي، بالقياس إلى غني أوصافه للهند أو جزر المالديف، ولقد عجِبَ بعض العلماء فتساءلوا: هل سافر إلى هناك حقاً؟ (وهي معضلة سنواجهها أيضاً مع الرحالة العظيم الذي يوضع موضع المناقشة في الفصل التالي، أيضاً). لكن ما من سبب حقيقي للشك في الزيارة، ولإيجازه النسبي، في الحقيقة، تعليلٌ مختلف.

لقد غمرت الصين ابن بطوطة بما عَنْوَنه أحد المؤرخين، وكان عنواناً مناسباً، أنه نوع من الصدمة الثقافية. فمن جهة، أعجب إعجاباً عظيماً برخاء الصين وسياساتها المستقرة تحت حكم المغول (الحكم الذي كان يوشك أن يتفكك، ولكن ما من سبيل لابن بطوطة إلى العلم بذلك). «وبلاد الصين آمَن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين، فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها». كان التباين مع ما خَبِرَه،

ولا سيما في الهند وما جاورها، شديداً شدة واضحة. من جهة أخرى، لقد وجد الصين، وهي خارج المدار الإسلامي على نحو بعيد جداً، شيئاً مُفقداً لحس الهوية على نحو عميق: «[بلاد الصين] على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها، فمتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة فأقلقني ذلك حتى كنت ألازم منزلي فلا أخرج إلا لضرورة، وكنت إذا رأيت المسلمين فكأني لقيت أهلي وأقاربي». لعل هذا الحس، حس الرفض لشعب شديد الابتعاد عن شريعة الله قد أنتج السطحية في الذكريات التي جاءت لاحقاً. يدَّعي ابن بطوطة أنه قطع في الصين ٣٥٠٠ ميل أو تزيد، زار فيها بضع مدن. لقد احتكَّ، على ما يظهر، ببعض مبعوثي المغول الذين لقيهم في الهند، فأعانوه بتقديم وسائل الراحة والتسلية. لقي تاجراً هندياً مسلماً يعرفه كان أقرضه مالاً في دلهي، وهذه مرة أخرى علامة على غنى الشبكة التي يمكن أن تحيط بالرحالة في شتى مناطق آسيا. بل إنه، وقد قبِل الدعوة لزيارة الإمبراطور المغولي في بكين، لقي عالماً مغربياً شاباً كان أيضاً يرتحل بمفرده. لكن، ومع أن ابن بطوطة يقول إنه ذهب إلى بكين، فمن المحتمل أن هذا الجزء من الرواية مختلَّق كلياً. الواضح، هو أنه بعد إقامةٍ في الصين قصيرة بعض الشيء رجع إلى الساحل الجنوبي فوجد المركب الذي وفَّره له الحاكم السومطري فانطلق راحلاً من جديد - إلى وطنه في حقيقة الأمر.

قاصداً الوطن

ردّته رحلته، التي أخذت منه ثلاث سنوات، أولاً إلى الهند، حيث من الراجح أنه فكّر في محاولة استئناف نوع من الحياة المهنية، لكنه قرَّر بخلاف ذلك، والسبب هو جزئياً أن الذين كانوا يهيئون له أسباب الوصول سابقاً قد تفرقوا. كان القيام بحجة أخرى عوناً على تنظيم خط رحلته، لكنه لم يَمضِ مباشرة بل رجع مرة أخرى إلى فارس وبغداد ودمشق، حيث عَلِم من جملة ما علمه أن ابناً له أنجبه في زيارته الأولى، سنة ١٣٢٦م، قد مات وهو في العاشرة. كذلك عَلِم من فقيه مغربي أن أباه توفي قبل ذلك بخمس عشرة سنة.

في سفره قُدُماً خلال سورية، سنة ١٣٤٨م، واجه أولاً أمواج الطاعون الدبلي الذي كان قد بدأ يجتاح شرق المتوسط – وسرعان ما سوف يدعوه الأوروبيون الموت الأسود. سوف يُخبر ابن بطوطة عن عظيم معدّل الوفيات التي صادفها، وعن الابتهالات الدينية التي أحدثت[١] المرض، من المسيحيين واليهود، وكذلك المسلمين. لم يورد ذِكراً لاحتياطات خاصة اتخذها هو، بل لقد مضى إلى مصر (حيث كان معدّل الوفيات أعلى) ومن هناك إلى مكة، وبذلك نال أمنيته برؤية البيت الحرام مرة أخرى.

ماذا بعد؟ من الراجح أن هذا هو السؤال الذي واجهه في الوقت المشار إليه. لما كان الطاعون ينال من السكان والرخاء معاً منالاً عظيماً، في أقاليم كمصر، فإن فكرة العودة إلى الوطن ربما بدت جذابة على نحو خاص. كانت أمُّه، بحسب ما يعلمه، لا تزال قيد الحياة. لقد مرت عليه في غربته أربع وعشرون سنة، ويمكننا التخيل أنه أراد قسطاً من الهدوء. ويمكننا التوقُّع أن الرحلة إلى الوطن لم تكن بلا أحداث: وقفة قصيرة في صقلية – وهي المرة الوحيدة التي دخل فيها ابن بطوطة أرضاً كاثوليكية – أتت بتهديد آخر من القراصنة، ولذلك كان المغربي سعيداً بالخروج بسرعة.

لما وصل طنجة علمَ أن الطاعون قد نال من أمه قبل ذلك بأشهر قليلة. كان هناك أقارب وأصدقاء آخرون يراهم ابن بطوطة، ولا ريب في أنه أخذ يؤسس لسمعة بصفته مصدراً لحكايات مذهلة عن الرحلات. لكن سرعان ما أصبح متململاً، فانضم إلى قوة إسلامية كانت تعمل على الدفاع عن جبل طارق، ومن هناك مضى إلى بضع مدن إسلامية في جنوبي إسبانيا، حتى وصل إلى غرناطة. لقي هناك الزعماء المحليين والفقهاء المسلمين، بحسب نمطه المعتاد. كذلك تعرّف على كاتب ومؤلف شاب، ابن جُزَيّ، الذي فُتن

(١) الصحيح أن الابتهالات خففت من وطأة الوباء، وذلك بالرجوع إلى الترجمة الإنكليزية التي يستند إليها المؤلفان – المترجم.

بحكايات ابن بطوطة وأخذ يدوّن بعض أسماء الذين لقيهم الرحالة على مدى ربع القرن الذي مضى. في وقت سريع نسبياً، عاد ابن بطوطة إلى المغرب. من الراجح أنه كان يفكر في الاستقرار في حياة مهنية قاضياً في مدينة فاس المزدحمة. كان قد بلغ السادسة والأربعين.

أفريقيا الغربية: مالي

بيد أنه كان من العالم الإسلامي جزء مهم لم يزره ابن بطوطة بعد، ومن الظاهر أن الجاذبية كانت لا تقاوم. أومأت إليه مملكة مالي، على مسافة ١٥٠٠ ميل، وراء الصحراء، فقام سنة ١٣٥١م بآخر رحلة عظيمة من حياته المهنية لكي يتعرّف على غربي أفريقيا. كانت هاهنا فرصة أخرى لبيع خدماته الشرعية في إقليم كان فيه، على مثال جنوبي آسيا وجنوبيها الشرقي، حكامٌ يحاولون أن يزيدوا حكوماتهم قرباً من المبادئ الإسلامية. من المحتمل أن هاهنا أمراً أكثر أهمية: كانت هنا طائفة أخرى من المشاهد تستحق الرؤية، داخل نطاق العالم الإسلامي.

اشتملت رحلة ابن بطوطة إلى مالي على الالتحاق بقوافل الإبل؛ لقد اعتمد الأمر كثيراً على الأدلاء الموثوقين العارفين بمواضع الواحات الكبرى، وهي ضرورية لاجتياز مئات الأميال من الصحراء. سوف ترد في رواية ابن بطوطة التي وضعها لاحقاً أخبار عن العبيد في مناجم الملح البائسة، الضرورية لاقتصاد الإقليم، وعن خيبة أمله في الأجر الزهيد الذي عرضه أول حاكم قابله من حكام ما تحت الصحراء الكبرى. مرة أخرى، رغماً عن الرغبة الشديدة في الرجوع إلى الوطن بأسرع ما يمكن، أصرَّ على المضي قُدُماً حتى الوصول إلى عاصمة مملكة مالي. هنا، لاحت خيبة أملٍ أعظم قدراً، فلقد تُرك ينتظر بضعة أشهر حتى أعاره السلطان اهتماماً جدياً. «سافرت إلى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولي ببلادك أربعة أشهر ولم تضفني ولا أعطيتني شيئاً، فماذا أقول عنك عند السلاطين». ورغم أنه نال في آخر المطاف منزلاً ومخصصات من الذهب، فقد ظل يعتقد أن الحاكم بخيل.

لقد ثبت أن ما رواه ابن بطوطة من أوصاف لأفريقيا هو أهم الأدلة التاريخية التي أنتجتها رحلاته، بسبب قلة التوثيق البديل لأفريقيا الغربية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها. لكن الروايات كانت أيضاً ملونة تلويناً شديداً بازدرائه للممارسات التي لا ترقى بنظره إلى الممارسات العربية.

أسرت انتباهه على نحو خاص معضلتان. في المقام الأول، كان الكثير من الحكام يتمسكون بشدة بمبدأ الهرمية، بل إنهم كانوا أحياناً لا يكلمون الآخرين مباشرة بل من خلال متكلمين باسمهم. ببساطة، لم يتوافق هذا الأمر مع ما عند ابن بطوطة من حسِّ التفاعل الذي ينبغي أن يكون بين الحكام وشعوبهم. كانت المعضلة الأخرى، وقد واجهها قبلاً، تشتمل على المرأة. لقد أتاحت الأعراف الأفريقية في ما تحت الصحراء رفعاً للكلفة وأنساً كبيراً بين المرأة والرجل، بحسب رأيه؛ وفي بعض الأحيان، كانت النساء تلبس لباساً غير لائق. لسرعان ما وجد ابن بطوطة سلوكيات من هذا النوع «منْكراً».

من ناحية أخرى، وجد ابن بطوطة الكثير مما يعجب به أيضاً. مع إكراه الحكام أتباعهم على إبداء الكثير من التذلل، فقد أثنى ابن بطوطة على "قلة الظلم" في مالي (وكان يعني بذلك، من جملة أشياء أخرى، العقاب الصارم على الجرائم). «ومنها شمول الأمن بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً»، وهذه خصائص من الجلي أنها ضربت على وتر حساس عند المغربي بالنظر إلى شدة ما ناله في خبرته الشخصية. كذلك نالت الأعمال الصالحة الإسلامية ثناءً، «ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضرْبهم أولادهم عليها». إن هذا الصلاح قد جعل ابن بطوطة عسراً يجد مشقة كبيرة في فهم النواحي التي تبدو الثقافة المحلية فيها ذات أسبقيات، ومن ذلك معاملة المرأة.

زار ابن بطوطة بضع مناطق من مالي، ومن ذلك مدينة تمبكتو العلمية العظيمة التي شرعت لتوها في الصعود العظيم على مستوى العالم الإسلامي. لقي بضعة زعماء محليين، أحب بعضهم أكثر مما أحب مضيفيه الأولين. لكن

بحسب الرواية التي وضعها لاحقاً، أرسل الحاكم المغربي رسولاً يستدعيه إلى فاس، وأغلب الظن أن السبب هو حماسه الشديد للتعرُّف على أحوال مالي في ما يتعلق بالظروف الاقتصادية والدبلوماسية معاً. وعليه، وفي أوان شدة الشتاء – يزعم ابن بطوطة أن رجوعه خلال جبال الأطلس كان أشد عليه من رحلاته الشتوية السابقة في آسيا الوسطى – أخذ في العودة إلى الوطن. لقد بلغت رحلاته خاتمتها.

كتاب ابن بطوطة وتلقّيه

توفي ابن بطوطة سنة ١٣٦٨ أو ١٣٦٩م. أمضى السنوات الأخيرة من عمره قاضياً في المغرب، في غموض نسبي. من الممكن جداً أنه بدأ في تأسيس أسرة جديدة. لكن سنواته الأخيرة باينت بجلاء شهوة التجوال التي ميزت القسم الأكبر من عمره منذ بلغ الرشد.

لكن ابن بطوطة، في ما بين الرحلات والخدمة الهادئة، سجّل أيضاً رحلاته، وسوف يكون ذلك، مع الرحلات نفسها، مصدراً لشهرته النهائية وأكبر إسهام له في التجربة الإنسانية. لا ريب في أنه بعد رجوعه إلى فاس سنة ١٣٥٤م رفع أخباره إلى السلطان، أبي عنان، الذي أمره حينئذ أن يقيم في فاس ويدوّن حكاية رحلاته جميعها كي تكون مسرة للبلاط الملكي. ولما كان ابن بطوطة أبعد ما يكون عن التأليف فقد كلّف السلطانُ ابنَ جُزَيّ، الكاتبَ الذي لقيه الرحالة في غرناطة، بالقيام بدور المعاون لصوغ العمل في صورة رحلة أي رواية للرحلة. عمل الاثنان معاً نحو سنتين، ابن بطوطة يملي الملاحظات والكاتب يغلفها في صورة حكاية متناسقة. كانت النتيجةُ قصةً ذات صبغة شخصية جداً، فيها تأكيد عظيم للمغامرات الفردية ولقوة شخصية الرحالة، ولم تكن دراسة لأقاليم شتى موثقة بعناية. بيد أنه قد دخل في القصص قدر لا بأس به من المعلومات الأوسع نطاقاً، وهذ هو السبب – بالإضافة إلى مجرد الافتتان بمآثر ابن بطوطة الطموح – السبب في أنه لا تزال لها قيمة كبيرة إلى يومنا هذا.

على مثال عروض كثيرة من هذا الصنف - وسوف نصادف واحداً آخر في الفصل التالي - فإنه من المستحيل تعيين درجة ما تحويه الرحلة من إعلاء شأن الذات وما ينتج عن ذلك من مبالغة. من الجلي أن ابن بطوطة أعلن عن نفسه عالماً من علماء الشريعة، وأنه باع ذلك الشعار لكثير من الأمراء المحليين الذين قابلهم في جنوبي آسيا وأفريقيا. لكن بعض الفقهاء الآخرين الذين لقيهم وجدوا أن معرفته «متواضعة»، أو كما قال أحدهم بصراحة: «لم يكن عنده الكثير من مؤهلات النجاح». كان من الواضح هاهنا أن لرحلاته دافعاً، سواء عليه أَعترف به أم لم يعترف: لم يكن من المحتمل له أن ينال منصباً جيداً في عقر دار الإسلام، لذلك اندفع بعيداً عنه، إلى حيث كانت المعايير أدنى والحاجات إلى اكتساب الشرعية كانت أعلى.

لقد وردت أيضاً أخبارٌ عن أن الروايات نفسها كان لها نقادٌ. لاحظ ابن خلدون المؤرخُ العظيم العملَ وأخباره «التي تستحق الذكر»، لكنه قال إن كثيرين شككوا في القصص - ومثال ذلك قصة نثر الأمراء الهنود النقود الذهبية على رعاياهم من على ظهور الفيلة - واعتقدوا أن ابن بطوطة كاذب قطعاً. من المثير للاهتمام أنه مع لحظ المؤرخين المحدثين بعض المشكلات في المعالجة، ولا سيما في ما يتعلق بالصين، وغير ذلك من النواحي حيث تنسخ الرواية بوضوح عن مواد من غيرها، ومن ذلك أخبار ابن جبير، فإنهم بمعظمهم أصدروا حكماً موجباً عموماً على الأجزاء الوصفية من الرحلة.

علَّق قلة من الناس على الرحلة في وقتها على هذا النحو أو ذاك. من الواضح أن قصص ابن بطوطة قد أحدثت في فاس ضجة محلية وجيزة. ظفرت الرواية المكتوبة ببعض القراء في مناطق أخرى من شمالي أفريقيا. واستمرت نسخ منها في التداول في شمالي أفريقيا والسودان، حتى في القرنين السابع عشر والثامن عشر. لكنها لم ترد كثيراً في اقتباسات العلماء المسلمين، ولم تُقرأ بحماس كقراءة رسالة ماركو بولو، حسب ما سنراه في الفصل التالي. فقط في

القرن التاسع عشر أحيا العلماء الأوروبيون، دون المسلمين، اهتماماً بابن بطوطة، فرأوا – وكانوا محقين في ما رأوه – كم كان رحالة مذهلاً، وكم كانت أجزاء من روايته – أجزاء منها على الأقل – مفيدة كدليل تاريخي.

خاتمة: مقارنة

ما السبب في التلقي المتواضع؟ مع البُعد العجيب للمسافات التي ارتحلها ابن بطوطة، فقد كانت أخباره تتناول – في معظمها – نواحي كان العالم الإسلامي على معرفة بها. كانت كتاباته بهذا المعنى مرآةً وليست شيئاً منوّراً. لقد عكس أعظم نطاق ثقافي حدثَ في التاريخ العالمي إلى حينه، لكنه لم يمضِ وراءه إلا قليلاً، ولما فعل ذلك كان ميلُه إلى النقد أكبرَ من ميله إلى تقديم المعلومات المفيدة. بنفس الأمارة، ندرت تعليقاته على المنجزات التي قد يحب المسلمون المثقفون مضاهاتها: لم يكتشف نواحيَ ذات مستويات مادية أو تقانية أرفع من غيرها، أو على الأقل لم يُبرزها (كان ثناؤه على السفن الصينية العظيمة استثناءً جزئياً)؛ لم يصل إلى أنظمة سياسية أفضل مما قد يوجد في وطنه. غاية ما أمكنه هي أن يضرب مثالاً بعضَ المناطق التي كانت تماثل في جودتها عقر دار الإسلام من جهة الصلاح أو حفظ النظام العام. إن رحلاته لتضرب رقماً قياسياً، وتكشف عن مرحلة في التاريخ العالمي غير اعتيادية، وكذلك عن شخصية غير اعتيادية. بيد أنه لم يكن يضيف إلى مخزون المعرفة المتاحة شيئاً عظيماً؛ لم يكن يوقد مطامح جديدة.

كان في هذا الأمر اختلافٌ كبير بين ابن بطوطة وروايته وبين أثر الرحالة العظيم الآخر من رحالة العصر ما بعد الكلاسيكي، هو ماركو بولو الإيطالي. لقد عوّل ماركو بولو، وسنرى ذلك، على كثير من التسهيلات ذاتها كما فعل ابن بطوطة، وإن حصلت أسفاره قبل ذلك بزمان قصير: لقد استفاد من مدى السيطرة الإسلامية وسلطان المغول. لكن ماركو بولو كان يحاكم بتوليفة عقلية مختلفة، أقل نقدية. ولقد جاء من مجتمع كان قد أخذ يولّد مستويات جديدة من الفضول، ولكنه جاء من قاعدة مادية وسياسية أقل تقدماً. إن

المقارنة، ولا سيما مقارنة الأثر، هي مقارنة كاشفة. بيد أنه لا يجوز للمقارنة أن تحرف النظر عما حققه ابن بطوطة وعن مدى ما ضرَبَه، من حيث المسافات التي قطعها والأخطار التي واجهها وتنوّع المجتمعات والأقاليم التي لاحظها، ما ضرَبَه من رقم قياسي لم يسبقه إليه أحد في التاريخ العالمي إلى ذلك الحين.

الفصل الثامن

ماركو بولو وتراث الرحلات المسيحية

مُقَدِّمَة

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، دخل الأوروبيون طور رحلاتهم البطولية الأول. أخذ رحالة روّاد، مندفعين وراء نطاقي أوروبا والبحر المتوسط، يتجاسرون على المضي شرقاً حتى الصين. كانت رحلاتهم مهمة في حد ذاتها، لما جلبوه من معرفة مباشرة بالسلع والتقانات الصينية. عدا ذلك، أوقدت رواياتهم المطامح في ديارهم، فأدّت بالأجيال اللاحقة إلى التفكير في كيفية التمدد نحو مسالك أكثر طموحاً ومقاصد أكبر جائزة. بكلمة أخرى، أخذت الرحلات الأوروبية تؤثر في الأطوار اللاحقة من التاريخ العالمي، على مثال ما فعلت الرحلات الإسلامية قبلها.

بنت الرحلات الجديدة على التطورات الأساسية القليلة التي حسّنت شروط السفر، ولا سيما في وسط آسيا وشرقيها، في أثناء القرون الستة (أو نحوها) التي تلت رحلة شوانتسانغ. كان انتشارُ الإسلام أحدَ العوامل الأساسية، كما رأينا للتو في الفصل السابق. بحلول القرن الثالث عشر، استعمل الرحالة الأوروبيون بعضاً من الشبكات ذاتها في آسيا الوسطى التي سخّرها ابن بطوطة أيضاً في تجوالاته من فارس إلى الهند. كان المنحى الثاني هو النهضة الاقتصادية الواسعة، التي أثرت في معظم أفرو- أوراسيا، وابتدأت منذ نحو سنة ١٠٠٠ ميلادية ودامت بضعة قرون بعدها. كان التغيير الحاسم الثالث الذي نفعَ رحالة

البرّ في أثناء العصر ما بعد الكلاسيكي هو القرن أو نحو القرن من الوحدة السياسية التي جلبها المغول إلى أجزاء كثيرة من آسيا من سنة ١٢٥٠م إلى سنة ١٣٥٠م. لقد كان هذا الأمر أكثر معونة للأوروبيين في القرن الثالث عشر مما كان لابن بطوطة بعد ذلك بقرن.

لكن، على مثال الأمر مع الإسلام، هاهنا عنصر رابع يجب عَمَلُ تخطيط له، لأنه سبق رحلات القرن الثالث عشر العظمى. رأينا أن الدافعيات الإسلامية للسفر، إلى جانب التجارة المتسعة، قد ابتدأت قبل وقت طويل من القرون ما بعد الكلاسيكية. يصدق الأمر نفسه على الحوافز المسيحية، مع قيد واحد هو أن هذه الحوافز طُبِّقت بادىء الأمرَ على رقعة جغرافية أصغر مساحة واحتكاكات تجارية أقل طموحاً بكثير. لكن اتضح، قبل سنة ١٠٠٠ بكثير، أن المسيحية، كما البوذية والإسلام، أتت بمحفز كبير للسفر المغامر. على مثال الأديان العالمية الأخرى، شجعت المسيحية الناس على السفر لأهداف دينية، سعياً لإدخال الناس في الدين أو حجاً إلى المواقع المعظمة، ومنها الأرض المقدسة. كما رأينا في الفصل الثالث، سافر المبشرون الأولون، ومنهم بعض الرسل، أسفاراً واسعة في زمان الإمبراطورية الرومانية، سعياً لإدخال الناس في الدين، وتأسيساً لأولى الهيئات الدينية من أرمينيا وشرق المتوسط إلى إسبانيا، ومن أفريقيا الشمالية إلى بريطانيا. كان يقوم في حينه نمط من الحج إلى القدس معبِّراً عن الصلاح، وإن كنا لا نعلم عدد الحجاج. استؤنفت الأنماط، في ظروف أكثر تحدياً، في أثناء الفوضى التي تلت سقوط روما.

في خاتمة المطاف، يتحول تركيز هذا الفصل إلى السفر البري خلال آسيا الوسطى، باختلاف طفيف عن المسالك التي اتبعها ابن بطوطة لاحقاً، نافخاً الروح في إيحاءات من احتكاكات طريق الحرير في العصر الكلاسيكي. لكن السفر براً أصبح في هذه المرحلة المشار إليها أكثر طموحاً من الناحية الجغرافية، ليصل في آخر أمره، بالطبع، من أوروبا إلى الصين. أيضاً، كانت المسالك البحرية تكملة لأنماط السفر، وهي علامة أخرى على التمدد الجغرافي،

وكذلك التقانة البحرية الأكثر حداثةً. لقد اتسع نطاق السفر كمياً وكذلك جغرافياً، لقد ازداد عدداً. ولقد كانت له عواقب تجاوزت مجرد التجارة والتمثيل الدبلوماسي. لكن، أولاً تحتاج أسبقيات السفر المسيحي، بصفتها خلفية حاسمة، إلى التفاتة وجيزة.

العصر ما بعد الكلاسيكي

كان انهيار الإمبراطورية الرومانية في أوروبا الغربية، في القرن الخامس، فاتحة لعدة قرون من التحدي غير المعتاد للمسافرين. لم توجد وحدةٌ سياسيةٌ، وكانت الحماية على الطرق، مهما يكن نوعها، قليلة. زاد في عدم الاستقرار طائفةٌ متنوعة من الغزوات، لكن المشكلة الكبرى للمسافرين العاديين كانت ببساطة اللصوصية والعنف المحليين. من الناحية الفعلية لم يحمل أكثر المسافرين معهم شيئاً، وكان جزء من سبب ذلك هو أن الطرق كانت شاقة بحيث أن الأمتعة كانت عبأً لا يطاق، وجزء آخر هو أن كل شيء ذي قيمة سوف يجذب ببساطة قطّاع الطرق. كان من المألوف للمسافر أن يكون معه معطفٌ، يقيه من المطر وينام فيه إن احتاج لذلك (فحمل الخيمة كان حملاً لشيء باهظ)؛ وعصا، يستعين بها في صعود التلال واجتياز السواقي، ويستعملها سلاحاً إن احتاج الأمر؛ وسكينٌ، يقطع بها اللحم؛ وبعض الحجارة يقدح بها النار؛ وربما وعاءٌ جلدي للسوائل. قد تَحمِل محفظةٌ رسائل تعريف. حمل بعض المسافرين مالاً، لكن بعضهم امتنع عن ذلك عمداً، اعتقاداً بأنه لو أمكنهم القول للّصوص بأمانة إنه ليس معهم شيء لربما كانوا أكثر إفلاتاً من الهجوم عليهم.

افتقرت أوروبا المسيحية في تاريخها الباكر إلى التنظيم اللازم لإقامة الفنادق أو أماكن الإيواء على مسافات منتظمة. لكن الهيئات الكنسية قدّمت الضيافة بانتظام، ببساطة كان كثير من الحجاج ينامون في الكنائس أو الأديرة. وضع كثيرٌ من القائمين على الكنائس نسبةً مئوية كبيرة من ميزانيتهم جانباً لإعانة المسافرين، لأنه ببساطة لم تكن من وسائلَ أخرى لإعالة المرتحلين. بالتدريج، أقيمت الخانات

العامة، ولاسيما مع ازدياد السفر التجاري، ومثاله السفر الذي تُقصد فيه معارض التسوّق الإقليمية الدورية. لكن الأسفار الأوروبية ظلت صعبة زماناً طويلاً، وقد اشتركت في الصعوبات مع مناطق العالم الأخرى، لكن جمعت معها رداءة المنشآت ومحدودية التنظيم.

مع ذلك، حصل قدر مهم من الرحلات، ومما لا شك فيه أن الدين قد أعطى محفزاً أساسياً. في المقام الأول، أعطى الاعتقاد بالله رجاءً للوقاية. لقد وضع المسافرون رحلاتهم روتينياً بين يدي الله أو مريم أو أحد القديسين. مثال ذلك أن كولومبوس وضع سفنه تحت حماية مريم العذراء، وكان كلما استعمل قلماً جديداً مسحه بقوله: «**ليكن يسوع ومريم معنا في مسيرنا**». لكن الدين قدّم أيضاً سبباً للسفر. بحلول القرن السادس، كان البابا الروماني يرسل المبشرين من إيطاليا إلى بريطانيا وشمالي ألمانيا (في رحلات تزيد على ٧٠٠ ميل)، لمحاولة إدخال الشعوب الوثنية في المسيحية ولإنشاء التنظيم الكنسي. أعطى نجاح هذه البعثات أسباباً مستمرة للسفر، بالنظر لحاجة موظفي الكنيسة للرجوع إلى روما، ومنها للحفاظ على التناسق المؤسساتي والإلهام الروحي، وأخذ الحجاج العاديون يرون في روما مقصداً لتحقيق أهدافهم الروحية الخاصة بهم.

مثال: ولِد بونيفيس – ثم صار يدعى القديس بونيفيس – في إنكلترا نحو سنة ٦٧٥م، ثم صار موظفاً كنسياً. بين سنة ٧١٦ ووفاته سنة ٧٥٤م، كان دائماً – تقريباً – على الطريق. لقد ذهب إلى روما ثلاث مرات، حصلت آخر رحلاته وقد نيَّف على الستين. لقد عمل مبشراً في شمالي ألمانيا، وأصلح التنظيم الكنسي في بافاريا، وعمل في مناطق أخرى من أوروبا الغربية أيضاً. ومع أنه لم يكتب قط رواية رسمية لأسفاره، فإن رسائله وتقاريره عن حياته الدينية كانت عوناً على ترويج دافع للسفر في القرن الثامن أوسع نطاقاً.

كان بونيفيس حريصاً في تنقلاته على الحصول على رسائل من الحكام المحليين ورجال الكنيسة البارزين تحضُّ على الحماية والضيافة. في مرحلة من المراحل حضَّ البابا غريغوري الثاني الناس على تزويد بونيفيس ومن يصحبه

«بالطعام والشراب وكل ما قد يحتاج إليه». كل من ضايقه كان مهدَّداً من البابا، في نفس الرسائل، باللعن الأبدي. كان المرجو ليس فقط تقديمُ الطعام، بل أيضاً المواكبةُ لاجتياز الأراضي الخطرة وعبورُ الأنهار مجاناً والإعفاءُ من المكوس كلها على الطريق.

قرر بونيفيس، وقد ناهز الثمانين، الرجوع إلى شمالي ألمانيا، لاستئناف عمله التبشيري الأساسي. أبحر نازلاً نهر الراين مع بضعة مبشرين آخرين. وبعد وصوله إلى مقصده، ولما كان يتأهب لتعميد بضعة أشخاص جدد دخلوا المسيحية، قُتِل وصحبه على يد اللصوص. جاء في المرويات أن عين ماء عذب انفجرت من فورها في البقعة حيث مات؛ أُعيد جثمانه إلى هولندا للدفن.

لقد استنهض الدينُ السفرَ عند النساء الأوروبيات أيضاً، علماً أن الأخطار كانت عليهن أكبر. كتبت راهبة إنكليزية سنة ٧٢٠م أنها أرادت باستماتة أن تزور روما، «سيدة العالم في سالف الأيام، وأن تطلب الصفح عن خطايانا هناك، على مثال ما فعلَ كُثُرٌ ويفعلون، وأنا أولهم، أكبرهم سناً وأكثرهم خطيئة وخطأً بكثير في عمري». لقد قلقَ بونيفيس، وغيره من المراجع، من الذكور بسبب المخاطرات التي تنتظر النساء على الطريق، بيد أنه لم يمكنهم أن يحملوا أنفسهم على محاولة تحريم السفر، لأنهم احترموا الحاجات الدينية التي كانت النساء تعبّر عنها. لكن بونيفيس نفسه اعتقد أن أكثر النساء اللاتي تجاسرن على القيام بحج طويل لم يجازفن فقط بالتعرض للخطر بل للإغواء أيضاً، بحيث إنه لا تبقى منهن طاهرة إلا القليل. وكما عبَّر عنه عمداً: «لأنه ليس إلا بلدات قليلة جداً [في شمالي إيطاليا أو فرنسا] ليس فيها امرأة نكثت عهودها أو بغيّ من العرق الإنكليزي. وهذا إزعاج وعار على كنيستكم كلها». لقد كانت للسفر أبعادٌ كثيرة.

وازى أنماطَ السفر الديني في أوروبا الغربية عملٌ تبشيري مهم منبعث من الإمبراطورية البيزنطية. مثال ذلك أنه في القرن التاسع قام أخوان من شمالي

اليونان، سيريل وميثوديوس، بأسفار واسعة في البلقان وباتجاه الشمال، في ما هو اليوم الجمهورية التشيكية.

أيضاً، أكمل النشاط التجاري السفرَ الديني، على نحو متزايد. خرج التجار من إسكندنافيا خلال غربي روسيا إلى القسطنطينية. تحرك تجار آخرون بانتظام من البلدان المنخفضة وبريطانيا إلى إيطاليا، وكانت حركتهم في العادة براً لكنهم استعملوا أحياناً الساحل الأطلسي أيضاً. برزت أيضاً شبكات من التجار اليهود، تجاسر بعضهم على السفر من فرنسا إلى شرقي المتوسط بل ما وراءه.

في آخر القرن الحادي عشر، فُتِح فصل جديد في السفر المسيحي والأوروبي لمَّا دعا البابا أوربان الثاني إلى حملة صليبية لاسترداد الأرض المقدسة إلى المسيحية. عكس نداؤه كم أن أوروبا، وقد صارت في الوقت المشار إليه أحسن تنظيماً، قد استعدت لمغامرات خارج حدودها الخاصة بها؛ ومع أن الحملات الصليبية كانت في خاتمة أمرها فشلاً دينياً، فقد أطلقت بالتأكيد الشرارة لمدى جديد من الامتداد الأوروبي.

كان يُتوقع للصليبيين الأوروبيين، وأكثرهم سادة إقطاعيون لكن انضمَّ إليهم أحياناً أناس عاديون أيضاً، أن يسافروا مسافة بعيدة جداً. مثال ذلك أنه كان لرجل تقي من بريطانيا من طبقة الفرسان أن يقطع ١٥٠٠ ميل أو أكثر. عبّر القليل من الصليبيين بوضوح عن أن مفارقة الوطن أمر صعب، إحساس مشترك عند المسافرين بلا ريب، لكن ليس صوتاً معيّناً دائماً. عند انطلاق سيد فرنسي من القرن الثالث عشر فإنه لم يكتفِ بالصلاة عند قبر أحد القديسين المحليين طلباً للحماية، بل كتب لاحقاً: «لما خرجت لم أدع نفسي تلتفت... خشية أن ينفطر قلبي لمرأى حصني، الذي خرجت منه مع ولديّ العزيزين».

بالطبع، كان للحملات الصليبية عواقب كثيرة. لقد أقامت فترة قصيرة من الحكم المسيحي في الأرض المقدسة، من الراجح أنها عكست وأحدثت في آن واحد عداوة متزايدة من المسيحيين للمسلمين. كانت الهجمات المسيحية على

الأراضي الإسلامية في إسبانيا تتعاظم في الوقت نفسه. كذلك، شجعت التجار الإيطاليين وغيرهم من التجار على اغتنام المخاطرات الدينية للدفْع قُدُماً بمطامحهم التجارية الخاصة بهم، كما حصل في الحملة الصليبية التي حُرِفت كي تهاجم القسطنطينية من أجل إضعاف التجارة البيزنطية لمصلحة التجارة الأوروبية الغربية. تعلّم الصليبيون أن يتذوقوا أنواعاً جديدة من السلع والحياةَ المدينيةَ الأكثر تعقيداً، فاستثار ذلك أذواقاً استهلاكية جديدة في أوطانهم، فشجّع بدوره تجارة أكثر انتظاماً بالتوابل وغيرها من المنتجات الآسيوية التي كانت تُنقَل من خلال شرق المتوسط. كان لهذا كله مضامين مهمة بالنسبة إلى الأسفار الأوروبية، وإلى توسيع نطاقها وراء الدافعية الدينية الصرفة. لكن من الناحية الأساسية جداً، أخذت الحملات الصليبية وما تبعها من تجارة تجعل الحركة من أوروبا إلى شرق المتوسط روتينية، ما وسّع توسعة عظيمة مدى الأسفار الممكنة بحلول القرنين الحادي عشر والثاني عشر. لقد أصبح البحر المتوسط مرة أخرى طريقاً مائياً منتظماً للأوروبيين، كما قد كان لليونانيين والرومان وكما كان لايزال للتجار المسلمين.

لم يكن عجباً أن ألهمَ هذا المجال الجديد صوراً من المزج بين السفر التجاري والديني. كان تاجر إنكليزي، يعمل في القرن الثاني عشر، في أول أمره يتجول لبيع بضائعه في إنكلترا واسكتلندا، ثم مدّ فرعاً من أعماله إلى إسكندنافيا. لم يكن نشاطه التجاري شافياً كلياً، فأخذ يضم إليه السفر الديني أيضاً، فذهب إلى روما، كما زار مشاهد القديسين القريبين من دياره. بعد ست عشرة سنة من النجاح التجاري، خرج في حج رسمي إلى الأرض المقدسة، وبعد ذلك أخذ والديه في رحلة دينية إلى روما، كثيراً ما مشى فيها حافياً برهاناً على تواضعه، أو حمل أمه على ظهره. جاك كور، تاجر فرنسي أكثر نجاحاً بكثير، جمع ثروته بالرحلات التجارية إلى مصر وشرقي المتوسط، آتياً بالسلع من أوروبا جيئة وذهاباً؛ لقد زار دمشق (في سورية) بانتظام لشراء التوابل، لكنه تاجر أيضاً بالسجاد والحرير الصيني والتوابل الإندونيسية. لكنه انعطف في آخر عمره

انعطافة أكثر تديناً، فمات على جزيرة يونانية في أثناء حملة من الحملات الصليبية المتأخرة، وهو يخدم في أسطول بابوي توجّه لحرب المسلمين.

النقاط الأساسية واضحة. استطاعت المسيحية، على غرار الأديان التبشيرية الأخرى، إلهام الرحالة في أثناء الرحلات الصعبة وإعانتهم. استطاع الباعث الديني أن يرتبط بسهولة مع التجارة وأن يحدِث شبكة من أنشطة السفر أكثر كثافة. لقد مدّت القوةُ الأوروبية الصاعدة والجهودُ الدينية والتجارية الإضافية نطاقَ الاحتكاك الأوروبي مع شرق المتوسط، وبحلول القرن الثالث عشر كادت الزيارات إلى تلك المنطقة تصبح أمراً عادياً، رغم التوتر الرسمي بين المسيحية والإسلام. بل كان البابوات الطموحون يرسلون رسمياً بعثات دبلوماسية وتبشيرية أكبر حجماً إلى إثيوبيا وفارس، علماً أن أثرها كان قليلاً. كان هذا هو السياق الذي تطورت فيه سلسلة من المخاطرات أكثر طموحاً مما تقدَّم، ربطت أوروبا مع شرقي آسيا مباشرة لأول مرة.

لكن بالنسبة إلى هذا الفصل الجديد المثير، المشتمل على رحلات ماركو بولو الشهيرة وغير ذلك، لم تكن الدوافع والأسبقيات الأوروبية إلا جزءاً من القصة. لقد أطل برأسه في المرحلة المشار إليها السياقُ الأكبر مدى، المشتمل على تشعباتِ التوسع العربي والإسلامي الأوسع نطاقاً، والفورةِ العامة للرخاء، وفوق ذلك كله المغول، وكذلك تهديدِهم بالنسبة إلى الأوروبيين. كان هذا الإطار الجديد، باجتماعه مع المسارات والأسبقيات الأوروبية الراسخة، عوناً على مدّ الأسفار الأوروبية وراء شرق المتوسط وصياغة أولى الروابط المباشرة المعلومة مع الصين.

الخطوات الأولى

من الناحية الفعلية، سبق أول تفكير معلوم بقيام أحد الأوروبيين برحلة إلى الصين، سبقَ المغولَ، علماً بأنه سخّر بالتأكيد الصلات الممكنة في ظل الإسلام وعكسَ رخاء الصين المتنامي. ذهب بنيامين التُطيلي، وهو يهودي

إسباني، من إسبانيا إلى إيطاليا فاليونان ففلسطين فدمشق فبغداد، ومن ثم سار في الخليج الفارسي، بين سنتي ١١٦٦ و١١٧١م. في البحرين علم كيف يستطيع المرء السفر من المحيط الهندي إلى «زين» (الصين) - في رحلة تستغرق، كما قيل له، ثلاثة وستين يوماً (مع انقطاعة في سريلانكا). لقد كتب كتاب رحلة عكسَ الأنماط البعيدة المرمى للتجارة التي كان يقوم بها بعض اليهود الأوروبيين، وكان عوناً على تحريض مزيد اهتمام لدى الرحالة اليهود، لكنه لم يكن كتاباً رآه المسيحيون الأوروبيون.

مع الاقتراب من أربعينيات القرن الثالث عشر، ومع الصعود الواضح لسلطان المغول، قام البابا بريء الرابع، وقد أزعجته غزوات المغول لروسيا وهنغاريا، بإرسال سلسلة من الرسل إلى الخان الأكبر، أملاً في اتّقاء أي هجوم على أوروبا الغربية. لعله قد راود البابا أيضاً أمل في إدخال المغول المسيحية واستخدامهم أو استعمالهم كحلفاء في وجه التهديد التركي المتعاظم في شرقي البحر المتوسط. سنة ١٢٤٥م، انطلق الراهب الفرانسيسكاني يوحنا من أهل بلانو كاربيني مع رفيق، هو الراهب بينيدكت البولندي، في بعثة، لكن الخان رفض دعوة الدخول في المسيحية، وأصرّ بدلاً من ذلك على خضوع البابا للسيطرة المغولية. شعر يوحنا بالخيبة، لكنه عرف كثيراً عن مُلْك المغول وأثارت روايته اهتمام جمهور من الأوروبيين. وصلت بعثات أربع أخرى، قام بها رهبان دومينيكان، إلى المغول بين سنتي ١٢٤٥ و١٢٥١م، علماً أنها فشلت كلها بسبب إصرار البابا والخان كليهما على الهيمنة. لكن المخاطرات استثارت مزيد اهتمام بآسيا، إذ التقى الرسلُ أناساً من كل الأصناف في العاصمة المغولية، وكذلك أوروبيين ذوي معرفة سطحية، ومنهم بعض السلاف وبعض اليونانيين، وألماناً وهنغاريين وما لا يقل عن إنكليزي واحد وبضعة فرنسيين منهم فنان، هو غيوم بوشيه، الذي عمل للخان سبيل ماء فضياً بديعاً. من الواضح أن الأسفار الأوروبية قد اتسع نطاقها حتى قبل وقوع أشهر الرحلات.

بين سنتي ١٢٥٣ و١٢٥٥م، أخذ ويليام الروبروكي على عاتقه نوعاً مختلفاً قليلاً من الرحلة الدينية إلى المغول، أملاً في نشاط تبشيري أوسع نطاقاً من مجرد التمثيل الرسمي للبابوية. حمل ويليام رسالة من ملك فرنسا، مترجمة إلى التركية والعربية، لكنه سوف يكتب لاحقاً ملاحظاً أنه كان ينبغي أن يكون معه «مترجم جيد، أو بالأحرى بضعة مترجمين، والكثير من المال». لقد ذهب مع راهب آخر ومترجم ورجلين يعتنيان بأمر دواب الحمل وعتّال ومملوك شاب. عبرت فرقته البحر الأسود من القسطنطينية إلى القرم، حيث التقى الخان المحلي الذي أعطاه رسائل إلى رئيسه الذي زكاه بدوره عند الخان الأكبر. بعد سفر بري، تحت رعاية المغول، وصل أخيراً إلى العاصمة، قَرَقوروم (ليست بعيدة كثيراً عن العاصمة الحالية لمنغوليا، أولان - باتور). بلغ طول سفره في خاتمة المطاف أكثر من ٩٠٠٠ ميل، وعانى فيه من كل أصناف المشاق، من الأدلاء والمترجمين المحليين غير الموثوقين، إلى صريح الجوع والعطش. رجع أخيراً إلى ما بحوزة الصليبيين من الأرض المقدسة، علماً بأن آماله في لقاء الملك الفرنسي قد خابت. كذلك خابت التوكيدات بأن يقدّم المغول كامل المؤن لرحلته عائداً إلى دياره. ولم يحصل البتة تقدّمٌ في مسعاه التبشيري، لقد سأل المغولُ عن الصلاة المسيحية ليضموها إلى خلطتهم الدينية عند مضيهم في أسفارهم، لكن المترجم أحبط كل محاولة لتعليمهم صلاة الرب. قوبل قول الروبروكي لأحد حكام المغول إن الذين لا ينجحون بأن يصبحوا مسيحيين فسوف يُلعنون بتوبيخات وإهانات، بحيث إن المترجم خاف خوفاً حقيقياً؛ من الواضح أن الروبروكي قد جلب نسخة من دينه متصلبة نسبياً، ولذلك لم يحرز نجاحاً كبيراً.

لكن، مع كل شكوى الروبروكي من مشاق سفره وقلة نجاحه، فلقد ترك فيه كثرة ما رآه انطباعاً أيضاً. كان الاستغراب جلياً؛ لقد ألهب الروعَ غنى القصر المغولي؛ لكن طائفة واسعة من مختلف السلع والعادات استثارت التعليق أيضاً. بل إن الروبروكي، في موضع من المواضع، في تقريره للملك الفرنسي،

عبّر عن أسفه لأنه ليس لديه سوى الكلام لوصف روعة ما خَبره. «النسوة يعملن لأنفسهن مركبات خفيفة جميلة، لا يمكنني وصفها لك إلا بالأدوات البصرية. ولو كنت أُحسن الرسْم لرسمت لك كل شيء».

رجع ويليام الروبروكي إلى رتبته الدينية بعد رحلته، وكان تقريره مجرد جزء بسيط من نسق متعاظم من الاحتكاكات مع الصين بحلول أواسط القرن الثالث عشر. تقدّم روايته كلًّا من السياق والضد لمخاطرة من العصر نفسه أكثر شهرة بكثير، حيث جلس الدين في مقعد خلفي بالنسبة إلى محض نزعة المغامرة، وحيث تراجعَ رفْعُ التقارير المتواضع أمام عربدة الكبرياء الشخصية والمبالغة. ويتقدّم ماركو بولو وعمّاه إلى المشهد.

ماركو بولو وكتابه

ولد ماركو بولو نحو سنة ١٢٤٥م في البندقية، وكانت حينئذ إحدى أعظم مدن أوروبا وأغناها وأجملها. كان أبوه وعمّاه تجاراً ناجحين تخصصوا في التجارة البحرية بين البندقية والقسطنطينية وميناء سوداك في القرم.

مع أننا لا نعلم عن سنوات ماركو الأولى إلا القليل، فإنه يمكننا الافتراض أن تفكيره قد تشكّل بعلو شأن الكنيسة الكاثوليكية في البندقية. من المحتمل أنه سمّي على اسم القديس مرقس، القديس راعي المدينة المحبوب. بحسب رواية تراثية بعيدة في الزمان ومعقولة، ربي ماركو بالقرب من بازيليك القديس مرقس ذات القبة، وهي إحدى أشهر الكنائس في المسيحية كلها، وموضع الدفن المشهور لجثمان الرسول. بالإضافة إلى نيل ماركو الإرشاد بتعاليم الكنيسة، فمن المؤكد تقريباً أن تثقيفه قد اشتمل على العناية بتطوير المهارات العملية الضرورية للنجاح في دنيا التجارة. لنا أن نحزر أيضاً كم كان للحياة اليومية في إحدى أكثر مدن أوروبا تشويقاً من نصيب في تحريك خيال ماركو الشاب. هل حركّه المغنون الجوالون في الميادين الذين غنوا ما تردد في المرويات عن مغامرات الإسكندر الأكبر في الهند، وعبقُ التوابل الآسيوية في الأسواق، ومرأى

كثير السفن الشراعية ذات المجاديف والسفن الشراعية الأخرى الراسية في المرفأ؟ يبدو أن الأمر محتمل.

كائنة ما تكون طبيعة خبرات ماركو الباكرة، فلقد تغيرت حياته للأبد في سن السابعة عشرة لما خرج من وطنه مع أبيه وعمه مافّيو في رحلة إلى الصين ومنها استغرقت اثنتين وعشرين سنة. أو هذا ما نقرؤه في مصدرنا القوي الوحيد عن رحلاته، الكتاب الذي كتبه بعد عودته إلى البندقية في تسعينيات القرن الثالث عشر. لكن، ما مقدار موثوقية كتاب ماركو بولو؟ لقد سحر هذا السؤال الأساسي علماء بولو وجمهور القراء الأوسع نطاقاً طوال السنوات السبعمئة الماضية. فلننظر لماذا.

إحدى العقبات الكبرى التي تقف في طريق الاستنتاجات القوية بشأن مصداقية كتاب ماركو بولو هي أن المخطوطة الأصلية، ومن المحتمل أنها كتبت باليد على صحف من الرق (جلد الشاة) أو الورق الرقي (جلد البقر)، قد اختفت من زمان بعيد ولا يُعلم عن بقيا أي نسخ مضبوطة. في أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، لمَّا عمِلَ نسَّاخ عديدون نسخاً من كتاب بولو، حذف بعض الكتبة من مادته أو بدّلوا فيها أو أضافوا إليها، بحسب تفضيلاتهم هم أو تفضيلات رعاتهم. يبدو أن هذه التغييرات قد دخلت في الإصدارات المطبوعة، التي أخذت في الظهور في سبعينيات القرن الخامس عشر. أحدثت عملية ترجمة كتاب بولو، الذي من الراجح أنه كُتب بالفرنسية الوسيطة، المزيد من التعقيدات. إحدى إصدارات الكتاب التي يعدُّها العلماء أكثر الإصدارات قيمة هي نسخة لاتينية ترجع في تاريخها إلى سبعينيات القرن الخامس عشر. ما مقدار قربها من الأصل؟ لا يمكننا أن نعلم على وجه التأكيد.

إن غياب النص الأصلي والتغييرات التي عُملت في الإصدارات اللاحقة يعني أن كل إصدارات كتاب ماركو بولو الحديثة والعلمية قد جُمِعت، في الواقع، من نسخ متقدمة عديدة. مع أن إنتاج الإصدارات الحديثة الأكثر حجية قد اشتمل على الكثير من البحث المطول والمضني، فمن الواجب أن نستعملها

بحذر. يجب أن تبقى استنتاجاتنا بخصوص أين ذهب ماركو بولو، وماذا رأى، وماذا قيل له، وماذا تذكّر، وماذا كتب، يجب أن تبقى على نحو ما غير نهائية.

هاهنا سبب ثانٍ لبقاء اليقين في ما يتعلق برحلات ماركو بولو يروغ من العلماء: لقد كتب بولو كتابه بالاشتراك مع كاتب شبح يدعى روستيكيلّو البيزي، الذي لا يُعلم عنه إلا القليل جداً. يبدو أن روستيكيلّو، قبل لقائه ببولو في أواخر تسعينيات القرن الثالث عشر، كان كاتباً لقصص مغامرت شبه شعبية قوامها المرويات التي تتناول الملك آرثر. يعتقد أكثر العلماء أنه تلاقى مع بولو في جنوا حيث كانا محتجزين كأسيري حرب، إذ علِق الرجلان على نحو ما في الحروب الكثيرة بين شتى الدول المدينية الإيطالية.

بما أن خلفية بولو ربما لم تقدّم له المهارات الأدبية اللازمة لتحويل رحلاته إلى كتاب، فقد كانت فرصةُ لقائه في جنوا بكاتب مجرّب مهمةً. لا نعلم شيئاً عن تفاصيل تعاونهما، لكن أكثر الخبراء يعتقدون أن بولو قد أملى على روستيكيلّو، ربما مستعيناً بالملاحظات، جوهر ما سوف يصبح كتابه. بعد ذلك وضع روستيكيلّو شهادة بولو في صيغة تصلح للقراءة، مضيفاً بعض الزخرفات الأدبية من عنده. لحسن الحظ، من الواضح عموماً أي أجزاء المخطوطة عماده رحلات بولو، بإزاء القوى التخيلية لروستيكيلّو.

يمكننا على نحو مؤكد أن نعيّن بدقة بعض الفقرات في الكتاب حيث سمح بولو وروستيكيلّو للرخص الأدبية، وربما للرغبة في جذب أكبر عدد من القراء، في أن تعلو في الشأن على الإخبار الدقيق. يحتوي الكتاب على بعض الروايات الرومانسية لمعارك ما كان ممكناً لبولو أن يشهدها، لكنها تشبه الاشتباكات العسكرية التي وصفها روستيكيلّو في عمل فني سابق. كما أنه يشتمل على قصص من المعجزات المسيحية، وعلى ما ورد في المرويات عن الإسكندر الأكبر، وعلى خرافات عن حيوانات خيالية، وعلى مبالغات عن ثروة

الشرق. مع أن هذه الفقرات توحي أكثر ما توحيه باعتقادات معاصري بولو الأوروبيين، فهي ليست بذات قيمة كمصادر لما شاهده في رحلاته.

إن التساؤلات المشروعة الكثيرة التي أثارها التمحيص المتأني لكتاب بولو قد أدت ببعض العلماء (وهم قلة، بالتأكيد) إلى الشك بأنه لم يذهب قط إلى الصين. بحسب شاكّي بولو، من الراجح أنَّه قد حصل على معلوماته عن الصين من رحالة لقيهم في فارس أو منطقة البحر الأسود. يعلّل هذا، برأي الشَّاكين، حذْفَ الكتاب لذِكْر الكثير من السمات المهمة للحياة الصينية في القرن الثالث عشر. كيف يمكن لمشاهد أوروبي أمضى سبع عشرة سنة في الصين، هكذا تمضي الحجة، ولا يذكر السورَ العظيم، أو تقانةَ الطباعة بالقالب الخشبي، أو ممارسةَ عَصْب أقدام الإناث، أو عادةَ شُرْب الشاي، أو استعمالَ عيدان الأكل، أو نظامَ الكتابة الصيني المميز، أو أهميةَ الكونفوشية؟

يدفع الشَّاكون قُدُماً أسباباً أخرى للشك في أن بولو قد ذهب إلى الصين. مع أن كتابه قد جعل منه حاكماً لمدينة كبرى في جنوبي الصين لثلاث سنين، فإن هذا غير مثبت في السجلات الصينية. في الحقيقة، ما من دليل صيني من أي نوع على زائر يدعى ماركو بولو. كذلك يزعم كتاب بولو أن ماركو والكبيرين من آل بولو قدّموا مساعدة مهمة لخوبيلاي خان في الاستيلاء على مدينة شيانغيانغ الصينية الجنوبية. لكن معركة شيانغيانغ قد وقعت سنة ١٢٧٣م، قبيل وصول آل بولو إلى الصين.

رغماً عن الحجج التي قدّمت من قبل شاكّي بولو، فإن أكثر العلماء، ومنهم مؤلفا هذا الكتاب، يعتقدون أن من الراجح أن بولو قد سافر إلى الصين وأن كتابه، وهذا هو الأهم، يحتوي على نواة أساسية من المعلومات المباشرة القيمة عن العهد المغولي. من الصحيح أن الكتاب يشتمل على بعض المرويات وعلى خيالات الرحالة، وأنه ربما يضخم أيضاً من أهمية بولو في الصين إلى حد الكذب، لكن صفحات قليلة مكرسة لقضايا كهذه لا تُبطل، في اعتقاد أكثر العلماء، بقية النص. في ما يتعلق بما لُحظ مراراً وتكراراً من حذفٍ في تغطية

بولو للصين، من الممكن أن بعض ذلك هو نتيجة لاختفاء المخطوطة الأصلية، أو للتبديلات التي عُملت في الإصدارات المتأخرة. لكن من المحتمل جداً أيضاً، كما سنرى لاحقاً في هذا الفصل، أن بعض الثغرات هي نتيجة لظروف معينة واجهها بولو فعلياً في أثناء السنوات التي أمضاها في الصين.

واضعين في الذهن التعقيدات المتصلة بدراسة كتاب بولو، لننظر الآن عن كثب أين من الراجح أنه قد ذهب، وماذا على ما يبدو أنه قد شاهد، وكيف يسهم كتابه في فهمنا للرحلات الأوراسية في القرن الثالث عشر. لفِعْل هذا، سوف نعتمد على الإصدار الممتاز والمتوفر كثيراً جداً لكتاب بولو من ترجمة رونالد لاذام، ومعه كشوفات العلماء الآخرين الكثيرين. (من أجل الشواهد من هذه الكتب والمقالات، انظر «للاستزادة» آخر هذا الفصل).

مسير الكبيرين من آل بولو

يقدم لنا القسم الأول من كتاب بولو، وعنوانه في كثير من الإصدارات «التمهيد»، وصفاً معقولاً للخلفية المباشرة لرحلات ماركو. نقرأ في «التمهيد» أنه في أثناء ستينيات القرن الثالث عشر سافر نيكّولو ومافّيو بولو، أبو ماركو وعمه، من البندقية إلى آسيا الوسطى، وربما حتى الصين، بالسفن والعربات. يبدو أن مسيرهم ابتدأ كبعثة تجارية إيطالية نموذجية على نحو ما إلى جنوبي روسيا الواقع تحت حكم المغول عن طريق القسطنطينية والبحر الأسود. لكن، لما وصل الأخوان بولو إلى مخيم القبيلة الذهبية على نهر الفولغا، وهو في ساراي على الأرجح، اكتشفا أن طريق عودتهما إلى البحر الأسود قد سدّت، ولعل السبب في ذلك هو استعادة السلطة البيزنطية في القسطنطينية سنة ١٢٦١م، وهذا تغيير نفع المصالح الجنوية وأضر بالمصالح البندقية (بحسب أحد التقارير أعدم اليونانيون خمسين بندقياً كانوا يحاولون الفرار من طريق البحر الأسود)، وكذلك الأعمال العدائية بين مضيفيهم والحكام المغول (الإيلخانات) في فارس. سار الأخوان بولو، مبدلين خططهما، جنوباً فشرقاً إلى بخارى مدينة القوافل في آسيا الوسطى، وكانت يومئذ تحت سيطرة أحد الفروع

المغولية، حيث من الراجح أنهما خططا للانعطاف غرباً والعودة إلى الوطن عابرين فارس. بدلاً من ذلك، ولأسباب غير واضحة، بقي الأخوان في بخارى لنحو ثلاث سنين، تعلما في أثنائها على ما يبدو اللغة المغولية.

لعل الجزء التالي من مسير الكبيرين من آل بولو كان لا سابقة له (عند الأوروبيين). لما غادر الأخوان بولو بخارى، توجها شرقاً لا غرباً. ونقرأ أنهما فعلا ذلك بدعوة من موظف مغولي من فارس كان مجتازاً بخارى في طريقه إلى بلاط الخان الأكبر في الصين. لعل الأخوين بولو بقبولهما هذه الدعوة وبالسفر إلى مقر خوبيلاي خان قد كانا اثنين من أوائل الأوروبيين الذين وصلوا إلى الصين. (لا يمكننا التأكد من ذلك لأن بلاط خوبيلاي كان متنقلاً على نحو ما؛ لعله قد رحّب بآل بولو في عاصمته الصيفية في شانغدو في منغوليا؛ أو في موقع آخر في آسيا الوسطى).

كذلك نقرأ في «التمهيد» أن أكبر اهتمام خوبيلاي كان بزواره من الغرب اللاتيني. لقد استفسر من آل بولو باستفاضة عن الظروف السياسية والدينية في أوروبا، ولقد استطاعا الإجابة بالمغولية. في خاتمة اللقاء، طلب من آل بولو أن يكونا مبعوثين له لدى البابا في روما. أمر خوبيلاي بكتابة رسائل يسأل فيها أن يرسل البابا له مئة مسيحي عالم، ربما ليخدموا إداريين في الصين. كذلك طلبت الرسائل شيئاً من الزيت من المصباح الذي يتوقد عند قبر المسيح في كنيسة القبر المقدس في القدس، في دلالة على نحو ظاهر على ما عُرف به خوبيلاي جيداً من انفتاح على جميع الأديان. لضمان سلامة آل بولو في بعثتهما، أعطاهما مواكبةً مغولية، والأهم من ذلك «لوحاً ذهبياً من ألواح السلطة»، أي جواز مرور، يوجه فيه رعاياه بتزويد آل بولو بالمأوى والخيل والمواكبات الإضافية.

ترك الأخوان بولو بلاط خوبيلاي وأخذا طريقهما عائدين خلال آسيا الوسطى وفارس، في مسير يقرب من ٥٠٠٠ ميل، فوصلا إلى ميناء أياس الأرمني على ساحل البحر المتوسط نحو سنة ١٢٦٩م. من أياس، أبحرا جنوباً إلى عكا معقل الصليبيين على ساحل فلسطين. في أثناء إقامة آل بولو في هذا

الميناء، حيث كان التجار البنادقة ينشطون منذ بداية الحملات الصليبية، علما أنهما لن يستطيعا تسليم رسائل خوبيلاي إلى البابا لأن الحبر صاحب الولاية قد مات في عهد قريب من ذلك الوقت، وأن كرادلة الكنيسة لم يختاروا بعدُ خلفاً. وإذ نصحهما أحد موظفي الكنيسة أنه يتعين عليهما الانتظار ريثما ينتخب بابا جديد قبل أن يحاولا تسليم رسائل خوبيلاي، فقد أبحرا عائدين إلى الوطن.

لما وصل الأخوان بولو إلى البندقية، بعد غياب عقد تقريباً، وجدا أن زوجة نيكّولو (ولا نعرف اسمها) قد ماتت. وإذ التمّ الشمل مع ماركو ابن نيكّولو، وكان يومئذ في الخامسة عشرة، أمضى الأخوان السنتين التاليتين في البندقية منتظرين الأنباء من الفاتيكان في ما يتعلق بانتخاب بابا جديد. وإذ لم يسمعا من ذلك شيئاً، وإذ كانا متحمسين جداً للعودة إلى بلاط خوبيلاي، فقد قررا مغادرة البندقية من جديد، هذه المرة يصحبهما ماركو. كانت خطتهما هي العودة إلى عكا، والحصول على رسائل إلى خوبيلاي من سلطات الكنيسة، والتوقف في القدس لأجل شيء من الزيت من القبر المقدس. بعد الوفاء بمطالب خوبيلاي جزئياً، كانا سيأخذان بعد ذلك طريق العودة إلى بلاطه، مبتدئين مسيرهم البري من أياس. (لقد كانت أياس قد غدت أكثر أهمية، بصفتها الميناء الرئيسي للمسيحيين، بعد سقوط عكا والمينائين الصليبيين الآخرين صور وطرابلس سنة ١٢٩١م).

ماركو بولو يبدأ رحلاته: شرقي المتوسط

لمَّا شقَّت السفينة التي حجز عليها آل بولو حق الركوب عباب البحر من مرفأ البندقية، وأخذت تذرع البحر الأدرياتيكي في طريقها إلى عكا، لنا أن نتساءل عن الأفكار التي كانت تخطر ببال ماركو الشاب. ماذا أخبره أبوه وعمه عن تجاربهما في الشرق؟ هل أنبآه بلقائهما بخوبيلاي خان؟ لمَّا كان ماركو يأخذ هواء البحر في رئتيه، هل كانت لديه أدنى فكرة أنه قد شرع في سفر سوف يلهب خيال الناس طوال قرون ستأتي؟ لا نستطيع سوى تخمين الأجوبة عن أسئلة كهذه لأن بولو يقدم لنا معلومات قليلة جداً عن نفسه. عموماً، يبدو أنه

اعتقد، على غرار أكثر كتَّاب رحلات ما قبل العصور الحديثة، أن قراءه سوف يكونون أكثر اهتماماً بالبلدان والناس الذين شاهدهم – وحصل له علم بهم بطرق أخرى – أكثر من اهتمامهم بحياته الداخلية (وكم يختلف هذا الأمر عما في يومنا هذا من أدب الرحلات الحافل بالقلق).

وعليه، فإن التمهيد لا يخبرنا بشيء عن تفاصيل رحلة آل بولو البحرية خلال البحر المتوسط. لكن بالنظر إلى تسارع التجارة فيه من زمان الحملات الصليبية الأولى، فإن لدينا أدلة كثيرة يمكن أن تعيننا في ما يتعلق بذلك. نعلم أن التجار وأصحاب السفن الإيطاليين، ولا سيما أبناء البندقية وجنوا، قد أبحروا مراراً وتكراراً إلى عكا وأياس. من سنة ١١٠٤ إلى سنة ١٢٩١م، ولمَّا كانت عكا تحت حكم الصليبيين. كان للتجار البنادقة حقوق تجارية خاصة في المدينة. لقد استفادوا فائدة كبيرة من حمل أعداد كبيرة من الصليبيين والحجاج والتجار والسلع إلى الميناء الصليبي ومنه، كل عام. برزت أياس كمركز كبير للتجارة الدولية نحو سنة ١٢٠٠م، ارتباطاً مع قيام أرمينيا الكيليكية، وهي مملكة أناضولية صغيرة. طوال القرن التالي ونصف القرن، ازدهر الميناء الأناضولي بصفته صلة وصل مهمة بين طريق الحرير ومرافئ عديدة في البحر المتوسط والبحر الأسود.

لنا أن نفترض أنه لما غادر ماركو والكبيران من آل بولو البندقية سنة ١٢٧١م إنَّما فعلوا ذلك بين شهري نيسان وآب. كما الحال في العصر الكلاسيكي، كانت الرحلات البحرية في البحر المتوسط تقع عادةً بين نيسان وأيلول، حين تكون الرياح والشروط الأخرى مؤاتية. كانت الرحلة البحرية التي تنطلق من البندقية إلى عكا، وتستفيد من الرياح في الظَهر، تستغرق عادةً ثلاثة أشهر أو أربعة تقريباً؛ كانت رحلة العودة، معاندةً للرياح السائدة، تستغرق وقتاً أطول.

حصلت رحلة آل بولو البحرية إلى عكا في أثناء المراحل الباكرة من الفتح الكبير في التقانة البحرية المتوسطية التي قامت أساساً في أحواض السفن في

البندقية وجنوا. صار بدن السفينة الإيطالية في المرحلة المشار إليها أكثر طولاً (حتى ٣٠ قدماً)، وأكثر متانة (تستطيع حمل ٦٠٠ طن)، وتحمل من الأشرعة القوية عدداً أكبر مما كان عليه الأمر في القرون السابقة. من الراجح أن بعضاً من أهم ابتكارات ذلك الوقت (الدفة الثابتة والبوصلة البحرية وخرائط الساحل) قد جاءت من الصين عن طريق المحيط الهندي. التجديدات الأخرى، من مثل إضافة «برجي» المقدمة والمؤخرة، يبدو أنها نشأت من التقاليد المميزة لبناء السفن في البحر المتوسط. كائناً ما يكون موطن هذه التحسينات في التقانة البحرية، فلقد انتشر أثرها في مدن البحر المتوسط بسرعة. لقد ارتفع كثيراً عدد الرحلات البحرية في المتوسط والأسود. في أوائل القرن الرابع عشر، أعيد افتتاح المسلك المارّ بمضيق جبل طارق لأول مرة منذ العهد الروماني.

بحسب «التمهيد»، وقف آل بولو الثلاثة، كما هو مخطط، في عكا والقدس في طريقهم إلى أياس. عند وجودهم في القدس، يرد في «التمهيد» أنهم حصلوا على الزيت من القبر المقدس. مع أن المصريين المماليك، وكانوا مسلمين، كانوا يومئذ يسيطرون على القدس، فإن هذا الادّعاء معقول. لقد زار مسيحيون آخرون المدينة المقدسة في الفترة نفسها تقريباً من غير وقوع حوادث.

لكن، عندما نقرأ في «التمهيد» بعد ذلك أن آل بولو التقوا في عكا بغريغوري العاشر البابا المنتخب حديثاً، فإن الشكوك تراودنا. مع أننا نعلم أن البابا الجديد كان في عكا سنة ١٢٧١م حقاً، فإن غياب أي سجلّ بابوي في ما يتعلق بآل بولو - أو برسائل من خوبيلاي خان - أمر مُشكِل. هل اخترع ماركو وروستيكيلّو قصة اللقاء مع غريغوري العاشر لنفخ اهتمام قرائهما بالصفحات التي تلي ذلك؟ لا نستبعد هذا الاحتمال.

براً خلال فارس

هاهنا قدرٌ كبير من عدم اليقين في ما يتعلق بالمسلك الذي تبعه آل بولو من أياس، الجزء من مسيرهم الذي أخذهم خلال فارس الواقعة تحت حكم

المغول نحو ميناء هرمز على الخليج الفارسي (العربي). لعلهم بدأوا رحلة بعربة تجرها الثيران امتدَّت ٦٠٠ ميل خلال الأراضي العالية من شرقي الأناضول وأرمينيا - حيث النقل بالقوافل راسخ - إلى تبريز، العاصمة المغولية في فارس والمركز الكبير للتجارة البعيدة المدى. من تبريز، كان لهم أن ينعطفوا جنوباً ويستمروا في المسير براً نحو ألف ميل إلى هرمز. (يأخذ سيناريو آخر آل بولو فيتوجه بهم شرقاً من أياس إلى نهر الفرات، ومن ثم ينزلون مع تيار النهر إلى الميناء على الخليج؛ هذا المسلك الأخير موضح بالخارطة في الصفحة).

أثارت هرمز إعجاب بولو، ولقد زارها أيضاً في رحلة عودته من الصين:

«تقوم على الساحل مدينة تدعى هرمز، وهي مرفأ ممتاز. يأتي التجار بالسفن إلى هنا من الهند، آتين بكل أصناف التوابل والأحجار الكريمة واللآلئ والثياب الحريرية والذهب وأنياب الفيلة وكثير من البضائع الأخرى. في هذه المدينة يبيعونها للآخرين، الذين يوزعونها على غيرهم في طول الأرض وعرضها. إنها مركز عظيم للتجارة، تتبعها مدن وبلدات كثيرة. اسم ملكها [ومن المفترض أنه من الخاضعين للمغول] رويميدان أحمد. المناخ حار، بسبب حرارة الشمس، وغير صحي».

من هرمز، عزم آل بولو على الأرجح أن يستمروا في مسيرهم شرقاً بالسفينة. لكنهم لما غادروا الميناء الفارسي، فإنهم فعلوا ذلك في البر. يبيّن بولو السبب:

«سفنهم رديئة جداً، ويغرق الكثير منها، لأنها غير مشدودة بمسامير من حديد، بل مشبكة بعضها إلى بعض بخيط مصنوع من قشر جوز الهند. ينقعون القشر حتى يتخذ صورة نسيج من شعر الخيل؛ ثم يعملونه خيطان ويخيطون به سفنهم. الماء المالح لا يفسده، بل يدوم طويلاً على نحو عجيب. للسفينة صارٍ واحد، وشراع واحد، ودفة واحدة، وليس لها ظهر؛ بعد تحميلهم السفينة، يغطون الحِمْل بالجلود، وفوق هذا يضعون الخيول [من فارس وشبه الجزيرة العربية] ويشحنونها إلى الهند للبيع. ليس عندهم مسامير من حديد؛ لذلك يستعملون

الأوتاد الخشبية ويخيطون بالخيوط. هذا الأمر يجعل الإبحار بهذه السفن شيئاً فيه مجازفة. وصدّقوني إن كثيراً منها يغرق، لأن المحيط الهندي كثيراً ما يكون عاصفاً جداً».

لخوف آل بولو من الإبحار في مركب ذي بدن مخيط (وهذا أسلوب لا يزال مستعملاً جداً إلى يومنا هذا في قوارب صيد السمك في جنوبي الهند وسريلانكا)، فإنهم ركبوا الدواب مرة أخرى وتوجهوا شمالاً فشرقاً خلال النجد الفارسي القاحل في ٩٠٠ ميل أخرى نحو بلخ، ولعلهم ساروا جزءاً من مسيرهم على قسمٍ من طريق خراسان الذي كان قد استعمله مسافرون لا يحصون عدداً ابتداءً من العصر الكلاسيكي (انظر الفصل الرابع).

من الراجح أننا مصيبون لو فرضنا أن آل بولو سافروا عابرين فارس الواقعة تحت حكم المغول بانضمامهم إلى واحدة من قوافل الحمير الكثيرة التي كانت تتحرك خلال المنطقة في أثناء العهد المغولي. مع أن السفر بالقافلة كان شائعاً، فإنه لم يكن سهلاً. كان قطار الحمير يشتمل على عدد يصل إلى ألف من دواب الحمل ذات النهيق والرائحة الكريهة التي كانت تتحرك ببطء فوق طرقٍ هي آثار أقدام لا غير.

لم يكن بولو من أهل التشكّي. لقد أعجبه الحيوان الشديد الاحتمال، وإنه ليذكر هذا واضحاً في فقرة معبّرة:

«[في فارس]... أحسن الحمير في العالم، ثمن الواحد منها ثلاثون ماركاً [بندقياً] فضياً. السبب في هذا هو أنها تأكل القليل، وتحمل الأحمال الثقيلة، وتقطع المسافات الطويلة في اليوم الواحد، محتملة من العناء ما يفوق طاقة الخيول والبغال. ذلك أن تجار هذه المناطق، حينما يسافرون من بلد إلى آخر، يجتازون صحارى شاسعة، أعني بقاعاً رملية قاحلة، لا تنتج عشباً ولا علفاً ملائماً للخيول؛ والآبار ومصادر المياه العذبة بعيدة جداً بعضها عن بعض، بحيث إنه عليهم أن يسافروا مراحل طويلة كي تنال حيواناتهم ما تشربه. لما كانت الخيل لا تستطيع

احتمال هذا، فإن التجار يستعملون فقط هذه الحمير، لأنها مطايا سريعة وماشيةٌ للهوينى بثبات، إلى جانب قلة كلفة اقتنائها. لذلك هي تعود على صاحبها ما ينفقه من ثمنها أكثر مما تفعل الخيل. إنهم يستعملون الإبل أيضاً، وهي كذلك تحمل الأحمال الثقيلة ولا يُكلف كثيراً تدبيرُ احتياجاتها».

على الرغم من على السلام المغولي، ظلت السلامة الشخصية أمراً من الأمور الكبرى التي شغلت بال آل بولو وسواهم من المسافرين على الطرق العظمى. كان كِبَر حجم القافلة عوناً على تأمين التجارة والمسافرين من هجمات قطّاع الطرق. امتلك آل بولو أيضاً مصدرَ أمانٍ ثانياً هو جواز السفر الذي أعطاه خوبيلاي خان لنيكّولو ومافّيو في رحلتهما السابقة. كانت عصابات اللصوص التي لا تكترث للمرور الآمن الممنوح لمسافرين مختارين من قبل السلطات المغولية تعرّض نفسها بفعلها ذلك للخطر.

لكن المغول لم يفلحوا كلياً في تأمين السلامة للمسافرين في أراضيهم. في فقرة معبّرة أخرى يخبرنا بولو عن مشكلة اللصوصية على الطرق العظمى في فارس المغولية:

«مِن أهل هذه الممالك [مناطق فارس] كثيرٌ منهم قساة ومحبون لسفك الدماء. إنهم دائماً يقتلون بعضهم بعضاً؛ لولا خوفهم من الحكومة، أعني الـ [إيلخانات]، لأوقعوا بالتجار المسافرين أذى كبيراً. تفرض الحكومة عليهم عقوبات شديدة، ولقد أمرت أنه في كل المسالك الخطرة يقوم السكان بناءً على طلب التجار بتقديم مواكبات جيدة وكفوءة من منطقة لأخرى لأجل الوصول الآمن، مقابل دفع غرواتين [نقود فضية بندقية] أو ثلاثة لكل دابة محملة تباعاً لطول المسار. لكن، ومع كل ما تستطيع الحكومة فِعْله، فإن قطاع الطرق هؤلاء لا يرتدعون عن السلب المتكرر. ما لم يكن التجار مسلحين جيداً ومزودين بالأقواس، فإنهم سيقتلونهم ويعتدون عليهم بلا رحمة».

يبدو أن قطاع الطرق في فارس كانوا أشد ما كانوا عليه في الجنوب الغربي، حيث كانت سلطة الإيلخانات ضعيفة نوعاً ما. ينبئنا بولو أنه بينما كان وصحبه يرتحلون في هذه المنطقة تعرضوا لهجوم شديد من إحدى عصابات اللصوص. أخذوا أسرى كثيرين، باعوا بعضهم رقيقاً وقتلوا الآخرين. نجا آل بولو بشق الأنفس.

كان عوناً على مسيرهم خلال فارس بقاءُ شبكة الخانات التي كانت قد أُقيمت على المسالك الكبرى وفي أكثر المدن إبَّان العصر العباسي. لا يذكر بولو هذه الخانات، لكنه حتماً قد نزل في كثير منها. كانت الخانات، وقد بُنيت كالحصون وعلى نحو خمسة وعشرين ميلاً بين الواحد والآخر (مسير يوم)، كانت أماكن يستريح فيها المسافرون وحيواناتهم بعد يوم شاق على الطريق. كان يمكن للمسافرين أن يجدوا في هذه المنشآت الغذاء والماء والمكان للمبيت والعلف والإسطبل والمكان لإيداع الأحمال. اشتمل بعض الخانات، ولا سيما التي في المدن، على مكان للبيع والشراء. كذلك كانت الخانات أماكن يمكن للمسافرين أن يتبادلوا فيها المعلومات عن أحوال الطريق، ويطلعوا على الإشاعات المحلية، ويتبادلوا الحكايات الطويلة. رغم أن المغول دمروا كثيراً من مدن آسيا الوسطى (وروسيا) في حركتهم غرباً، يبدو أنهم تركوا معظم شبكة الخانات سليماً. لعل هدفهم كان إرهاب سكان المدن أولاً ومن ثم رعاية إحياء التجارة التي يمكن فرض الضريبة عليها.

تزودنا وقفة آل بولو في بلخ (قبل ابن بطوطة بجيلين)، على الطرف الشرقي من أراضي الإيلخانات، بدليل مبهم نوعاً ما على أثر المغول في مدن القوافل في هذا الإقليم:

«بلخ مدينة رائعة ذات حجم عظيم. لقد كانت أعظم وأروع؛ لكن [المغول] والغزاة الآخرين استباحوها ونهبوها. وأخبركم أنه لطالما كان فيها قصور بديعة وبيوت من المرمر [؟]، لا تزال مرئية، لكنها اليوم أطلال مهدمة. كانت هذه

المدينة هي، بحسب الأخبار المحلية، المدينة التي تزوج فيها الإسكندر ابنة داريوس [الإمبراطور الفارسي]. السكان يعبدون محمداً».

يبدو أن ثلاث نقاط جديرة بالملاحظة مرتبطة بزيارة بولو إلى بلخ. الأولى هي أننا نجد، على نحو مذهل، أن البلخيين قد حفظوا ذكرى زواج الإسكندر في مدينتهم، وإن كان مرور القرون الكثيرة قد جعل خلفية روكسانِه تختلط عليهم؛ لقد كانت، في الحقيقة، ابنة حاكم إقليمي، ولم تكن من ذرية الإمبراطور الفارسي. الثانية هي أن بولو يتيح لنا الاستنتاج أن الثقافة البوذية النابضة بالحياة التي قابلها شوانتسانغ في المدينة قد عُدِمت؛ كان البلخيون في المرحلة المشار إليها مسلمين، بسبب الانتشار الواسع للإسلام في أرجاء آسيا الوسطى خلال بضعة القرون التي انصرمت.

يعود بنا الوجه الثالث من تعليقات بولو على بلخ إلى قضية الأثر المغولي. كانت قد مرت خمسون سنة على قيام جنكيز خان وجنوده، بحسب عبارة مؤرخ فارسي، «بمحو كل آثار الثقافة» من المدينة ومحيطها. لكن، بحسب ما توحي به تعليقات بولو الضبابية نوعاً ما، يبدو أن بعضاً من بلخ قد أعيد بناؤه في عشرات السنين الفاصلة، ولعل السبب في ذلك هو السياسة المغولية في دعم التجارة الطويلة المدى.

في مُلْك خانات الجَغَطاي

من حدود فارس الشرقية ركب آل بولو خلال آسيا الوسطى نحواً من ألفي ميل، في مسير أتى بهم إلى حدود الصين. أخذهم مسلكهم فعبر بهم سهول شمالي أفغانستان، وعلا جبال بامير، واخترق الجماعات التي تسكن الواحات المتناثرة على الحافة الجنوبية لصحراء تَكْلاماكان. كانت هذه الأراضي تحت السلطة الفضفاضة لخانات الجَغَطاي، وكان يسكنها خليط من المزارعين والرعاة الناطقين بلغات الترك، وأكثرهم مسلمين. اشتملت مدن الإقليم، وكان كثير منها

مهماً في التجارة بين الشرق والغرب منذ زمان طويل، على العديد من التجار المسيحيين النساطرة واليهود الذين كانت لغتهم إما السريانية أو الفارسية.

* * *

أمضى آل بولو نحواً من سنة في بلاد بَدَخْشان (هي اليوم شمالي أفغانستان) العالية، حيث مكّنت درجات الحرارة المنخفضة قليلاً والهواء الصحي ماركو من التعافي من مرض من الراجح أنه أصيب به في هرمز. يروي أن ملوك بَدَخْشان (وكانوا قطعاً تابعين لخانات الجَغَطاي) يدّعون الانتساب إلى الإسكندر الأكبر. يُبرز وصفُ بولو للإقليم أهميةَ الأشياء النادرة التي تستخرج من المقالع هناك (العقيق واللازورد)، ووجودَ الخيولِ الممتازة والصقورِ الرائعة والقطعانِ الضخمة من الغنم البري. يحمل أحد أنواع الغنم البلدي في هذا الإقليم (أوفيس أمّون بوليي)، ويعرف بقرونه الطويلة، اسم الرحالة البندقي.

أمضى آل بولو بضعة أسابيع في عبور سلسلة بامير المغطاة بالثلج، وهي إحدى أعلى جبال الأرض. رأى بولو في الارتفاعات الدنيا المراعي النضرة والحياة البرية الكثيرة جداً، لكنه يُخبر عن المناطق الأكثر ارتفاعاً أن الهواء الرقيق ودرجات الحرارة الباردة قد جعلت من المحال على الحيوانات أن تبقى على قيد الحياة، ومن الصعب تشييد موقد تكفي حرارته للطبخ. لم يجد آل بولو في مسيرهم على الأقدام لاثني عشر يوماً عند الأطراف العليا لجبال بامير أي خان واضطروا لحمل كل مؤونتهم.

على مثال شوانتسانغ، هبط آل بولو جبال بامير بجوار كاشْغَر ومن ثم تبعوا المسلك الجنوبي حول صحراء تَكْلاماكان إلى حدود الصين (مقاطعة قانسو في الوقت الحاضر). يبدو أنهم اجتازوا واحات تَكْلاماكان بسرعة، ربما بسبب كونهم في الإقليم في أثناء شهور الصيف فائقة الحرارة. وصْفُ بولو للأحوال في شتى الواحات مختصر نوعاً ما وغير مفيد بالمعلومات على نحو خاص. لكن وصفه للتحديات التي تواجه المسافرين في تَكْلاماكان

قوي الأثر ويستعيد ذكريات الاختبارات التي مرَّ بها شوانتسانغ في الإقليم نفسه قبل ذلك بستة قرون:

«عندما يركب الرجل ليلاً [ليجتنب الحرارة] مجتازاً الصحراء ويحدث ما يجعله يتخلف ويفقد الاتصال بأصحابه، كأن يسقط نائماً أو غير ذلك، ويريد بعد ذلك الالتحاق بهم مرة أخرى فإنه يسمع أرواحاً تتكلم على نحو يبدو عليها أنها أصحابه. بل إنها، في الحقيقة، تناديه باسمه. وكثيراً ما تجعله هذه الأصوات يضل الطريق، فلا يجده أبداً مرة أخرى.... أجل، وحتى في وضح النهار يسمع الناس أصوات الأرواح هذه، وكثيراً ما يُخيّل إليك أنك تسمع أنغام كثير من الآلات، ولا سيما الطبول، وقعقعة السلاح. لهذه الأسباب، تحرص عصائب المسافرين على البقاء قرب بعضهم البعض. قبل الذهاب إلى النوم، ينصبون علامة تشير إلى جهة سفرهم. ويربطون حول أعناق جميع دوابهم أجراساً صغيرة».

في مُلْك خوبيلاي خان

بعد أن ظل آل بولو على الطريق نحو سنتين وسجّلوا أكثر من ٨٠٠٠ ميل (منذ ركبوا السفينة في البندقية)، عبروا إلى غربي الصين سنة ١٢٧٣م وتحركوا خلال مغارة قانسو نحو الالتواءة العظيمة في الأطراف العليا من النهر الأصفر. من بين أكثر المشاهد تشويقاً لمسافري يومنا الحاضر في هذا الجزء من الصين بقايا السور العظيم، الذي لا يقول بولو عنه شيئاً. كما رأينا، أفضى سكوت بولو عن السور العظيم ببعض العلماء إلى التشكيك حتى في وصوله إلى الصين. لكن الأبحاث الحديثة أثبتت أن الصينيين مع تشييدهم منذ زمان طويل الأسوار الدفاعية على طول حدودهم الشمالية والغربية، فإنهم لم يشيدوا السور العظيم حتى القرن الخامس عشر، بعد وقت بولو بزمان طويل. وعليه، إن «حذف» بولو للسور العظيم من كتابه لا يحط من قيمة مدَّعاه بأنه زار الصين.

لأسباب غير واضحة، يبدو أن آل بولو أمضوا أكثر من سنة في قطع الأميال الألف الأخيرة من غربي قانسو إلى شانغدو عاصمة خوبيلاي خان الصيفية في منغوليا. لعلهم تسكعوا في عاصمة قانسو الإقليمية. على كل حال،

بعد أن سار آل بولو متَّبعين مسلك القوافل الرئيسي خلال قانسو إلى الالتواءة في النهر الأصفر، انعطفوا شمالاً نحو سهول منغوليا.

وصل آل بولو إلى شانغدو سنة ١٢٧٤ أو ١٢٧٥م، وهي لحظة مهمة لخوبيلاي خان وللمغول وللصينيين. فمع أن المغول كانوا قد حكموا شمالي الصين مدة جيل، فإنهم لم يتمكنوا من قهرِ القوى العسكرية لسلالة سونغ الجنوبية والسيطرةِ على جنوبي الصين، وهو موطن أكثر اقتصادات العالم ديناميةً وإنتاجيةً، إلا في سبعينيات القرن الثالث عشر. لقد عنى فتح المغول للأراضي جنوبي النهر الأصفر أن الصين صارت في المرحلة المشار إليها موحدة لأول مرة منذ قرنين، وأن خوبيلاي خان كان الحاكم لأغنى بلدان العالم وأكثرها سكاناً.

أمضى آل بولو السنوات السبع عشرة التالية في الصين، على الأرجح مستخدمين عند خوبيلاي، الذي استأجر أجانب كثيرين كموظفين، لأن المتاح من المغول للخدمة كإداريين كان قليلاً، ولأنه لم يثق بولاء رعاياه الصينيين (ولم يتكلم بالصينية). وكما رأينا، يبدو أن بولو بالغ في أهمية نشاطاته في أثناء سنواته في الصين. لكن غنى المعلومات الدقيقة الواردة في الكتاب عن المغول وعن الأحوال في الصين يسبغ المصداقية على مُدَّعى بولو أنه قام بأسفار واسعة في الصين بالنيابة عن خوبيلاي في صورة من صور وظيفة جمع المعلومات.

من الجدير بالتركيز عليه أنه مع إقامة بولو سبع عشرة سنة في الصين، فإنه ظل على نحو كبير أجنبياً مستخدماً عند نظام غريب. لقد أطلق خوبيلاي على السلالة التي أسسها اسماً صينياً (يوان: «الأصل») وبنى لبلاطه عاصمتين على الطراز الصيني، لكن المغول عموماً أقصوا أنفسهم عن رعاياهم الصينيين. وعليه، لم يستعمل خوبيلاي نظام الامتحان الكونفوشي الذي طالما استعمله الأباطرة الصينيون لاختيار مَلاك موظفيهم. كان التزاوج بين المغول والصينيين قليلاً، إن وقع. لم تتبنَّ النساء المغوليات ممارسة عصْبِ أقدام

الإناث التي كانت تتبناها الصينيات تبنياً متزايداً. وبعد كل ما قيل، كانت الفجوة بين المغول والصينيين واسعة، وربما يُمْكن مقارنتها بالفجوة بين المسؤولين الأوروبيين ورعاياهم الاستعماريين في آسيا وأفريقيا، بين سنتي ١٨٥٠ و١٩٦٠م تقريباً.

الهوّة بين المغول والصينيين عونٌ لنا على فهم لماذا لم يتعلم بولو قطّ أن يتكلم الصينية أو يكتب بها. من أجل تنفيذ واجباته المستحقة عليه لخوبيلاي، من المؤكد أنه أتقن المغولية، كأبيه وعمه. لكن ما من حاجة حقيقية لآل بولو والأجانب الكُثُر سواهم، الذين كانوا يخدمون المغول كموظفين، إلى معرفة الصينية؛ كان بوسعهم الاتكال على الأتباع المحليين ليقوموا بدور المترجمين. ليس معنى هذا أن كتاب بولو خال من المعلومات عن الصين والصينيين. كما سنراه وشيكاً، الكتاب قيِّم على نحو عظيم في ما يتعلق بهذا. ومع هذا، كتابة بولو عن المغول أكثر فورية وأكثر نبضاً بالحياة، عموماً.

يقدّم بولو المغول بوصفٍ لـ «أعرافهم وعاداتهم» في السهب، وصف وجيز وثاقبٍ يشتمل على ممارستهم الارتحال بين المصيف والمشتى، وعلى منازلهم المدورة النقالة المصنوعة من الخشب واللباد، وعرباتهم المغطاة باللباد، وغذائهم المعتاد الأساسي وهو اللحم والحليب. يُبرز وصفه للدين المغولي أهميةَ الشامانية عند الأقوام الرحّل:

«يقولون بوجود إلهٍ عليٍّ، مجيد وسماوي، يصلون له يومياً بالمجمرة والبخور.... لهم أيضاً إله خاص بهم يدعونه ناتيغاي. يقولون إنه إله أرضي يجعل عينه على أطفالهم ودوابهم وغلالهم. إنهم يجلّونه ويكرمونه كثيراً؛ فلكل رجلٍ واحدٌ [إله] في منزله. يصنعون هذا الإله من اللباد والقماش ويضعونه في منازلهم؛ وكذلك يصنعون زوجة الإله وأطفاله. يضعون زوجته عن يساره وأطفاله أمامه. ويعاملونهم بإجلال عظيم. متى همّوا بتناول الطعام، أخذوا قطعة من الشحم ولطخوا بها فم الإله، وأفواه زوجته وأطفاله. ثم أخذوا مَرَقاً وأراقوه

خارج باب المنزل. عند فعلهم ذلك يقولون إن الإله وآله نالوا نصيبهم. بعد ذلك يأكلون ويشربون».

لِعلْم بولو أن قرّاءه الأوروبيين سيهتمون كثيراً بالشؤون العسكرية المغولية، فقد كرّس بضع فقرات إضافية لهذا الموضوع. لقد أثار إعجابه جَلَدُ الجنود المغول، وبراعتُهم على ظهور الخيل، واستعمالُهم للتراجع الزائف في المعارك، والحرصُ الذي ينظم به القادة المغول جيوشهم.

تتركز أشهر فقرات بولو عن المغول على خوبيلاي خان ومجمع قصره في شانغدو. يُطلق بولو على خوبيلاي لقب «أعظم سيد عرفه العالم على الإطلاق»، ويصف واسع أهل بيت الخان الأكبر واشتماله على أربع زوجات، والكثير من الجواري. تقوم كل واحدة من الزوجات على رأس بلاط يتألف من مئات السيدات المشرِفات والآلاف من الجواري الإضافيات. بحسب بولو، كان لخوبيلاي اثنان وعشرون ولداً ذكراً من زوجاته الشرعيات وخمسة وعشرون ابناً آخرون من جواريه (لا يأتي على ذكر عدد بناته).

يبدو وصْف بولو لمظهر خوبيلاي الشخصي عاماً قليلاً لبعض القراء الحديثين، ولقد عزَّز رأي المشكّكين في بولو، القائلين أن الرحالة البندقي والخان المغولي لم يلتقيا قط:

«[خوبيلاي خان] رجل ذو قامة حسنة، ليس بالقصير ولا بالطويل بل هو متوسط الطول. أطرافه مستقيمة مكتنزة ومسبوكة سبكاً متناسباً. بشرته نقية ومحمرة كالورد، وعيناه سوداوان وجميلتان، وأنفه حسن التشكيل وقائم في مكانه».

في الدفاع عن تذكُّر بولو لخوبيلاي، من المفيد استحضار أنه كان يكتب في وقت كان فيه الأوروبيون لا «يرون» ما يرونه اليوم. إن العصر العظيم عصر الرسم والنحت الأوروبيين للشكل الإنساني، وقد ازدهر كلاهما إبَّان النهضة (١٣٠٠-١٦٠٠م)، كان في أول بداياته. لقد كان بولو، في تقديمه

لقرائه القليل من التفاصيل الخاصة عن مظهر خوبيلاي البدني وسواه من الذين قابلهم في رحلاته، كان نموذجياً بالنسبة إلى كتّاب زمانه من الأوروبيين.

حسُّ الصين

إذا كان ماركو بولو قد شاهد الصين من الخارج، فمن الواضح أنه استثير بما رآه، وإن حماسه المتجلي في كتابه، كان له أثر كامن واسع. لقد ظهر بقوة إحساسه بما للصين من غنى لا يضاهى وما ندعوه اليوم الرخاء الاستهلاكي.

وعليه فإن مدينة هانغتشو التجارية العظيمة، التي يحرص على القول بأنه زارها مراراً وتكراراً، فيها، بحسب زعمه، أكثر من ١٢٠٠٠ جسر، ويبلغ محيطها مئة ميل. تعج المدينة بالسلع من شتى مناطق آسيا، ومنها الهند، وتقدّم الدكاكين للمستهلكين «كل مادة يمكن أن يُرغب فيها». اللحم والسمك والخضار والفاكهة وافرة. إن مجرد حجم السكان يجعل المرء يعجب من أمر التموين – «التموين بالطعام الكافي لهم قد يبدو للفكر محالاً» – لكن في الحقيقة تجلب القوارب يومياً كميات من السلع. أكثر الناس يلبسون الحرير، والمهن راقية جداً. بالطبع، السكان «يعبدون الأصنام» (بوذيون، كونفوشيون، طاويون) لكن هذا التعليق المسيحي يُطرح جانباً وسط الإعجاب بالوفرة المادية. القصور وقوارب المتعة والشوارع المبلطة هي أشياء تضاف إلى الإعجاب بالأشياء الترفيهية المدينية. الحكومة أيضاً تستلهم الثناء: يسجّل التعداد الإحصائي كل حالة وفاة، بحيث إن السلطات تعلم العدد الصحيح للسكان في كل الأوقات. كذلك يُفرَض على الفنادق أن ترفع إلى السلطات أسماء كل النازلين. الإجراءات الشُرَطية الدقيقة مفصلة أيضاً.

إن استمتاع بولو بالإفراط أدى به أحياناً إلى الاختلاق الصريح، على غرار رحالة قبله. وعليه فهو يحاجج بأن التبتيين يرمون الفتيات على المسافرين، يفعلون بهن ما يشاؤون إلا أن يحاولوا أخذهن معهم. في الحقيقة، لم يزر بولو التبت، علماً بأن كلامه ينطوي على قيامه بمغامرات جنسية بصفته رحالة؛ لكن من الواضح أن تصويره للتبت كان الغرض منه الدغدغة، – لأنه يضيف قائلاً:

«ولن يكون أمراً في غير محله لشاب بين السادسة عشرة والعشرين أن يزور المنطقة». وبمزيد استخفاف يكتب عن مدينة أخرى سمع عنها فقط بطريق الإشاعة، فيقول إن السكان ليسوا فقط وثنيين بل أشراراً كلياً: «السرقة وارتكاب الخطأ لا يُعدَّان خطيئة، وهؤلاء القوم شرّ الأوغاد واللصوص على الأرض».

لكن، أخذاً لكل الأمور في الحسبان، فإن بولو استعمل رواياته عن الصين، عدا عن الاعتناء بأهمية نفسه، ليحدث في قرائه الإعجاب ببلاد أكثر تقدماً بكثير من أوروبا من كل جانب إلا الجانب الديني. لقد قدّمت أوصافه على نحو يكاد يكون عَرَضياً معرفةً بمنتجات كانت إلى هذه المرحلة غير معروفة غرباً، كالعملة الورقية أو استعمال الفحم في التعدين. كان هاهنا الكثير مما يُتَدَبّر فيه.

المقارنة مع ابن بطوطة معبرة أيضاً. لقد اشترك كلاهما في حس المغامرة الشديد، وفي مقدار غير صغير من التبجح. ارتحل ابن بطوطة ارتحالاً أكثر اتساعاً. بيد أنه كانت له مزية، أو قيد، هي الشبكة الإسلامية الضخمة. رأينا أنه كانت لديه الرغبة في المخاطرة وراءها، لكنه كان ميالاً لأن يصبح نقدياً أو ببساطة سلبياً (كما حصل لما زار الصين) لما نُزِع من مداره. أما ماركو بولو، بعمله انطلاقاً من قاعدة أوروبية ومسيحية أكثر محدودية جغرافياً، فلعله أصبح بحكم الضرورة أكثر ارتياحاً في وجه الاختلافات، وأكثر رغبة في تحبيب إنجازات «غير المؤمنين» إلى الجمهور في الوطن. لم يكن ابن بطوطة محتاجاً إلى إعلام جمهور شرق المتوسط /شمالي أفريقيا بمكتسبات يتعين عليهم مضاهاتها؛ رغم التقدم القريب العهد الذي حصل في عدة مجالات، كان الأمر مع أوروبا الغربية مختلفاً. كانت هاهنا، في حالة ماركو بولو، فرصة لأثرٍ مميز يحصل بصفته نتيجة.

إلى الوطن

زعم ماركو بولو أنه حاول وعمّيه[١] بضع مرات الظفر بموافقة خوبيلاي خان على العودة إلى أوروبا، لكنها رُفضت مراراً وتكراراً. كائناً ما يكون الأمر، نالوا الموافقة أخيراً، لما قرّر الخان الأكبر إرسال أميرة مغولية عروساً لحاكم فارس. يقال إن ثلاثة أشراف مغول، عُيّنوا لمواكبة الأميرة، سألوا مرافقة آل بولو لهم. بحسب إحدى الروايات، حاولوا أولاً السفر براً لكن الطرق سدّت عليهم بالحروب الداخلية بين الخانات، فقرروا الذهاب بحراً؛ توحي رواية أخرى أنهم اختاروا المسلك البحري من البداية، لأنه أقل إرهاقاً للعروس. أعطاهم الخان لوحين يضمنان لهم المرور والزاد المجانيين خلال أراضيه كلها و(كما زعم بولو) رسائلَ لحكام أوروبا. أقلعت ثلاث عشرة سفينة، في مسير قد يأخذ سنتين. بعد الوقوف في سومطرا (إندونيسيا)، أبحروا خلال المحيط الهندي نحو فارس. تزعم رواية بولو أن الرحلة كانت كارثة، إذ هلك ٦٠٠ نفس من الجماعة، بسبب جنوح السفن والمرض، والذين نجوا كانوا ثمانية فقط. توضح السجلات الصينية والفارسية أن الرحلة حصلت ومعها الزواج، لكنها تسكت عن النكبات، علماً أن السفر كان لا يزال خطراً، بحيث إن ادعاء حدوث انتكاسات خطرة هو أمر معقول.

أتاحت رحلة العودة إلى الوطن لماركو بولو التعليق على بعض مناطق أخرى من آسيا، فقد وصف مرة أخرى منتجات جذابة وكذلك أساليب غريبة ومدهشة. عن مدينة قويلون في جنوبي الهند الغربي يقول متهللاً: «ببساطة هي مختلفة عنا؛ هي أجمل وأفضل». ثناء رفيع من بندقي فخور.

أقام آل بولو بضعة أشهر في البلاط الفارسي، يعاونون من جملة أشياء أخرى في أمر ترتيبات الزواج. ثم إنهم ذهبوا إلى ميناء على البحر الأسود وهناك (كما تزعم الرواية) قام حاكم بيزنطي محلي، في نزاع مع البندقية، بسلبهم ثروة صغيرة من القطع الذهبية. تمكنوا من الوصول إلى القسطنطينية، ومن

---

(١) الصحيح: وأباه وعمه، بحسب ما يتضح من السياق – المترجم.

هناك إلى الوطن، سنة ١٢٩٥م. كان قد مرَّ على رحيلهم أربع وعشرون سنة، وصار ماركو بولو في الوقت المشار إليه في أوائل الأربعين من عمره. لم يمرَّ على ذلك وقت طويل حتى سُجِن بولو (في ظروف غير واضحة كلياً) وظهرَ الكتاب.

ما بعد الرحلة والعواقب

خرج ماركو بولو من السجن سريعاً نسبياً وتزوج وعاش بقية عمره في نمط أرستقراطي معتدل. تكشف وصيته عن أنه احتفظ بأشياء قليلة من المغول، ومن ذلك هدية من الخان الأكبر. دوّمت الإشاعات عن ثروته العظيمة، لكنها كانت باطلة على نحو يقرب من المؤكد. لكن الكتاب حقق نجاحاً استثنائياً. خلال خمس وعشرين سنة تُرجِم إلى الفرنسيةِ ولهجاتٍ إيطالية شتى واللاتينية، والألمانية على الأرجح، وهو رقم قياسي لا سابق له في حياة مؤلف إلى تلك المرحلة. استشاره علماء شتَّى، ودعاه أحد الجغرافيين: «أوسع مَن عرفتُ مِن الرحالة سفراً وأكثر المحققين اجتهاداً على الإطلاق». مات ماركو سنة ١٣٢٤م. يرد في إحدى الحكايات أن أصدقاءه حثّوه على إزالة كل المبالغات من كتابه، فأجابهم قائلاً إنه لم يحدِّث بنصف ما رآه فعلياً. ثابتاً على رأيه، على الأقل، إلى النهاية.

استمرت الأسفار إلى الأراضي المغولية ومنها بعد رحلة آل بولو. سنة ١٢٨٧م أرسل الإيلخان الفارسي سفيراً إلى أوروبا، فأحيا اهتمام البابا بآسيا. أُرسلت بضع بعثات جديدة إلى الصين، كان آخرها سنة ١٣٤٥م، وأفلح بعضها في إقامة جماعات من الداخلين في المسيحية صغيرة وزائلة. كان الكثير من الكنائس، بصورة أساسية، لخدمة أُسر التجار الأوروبيين، الذين كانوا في الصين لأسباب تجارية. سجّلت شاهدةُ قبر كاثوليكي من سنة ١٣٤٢م (اكتُشفت سنة١٩٥١م) وفاةَ ابنة تاجر إيطالي، كانت أسرته جزءاً من الجماعة الكاثوليكية المحلية ودعمت كنيسة المدينة.

كذلك اتسع أدب الرحلات الأوروبي، لكن مع بعض التعقيدات. نحو سنة ١٣٥٧م ظهر كتاب عنوانه «الرحلات» لشخص دعا نفسه باسم السير جون مانْدفيل، ظهر أولاً بالفرنسية، لكن سرعان ما تُرجِم على نطاق واسع. كان الكتاب خيالياً، وإن تظاهر بأنه يصف رحلات حقيقية. تحدث عن أفريقيا وآسيا، ووردت فيه روايات عن أناسٍ تقوم رؤوسهم تحت أكتافهم في الصين، وعمالقةٍ بطول خمسين قدماً، ورجالٍ تخرج لهم طبيعياً رجل واحدة فقط (يستعملونها كمظلة عندما يجلسون) في إثيوبيا. أعطي كثير من الاهتمام لبريستر جون، الملك المسيحي الأسطوري القائم في مكان ما من آسيا (ماركو بولو أيضاً آمن ببريستر جون). رغم تهويمات الخيال – وليس هو بجديد على أدب الرحلات الحقيقية، كما رأينا – صدّق كثير من القراء أن هذه رواية لرحلة فعلية، وأن ماندفيل كان أكثر الأوروبيين الذين زاروا آسيا مخاطرةً. تركّز الجزء الأول من الكتاب، واستُمدّ على نحو كبير من روايات لرحلات أخرى، تركيزاً واقعياً على الحج إلى الأرض المقدسة، أقحمت في ذلك رحلات قصيرة إلى مصر والشرق الأوسط (اشتملت على تأملات غزيرة في الأحوال الجنسية لحريم الحكام، ولطالما كان ذلك مثار افتتان الأوروبيين). يتحدث الجزء الثاني عن رحلات إلى الهند والصين الخاضعة للخانات الكبار؛ هذا هو القسم الملآن بالمعلومات الخاطئة الفاتنة. لكن الكتاب استثار اهتماماً واسعاً؛ المئات من النسخ باقية حتى يومنا هذا، ولقد حمل كولومبوس واحدة منها مع مخطوطة بولو. من الواضح أنه مع استمرار الخلط بين الخيال والحقيقة، فإنه حتى الخيال قد عكس اهتماماً متنامياً بالأماكن البعيدة، وأن «رحلات» ماندفيل كانت بلا ريب عوناً على إلهام رحلات بحرية حقيقية، سوف تؤازر وتشيد الصلات مع أفريقيا وآسيا. من الواضح أيضاً أنه حتى الخيال قد عكس أهمية الروابط التي سهّل المغول أمرها.

حقاً، إنه بحلول القرن الرابع عشر استطاع أحد مؤيدي المغول من غربي الصين، وهو وانغ لي، الادعاء أنه في ظل الخانات «انتشرت الحضارة في كل مكان، ولم يبق وجود للحواجز.... من المؤكد أن الأخوة بين الشعوب قد بلغت مستوى جديداً».

خاتمة

لكن أواسط القرن الرابع عشر شهد، في الحقيقة، بدايات النهاية للعهد المغولي ومعه، انتكاسة جديدة للسفر. انتهى حكم المغول في فارس في ثلاثينيات القرن الرابع عشر، ولوحق المغول في الصين حتى طردوا منها بحلول سنة ١٣٦٨م، وسرعان ما أصبح نظراؤهم في روسيا تحت الهجوم أيضاً. أضف إلى ذلك أن الطاعون الدبلي، الذي كان ينتشر من الصين إلى شرقي المتوسط وأوروبا، كانت له آثار مفجعة في الجماعات السكانية والنشاط الاقتصادي الإقليميين، ما زاد في انتكاسة الشبكة الوليدة ما بين الأقاليم. ازداد السفر براً، على وجه الخصوص، صعوبة في غياب الحماية التي استطاع الخانات تقديمها. رأينا، في الفصل السابق، أن ابن بطوطة واجه عدم استقرار متنامياً ليس فقط في الهند بل في أجزاء من شرقي المتوسط وهو عائد إلى وطنه من الصين، وسوف يزداد هذا سوءاً في أواخر القرن الرابع عشر. كذلك كان للطاعون تأثير في ابن بطوطة، وربما شجعه على التوجه جنوباً في آخر رحلة له. مرة أخرى، أصاب الاضطراب الصلات البرية من شمالي أفريقيا وأوروبا الغربية وخلال آسيا الوسطى إلى الصين، حصل ذلك لبضعة أسباب، وسرعان ما بدت تجارب آل بولو وابن بطوطة جزءاً من ماضٍ بعيد جداً.

لكن هذه النتيجة ختمت فصلاً لا الكتاب. لقد حظي إرث رحالة من مثل ابن بطوطة وآل بولو ببضع عواقب دائمة. لقد نُبّه الوعي في أوروبا، على وجه الخصوص، من خلال السفر والتجارة، إلى طائفة واسعة من المنتجات الجديدة، كالطباعة والبارود، لكن أيضاً إلى عناصر أشد تواضعاً كورق اللعب، التي بُثّت جزئياً بكشوف أناس من مثل ماركو بولو. لقد كان نقل التقانة الذي شجعت عليه هذه الجولة ما بعد الكلاسيكية من الأسفار مهماً على نحو عظيم.

كذلك بقيت نابضة بالحياة الشهياتُ التجارية والعطشُ إلى المغامرة، وهذه لن تضمحل لمجرد أن بنية السفر قد وَجَب تغييرها. لقد خُبِرت الصين وأجزاء

آسيا الأخرى خبرة إيجابية وصوّرت تصويراً جذاباً بحيث أن الأوروبيين وغيرهم لن يتخلوا عن رغبتهم في الاحتكاك. سوف يكون للكشوف العلمية للرحالة، ولا سيما ما يسرته الرحلات من تحسّن في رسم الخرائط، نصيبٌ أيضاً. لقد لعب كتاب ماركو بولو نفسه دوراً مستمراً. بحسب ما يمكن تحديده، لم تخلُ الأسواق من طبعات الكتاب، منذ صارت الطباعة متاحة. لقد قرئ على نحو واسع ونوقش نقاشاً متكرراً لمدة طويلة بعد ظهوره. وشكّل الأفكار عن ثروة الصين ووفرتها. كما استثار حساً واسعاً بمرابح التجارة الأجنبية وإثارتها وبعجائب السفر نفسه. لقد ألهم إلهاماً مباشراً أجيالاً من الرحالة سيأتون. ولسوف يصل المغامرون الذين جاؤوا بعد ذلك إلى أماكن أكثر بعداً.

الفصل التاسع

انفجار الرحلات: القرن الخامس عشر وما بعده

مُقَدِّمَة

عكست الفورة الضخمة في الرحلات في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، من شمالي أفريقيا وشرق المتوسط ومن أوروبا، عكساً مباشراً الاستقرار الذي أحدثته الإمبراطوريات المغولية. مع تمزق هذا الاستقرار في المرحلة المشار إليها، صار السفر براً خلال آسيا الوسطى أكثر خطورة على نحو ملحوظ ولم يسترد قط أهميته السابقة، فللمرء أن يتوقع خموداً مؤقتاً في أصناف الرحلات الأكثر مخاطرة. إن الاضطراب الذي تسبب فيه الوباء – ليس فقط الخسارة في السكان، بل التراجع الكبير في الرخاء الاقتصادي في أقاليم كثيرة – قد أضاف المزيد من التعقيد.

لكن، في الحقيقة، كان ردّ المغامرين والحكومات المندفعة وشركات التجار على هذا التحدي هو اتساع آخر في نطاق أسفار المسافات الطويلة وأهميتها. لقد انزاحت مصادر هذا الانفجار في الرحلات ومسالكه الرئيسية انزياحاً يعكس الظروف الجديدة، لكن الشهية الأساسية بقيت قوية. برغم كل شيء، كانت الرحلات الباكرة عوناً في البرهان على عملانية الاحتكاكات الواسعة ومنافعها كليهما: كانت هذه الأسبقيات عوناً على إلهام الانفجار الجديد. كذلك كان للتقانات الجديدة إسهامٌ، ولا سيما الأساليب الجديدة في بناء السفن والأدوات الملاحية التي يسّرت استعمالاً للبحار أعظم قدراً. صارت بضع حكومات – وكانت رعاية الدولة

للرحلات قد لعبت دوراً مهماً - أكثر اهتماماً بتنظيم البعثات. لقد أسهم عدد من العوامل في اتساع الرحلات الطامحة.

على نحو متزايد، أخذ الرحالة يجرون في مسالك مميزة؛ أو انبعثوا من مصادر جديدة كلياً. كان الجمع بين ذلك مثيراً للإعجاب. أيضاً، في كثير من الحالات، اتسعت الرغبةُ في كتابة روايات عن الرحلات، وكذلك الاهتمامُ الظاهر بهذه الروايات، ما يعكس الآثار الجديدة المحتملة للرحلات، ويساعد في تشكيل الطموحات المستقبلية في الوقت نفسه.

أربعة أنماط

هاهنا أربعة أنماط تسوّغ اهتماماً خاصاً، ابتدأ بعضها في القرن الرابع عشر لكنه اتسع بعدئذ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. أخذت الرحلات الروسية تصبح أكثر طموحاً، ومعها شيء من أدب الرحلات الروسي أيضاً. كذلك أصبحت الرحلات الأفريقية أكثر تجاسراً، ولا سيما في ما يتعلق بأوروبا. لبعض الوقت، أبدى الرحالة الصينيون طموحاً لا سابق له، ذاهبين بعيداً وراء حدود متقدميهم المخاطرين. أخيراً، اندفعت الرحلات الأوروبية في جهات جديدة، وسرعان ما اشتمل هذا على رحلات - بعضها طوعي، وبعضها قسري - قام بها أناس في أقاليم أخرى أيضاً.

في الوقت نفسه، احتفظ أكثر المجتمعات التي صار لها خبرة في الرحلات باهتمام مفعم بالحياة. استمر أدب الرحلات الإسلامي في التطور، متركزاً غالباً على الرحلات إلى مكة، من شمالي أفريقيا أو أمكنة أخرى، لكنه كان في الوقت المشار إليه - ولا سيما بعد سنة ١٤٥٣م والفتح العثماني للعاصمة البيزنطية - يتوجه إلى إستانبول أيضاً. في أوائل القرن السادس عشر، أخذ الحسن الوزّان، المولود في إسبانيا الإسلامية لأسرة طردت إلى شمالي أفريقيا سنة ١٤٩٢م، في تطوير سجل رحلاته. سوف يدّعي أنه ارتحل وهو شابٌّ رحلات واسعة في أفريقيا، وبالطبع إلى مصر في طريقه إلى مكة ثم إلى إستانبول؛ لكن وراء ذلك

أيضاً، اتّباعاً لأفضل التقاليد، إلى فارس وآسيا الوسطى. بعد ذلك اتخذت رحلاته، قسراً، منعطفاً مختلفاً: لقد أسره الأوروبيون في هجومهم على شمالي أفريقيا وعادوا به إلى إيطاليا، حيث أمضى سنين كثيرة قبل أن يعود إلى المغرب. سوف يكتب فعلياً رواية رحلات عن أفريقيا بالإيطالية، وهذا على نحو أكثر عمومية إسهامٌ مشوّق في أدب الرحلات. استمرَّ الحسن في الارتحال إلى شتى أجزاء السودان بعد العودة إلى دياره.

اشتمل نمط آخر مألوف جزئياً على أوروبيين استمروا في الانتشار كالمروحة خلال البحر المتوسط ثم إلى ما بعده. في أواسط القرن الخامس عشر ذهب نيكولو كونتي، من أسرة تجار إيطالية ذات خبرة طويلة في تجارة الشرق الأوسط، إلى سورية ثم إلى فارس، زائراً في طريقه شبه الجزيرة العربية؛ بعد ذلك أبحر إلى الهند (ساحليها الغربي والشرقي) وسريلانكا وإندونيسيا، مقتفياً أثر ماركو بولو في طريق عودته للوطن، لكن من غير الوصول فعلياً إلى الصين. سوف يتشارك كونتي لاحقاً مع أحد مثقفي عصر النهضة في إنتاج نقاشٍ رائعٍ موضوعه الهند، إلى حدٍّ ما، روايةٍ لرحلاته أيضاً. في تسعينيات القرن الخامس عشر، زار أرنولد فون هارف، ألماني من رتبة الفرسان (كان الألمان من الداخلين الجدد في لعبة الارتحال الجسور)، مصر وأجزاء أخرى من شرق المتوسط ثم الهند، وكان السبب في ذلك على نحو ظاهر مجرد فضوله للأماكن البعيدة. في أوائل القرن السادس عشر زار إيطالي آخر، لودوفيكو الفارتيماني، الهند، متنكراً كمسلم، ومتكلماً العربية التي تعلمها في دمشق. كاد كتاب الرحلات عن الهند الذي عمله نتيجة لذلك يضاهي لبعض الوقت كتاب ماركو بولو في شعبيته. لكن بحلول هذا الوقت، كانت الرحلات الأوروبية إلى الهند تزداد زخرفة بمنتظم الرحلات البحرية للتجار البرتغاليين، التي عادت بنا إلى أكثر عناصر انفجار الرحلات جدّةً. كان الأوروبيون يَظهرون أيضاً في أفريقيا تحت الصحراء، تماماً كما كان الدعاة العرب يفعلون روتينياً: كان التجار الإيطاليون يكتبون رسائل من السودان بحلول القرن الخامس عشر، وإن لم تكن بعدُ أية روايات لرحلات مفصلة.

الروس والأفارقة

لم تكن الرحلات الروسية إلى شرق المتوسط جديدة: لقد زار التجار والحجاج القسطنطينية إبَّان العصر ما بعد الكلاسيكي. لكن الرحلات استؤنفت بعد سنة ١٤٠٠م، مع تراخي السيطرة المغولية على روسيا. كان الرحالة على نحو متزايد أكثر جدارةً أن يكتبوا عن رحلاتهم، ناشرين معرفة الاحتكاك إلى غيرهم من الروس المتعلمين. في الحقيقة، تماماً عند نهاية القرن الرابع عشر، كتب إغناطيوس السمولينسكي مخبراً عن رحلته، نازلاً نهر الدون إلى القسطنطينية والبحر المتوسط. كان إغناطيوس جزءاً من وفد ديني، وقد سافر لاحقاً أسفاراً واسعة في البلقان. ذهب حجاج روس آخرون إلى الأرض المقدسة، منشئين وصلة مسيحية روسية هناك سوف تظل مهمة في تاريخ المنطقة. مثال ذلك أنه في عشرينيات القرن الخامس عشر، أمضى الراهب زوسيما سنتين في فلسطين قبل أن يتوجه عائداً إلى روسيا. لم يكن عجباً أنه مع هذا الاهتمام المتنامي تجاسر قلة من الروس على المضي أبعد من ذلك. سافر تاجر روسي في أواخر القرن الخامس عشر خلال شبه الجزيرة العربية وفارس ثم إلى الهند، ممضياً سنوات غائباً عن دياره. لقد كانت شبكة اللقاءات غير المتوقعة في الرحلات آخذة في الاتساع.

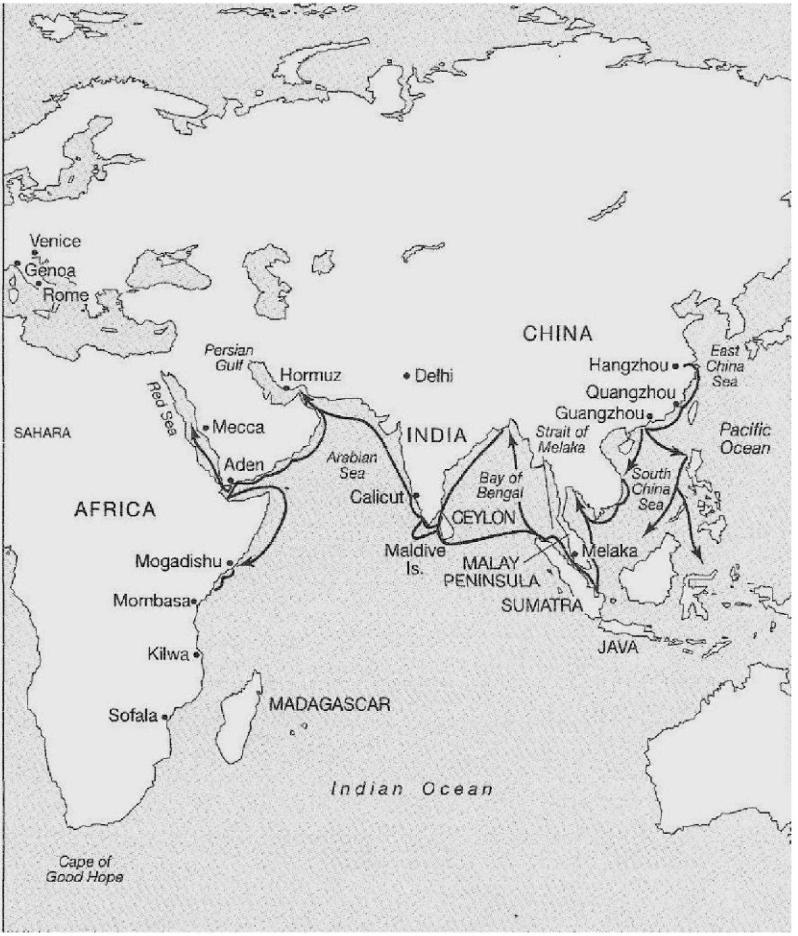
ينطبق الأمر نفسه على الجهات الجديدة للرحلات الأفريقية، في ما عدا الحج إلى مكة. لعب الدين من جديد دوراً كبيراً كمهماز لتمدّد جديد. احتفظ المسيحيون الإثيوبيون، وهم الأجدر هنا بالملاحظة، بحضور في الأرض المقدسة منذ زمان بعيد. أعطاهم هذا احتكاكاً متزايداً مع المسيحيين الأوروبيين في أثناء الحملات الصليبية وبعدها، ومع الازدياد في حركة الحج الأوروربية. حرضت هذه الاحتكاكات، إضافةً إلى تنامي الانشغال بتطويق إثيوبيا بالأفارقة المسلمين، سلسلة جديدة من البعثات الجديدة إلى البابوية، ابتداءً من القرن الثالث عشر. في وقت باكر، أرسل الملك الإثيوبي سنة ١٣٠٦م وفداً من ثلاثين شخصاً زار إسبانيا، وكذلك جنوبي فرنسا (حيث كان البابا مقيماً إقامة

وجيزة). زار الوفد أيضاً الأماكن المقدسة في روما قبل أن يذهب إلى جنوا ليحجز مكاناً على سفينة عائداً إلى الوطن خلال البحر الأحمر. تبعَ ذلك زيارات متبادلة من إثيوبيا ومن أوروبا كليهما.

تسارعت الاحتكاكات في القرن الخامس عشر. سنة ١٤٠٢م قدّم سفراء إثيوبيون هدايا إلى حاكم البندقية هي فهود وتوابل. زار وفد آخر ملك إسبانيا سنة ١٤٥٠م، راجياً من بين عدة أشياء استئجار صنّاع أوروبيين لأغراض دينية، من الموسيقا المقدسة إلى المخطوطات المزخرفة إلى بناء الكنائس. شملت زيارات أخرى البرتغال وأجزاء أخرى من إيطاليا. أخبر أحد المبعوثين البابا أن الإمبراطور الإثيوبي متحمس جداً «للاتحاد مع الكنيسة الرومانية وللانطراح على قدميك الأقدسين»، وإن كان هذا بلا ريب مبالغة في حق ملك فخور غيور على استقلاله. من قوة هذه الزيارات صارت الشخوص الأفريقية تظهر في الأعمال الفنية المسيحية في أوروبا. مع نهاية القرن الخامس عشر أنشأت البابوية فعلياً منزلاً دراسياً للإثيوبيين في روما، كما حصلت بعض الأعمال العلمية الجادة هناك، ومن ذلك ترجمات للكتاب المقدس إلى الإثيوبية.

بحلول أواخر القرن الخامس عشر صار الزوار الأفارقة يصلون أيضاً إلى أوروبا بالسفن البرتغالية والإسبانية، وكثير منهم مخطوفون، استعملوا عبيداً منزليين. لكن بضعة وفود رسمية أُرسلت من الحكام من مثل ملك الكونغو وكذلك حاكم بينين. كان هدفهم هو الاحتكاك الديني إلى حدّ ما، لكن أكثر عملهم كان من أجل المساعدة العسكرية في وجه الأعداء المحليين، ومن ذلك الإمداد بالبنادق. جلبت الوفود هدايا نفيسة، اشتملت غالباً على العبيد، فلقيت معاملة معدة بعناية، في إحدى الحالات في البرتغال، قدِّم لهم «فضة وخَدَم وكل أشكال اللطف» (ومن ذلك اللباس). أقيمت عروضُ مصارعة الثيران ورقصٌ على شرف الزوار. ما يثير السخرية أن زيارة جوابية من البرتغال إلى السنغال قد أُجهضت لما تملّك الربان البرتغالي الخوف من الأمراض المدارية ورجع مباشرة بدلاً من أن ينزل إلى البر. كان أحسن من ذلك مصيرُ تبادلٍ للزيارات مع الكونغو، ولقد استطاع وفد برتغالي، اشتمل على بضعة مبشرين حاملين

هدايا دينية، أن يُدخل الكثيرين في المسيحية في تسعينيات القرن الخامس عشر. تلا ذلك زيارات منتظمة، استمرت إلى أوائل القرن السادس عشر. لم تتقطع الزيارات الطوعية من أفريقيا الغربية إلا بعد سنة ١٥٥٠م، لما عكرت صفوَ العلاقات النقمةُ على القوة العسكرية البرتغالية والقلقُ من تجارة العبيد. لبعض الوقت، أحدث التمدّد الأفريقي مجالاً جديداً مشوقاً لقصة الرحلات في التاريخ العالمي، وإن لم تظهر إلى ذلك الحين من الجانب الأفريقي روايات رحلات مكتوبة منهجية.



رحلات تشينغ خه (المترجم)

مبادرات صينية جديدة

لكن أعظم الفورات في الرحلات في القرن الخامس عشر انبعث إلى حد بعيد من الصين وأوروبا. لقد ارتبط الأمر في الحالتين جزئياً بانهيار المسالك البرية في آسيا الوسطى، مع سعي الإقليمين على طرفي أوراسيا وراء مسالك احتكاك جديدة للتعويض.

منذ زمان بعيد أحسَّت الصين شعور ليس فقط بوجود الهند، بل أيضاً بوجود أفريقيا وفارس وشرق المتوسط، من خلال الزوار والتجار الأجانب، إن لم يكن من شيء آخر. لقد بيع بعض العبيد الأفارقة إلى الصين، وكانت المعرفة بالجغرافيا الأفريقية واسعة. بكلمة أخرى، كان السياق مناسباً لمستويات جديدة من الرحلات المباشرة. كذلك كانت التقانة. رأينا، من خلال خبرات الرحالة كابن بطوطة وماركو بولو، أن تقانة ركوب البحر في الصين قد تحسنت كثيراً، حتى بحلول القرن الثالث عشر. كان بالإمكان بناء سفن ضخمة، قادرة على السير بسرعة تصل إلى ٣٠٠ ميل في اليوم، حاملة إمدادات عظيمة خلال المحيط الهندي. كتب مراقب صيني ملاحظاً:

«كانت السفن التي تبحر في البحر الجنوبي وإلى الجنوب منه كالمنازل. عندما تنشر أشرعتها تكون كالسحب العظيمة في السماء. الدفة فيها بطول عشرات الأقدام. تحمل السفينة الواحدة مئات الرجال، ويكون في مخازنها مؤونة سنة من الحبوب. الخنازير تُغذى والخمر يُخمر على متن السفينة.... عندما يقرع الجرس عند طلوع النهار على متن السفينة، يمكن للحيوانات أن تشرب كفايتها. وينسى الطاقم والركاب كلاهما جميع المخاطر. للذين على متن السفينة كل شيء مستور وغائب في الفضاء، الجبال والمعالم والبلدان الأجنبية».

ما إن طُرد المغول وأُسست سلالة جديدة هي مينغ حتى أطلق الصينيون، متسلحين بهذه الجونكات، سلسلة ضخمة من البعثات في أوائل القرن الخامس عشر، بقيادة أميرال مسلم هو تشينغ خِه. كانت البعثة الابتدائية بأمر الإمبراطور مباشرة. لقد أعمل المؤرخون الظن لمعرفة دوافعه: من الواضح أنه لم يرِد فتح أقاليم المحيط الهندي، وإن أفضت البعثات إلى اشتباكات عسكرية.

من الجلي، كما سنرى، أنه قد كانت رغبة في الإعلان عن قوة الصين وتنوّع تصنيعها. من الراجح أن بعض الاهتمام تركّز على التجارة المتزايدة مع الأجزاء الأخرى من حوض المحيط الهندي. لكن الدافع البارز كان هو امتداد نظام الجزية الصيني، الذي استُعمل منذ زمان طويل مع الرحّل والبلدان المجاورة مثل كوريا، حيث كانت الحكومات الأجنبية، المتأثرة بقوة الصين وتعقيدها، تعرض على الحكومة هدايا باهظة الكلفة مقابل العلاقات الطيبة. كان لجزيات من هذا الصنف أن تقدّم إسعافاً ترحب به الخزينة الصينية التي لم تكن في خير صورة بعد نزاع داخلي مُكلف.

بلغ عدد السفن المنضمة إلى الأسطول الأول، سنة ١٤٠٤- ١٤٠٥م، أكثر من ثلاثمئة سفينة، وكان بعضها من الجونكات الضخمة الموصوفة أعلاه. كان مما يثير الانطباع بالقدر نفسه مجموعة مِلاك السفن. كان على متن السفن نحو ٣٠٠ قائد عسكري من مختلف الرتب، وكان لكل ربان السلطة أن يحكم بموت كل من يثير المشاكل. كان موجوداً أيضاً نحو ٢٨٠٠٠ مقاتل. أُرسل منجّم للمساعدة في التنبؤ بالطقس. كان على متن السفن عشرة من الخبراء باللغات الأجنبية، اشتملوا على الأرجح على عارفين بالعربية وألسن آسيا الوسطى. وكان أيضاً ١٨٠ من الموظفين الطبيين والمختصين في علم العقاقير، لجمع الأعشاب من البلدان الأجنبية، وكذلك للتعامل مع الشؤون الصحية للطواقم. أما البحارة أنفسهم فكان أكثرهم مجرمين منفيين.

شُحنت السفن بالبضائع الصينية، ومن ذلك الحرير والخزف الصيني، وأيضاً شتى الأدوات والوسائل الحديدية. لم يحشد قط حاكم في أي مكان شهادة كهذه على مجده.

* * *

زارت البعثات الموانئ الكبرى جميعها في بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي؛ كان كل أسطول كثيراً ما ينقسم أقساماً، لتغطية أكبر قدر من المناطق.

إجمالاً، كان معنى هذه الاستراتيجية الشاملة أن الرحلات قد اشتملت على جنوبي شرقي آسيا ومن ذلك إندونيسيا، والهند وسريلانكا، وشبه الجزيرة العربية، وساحل أفريقيا الشرقي، حيث عُثر على الكثير من الصنعيات الصينية. تفاوض تشينغ خِه سلمياً على الترتيبات التجارية والجزية حيثما أمكنه ذلك، لكن اشتباكات مسلحة نشبت في سريلانكا (حيث أُخذ الملك أسيراً وحُمل إلى الصين، حتى أمكنه المساومة على إطلاقه) وفي الصومال، وكذلك في بقعة واحدة من الجزيرة العربية. كذلك وقعت بضع مناوشات مع القراصنة، الذين كانوا مصدر إزعاج كبير في المياه حول ما هو اليوم ماليزيا وإندونيسيا.

بلغ عدد الرحلات الإجمالي سبعاً، بين سنتي ١٤٠٥ و١٤٣٣م. أقامت بعثة سنة ١٤٠٩م نصباً في سريلانكا بالصينية والتاميلية والفارسية، يعبّر عن الاحترام للبوذية والهندوسية والإسلام؛ ورد في السجلات أن تشينغ خِه قد وهب هدايا سخية تكريماً لكل دين، ومن ذلك الفضة والحرير والزيوت العطرية والحلي الدينية.

إذا كان تشينغ خِه قد قدّم الهدايا، فقد تسلّم هدايا مقابلها، وقام أيضاً بتجارة مباشرة. جلب الصينيون إلى وطنهم النحاس وشتى التوابل من جنوبي آسيا وجنوبيها الشرقي واللؤلؤ والحيوانات المجلوبة، ومن ذلك زرافتين (عُرضتا لاحقاً في حدائق الحيوان الصينية). رجع سفراء كثيرون إلى الصين أيضاً، ثم عادوا لاحقاً في بعثة تالية.

ذهبت الظنون ببعض المؤرخين إلى القول إن الصينيين لربما نظروا خلسة، في إحدى البعثات، حول رأس الرجاء الصالح وألقوا نظرة على المحيط الأطلسي. بحسب رواية حالمة، توجهت إحدى البعثات في جهة مختلفة كلياً، فعبرت فعلياً المحيط الهادئ إلى الأميركيتين، لكن ببساطة لا دليل على هذا؛ الجدوى الأساسية للرواية هو تذكير قرّاء التاريخ أن يتعاملوا مع قصص الرحلات، حتى ذات الأثر الرجعي، بحذر مناسب.

لا نقاش في أن هذه البعثات كانت سلسلة مذهلة، اشتملت على عشرات الآلاف من الصينيين ارتحلوا رحلات لا سابق لها. لقد اعترف تشينغ خِه بالطموح الذي اشتمل عليه الأمر. وكتب لاحقاً:

«خوفنا الوحيد ليس على قدرتنا على النجاح. [بل] إن يكن الرجال قادرين على خدمة حاكمهم بكل ما أوتوا من ولاء تجرِ الأمور جميعاً بنجاح. إن يكونوا قادرين على خدمة الآلهة بمنتهى الإخلاص، تُستَجْب صلواتهم».

اشتمل محفّزُ الرحلات البحرية على أشياء غير قوة الإرادة: لقد استخدم الصينيون أيضاً أدوات ملاحية كانت لا تزال جديدة نسبياً كالبوصلة للإبقاء على وجهتهم ثابتة.

غادرت آخر بعثة سنة ١٤٣١م، وكان تشينغ خِه في الستينات؛ في الحقيقة، سوف يموت في رحلة العودة من الهند إلى الصين.

من الواضح أن الأميرال (والناس الكثيرين الذين صحبوه) جديرون بمنزلة بين أعظم رحالة التاريخ العالمي. من الجلي أن أنشطتهم كانت مختلفة نوعاً ما عن تجوالات أناس كابن بطوطة وماركو بولو. لقد كان تشينغ خِه رحالة حقاً، لكنه كان أكثر من ذلك، فكان منظّماً، والجهد الجماعي المتمثل في البعثات التجارية يصرف المرء عن المبالغة في الاهتمام بالأفراد الداخلين فيها. مع تحوّل أسفار المسافات الطويلة تحولاً متزايداً نحو البحار، تأخذ جهود المجموعة، بدلاً من حج الأفراد، في جذب الاهتمام الأكبر، علماً بأن التأكيد الصيني للتنظيم الضخم كان، بالطبع، شاملاً شمولاً غير معتاد.

وضْعُ تشينغ خِه مميز من جوانب أخرى قليلة. سريعاً، بعد عودة البعثة الأخيرة، قرّر الإمبراطور الجديد إنهاء السلسلة، وفي الحقيقة لقد انعطفت طبقة المسؤولين الصينيين انعطافاً حاسماً مناوئاً للتجربة كلها. دخل في ذلك بضعة عوامل: لقد أراد الحاكم الجديد البرهان على استقلاله عن سياسات أبيه. استلزمت المشاكل الجديدة مع المغول تمويلاً واهتماماً تنافسا بجلاء مع

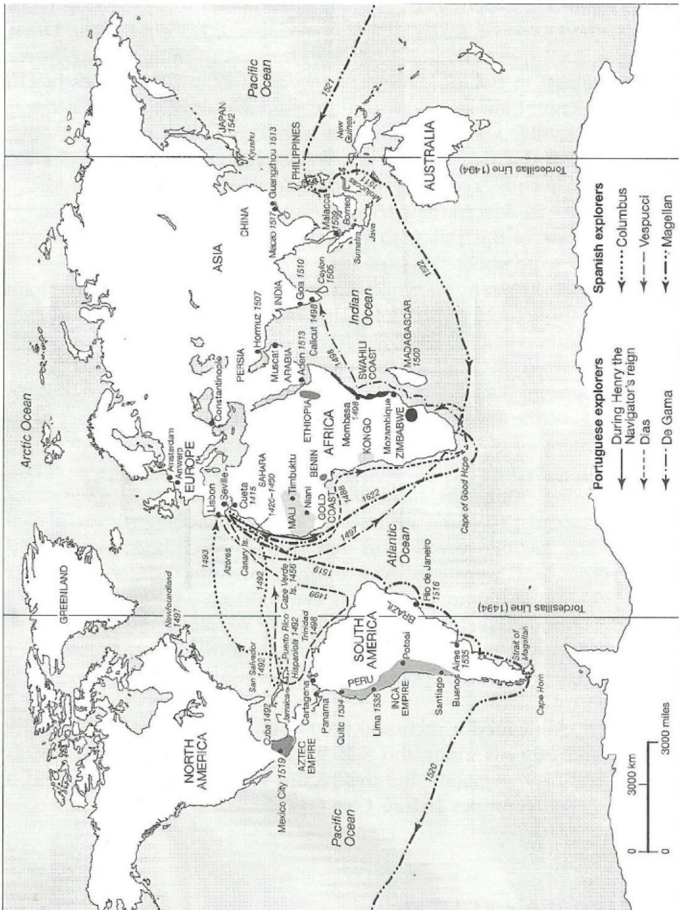
البعثات؛ في آخر الأمر، سيشتمل الرد من بين أشياء أخرى على استثمارات ضخمة في تجديد السور العظيم. برزت منافسة أخرى على التمويل من قرار تشييد عاصمة جديدة باهظة التكاليف لمينغ في بكين، حيث ابتدأ تشييد القصور الباذخة تقريباً في نفس وقت إلغاء الترخيص لإعداد أسطول جديد. كذلك ربما لعب دوراً مقتٌ بيروقراطيٌّ وكونفوشيٌّ للإكثار من التجارة. لقد أصدر مستشارو الإمبراطور بيانات تتوافق مع خطوط «مَنْح أهل المملكة الوسطى فترة راحة ليكرسوا أنفسهم للزراعة والتعليم المدرسي».

كان من النتائج الأخرى لهذا التحول في السياسة، بدوره، أنه لم يكد أحد يلقى تشجيعاً ليكتب عن البعثات، فضاعت سجلات تشينغ خِه، عمداً على الأرجح. وهكذا، مع أنها كانت رحلة عظيمة، فهي لن تنتج – وفي هذا مباينة مرة أخرى لابن بطوطة أو آل بولو – عملاً أدبياً عظيماً، أو انطباعاً دائماً كبيراً في الصين نفسها.

استمر الرسل من جنوبي شرقي آسيا وما وراءها يأتون إلى الصين لبضعة عقود في أواسط القرن الخامس عشر. لقد ظلت، بهذا المعنى، أصداء من تجربة الرحلات تتردد. لكن حتى هذه أخذت تتلاشى، كلما صارت ذكرى التمدد الصيني العظيم أكثر بعداً.

عمل موظف حكومي قوي سنة ١٤٧٧م محاولة أخيرة لإحياء ركوب البحر الصيني. طالبَ وانغ تشي، رئيس الشرطة السرية الإمبراطورية، بسجلات تشينغ خِه، لاستثارة الاهتمام ببعثات جديدة. لكن وزيراً للحربية منافساً أخفى السجلات ولعله أحرقها. لقد ادعى أن سجلات السفينة اليومية كانت «مبالغات خادعة بأشياء شاذة شديدة البعد عن شهادة أعين الناس وآذانهم»، كانت صفعة مباشرة لفكرة السفر المغامر. كما قلل من شأن نتائج البعثات، محاججاً بأنها كلفت كميات ضخمة من المال والكثير من الأرواح مقابل «عصي الخيزران وخمر العنب والرمان وبيض النعام وما شاكل ذلك من الأشياء الدخيلة».

لقد ظل للصين سجلّ يتكرر دورياً من السفر الطموح، من التجار والموظفين على طول طريق الحرير إلى الحجاج البوذيين إلى تشينغ خِه وزملائه. لكن هذا السجل انقطع في المرحلة المشار إليها، وسوف تمر بضعة قرون قبل أن تحاول الصين من جديد إرسال أناس إلى أماكن بعيدة.



«انفجار القرن الخامس عشر» (المترجم)]

مسالك أوروبية جديدة

حتى قبل قرار الصين بوقف بعثاتها، كان الأوروبيون ماضين في تجريب مسالك للسفر جديدة مثيرة، في المحيط الأطلسي ونزولاً على الساحل الإفريقي. استمر الأفراد، كما رأينا، يتحركون خلال الشرق الأوسط وما وراءه. لكنّ انتهاءَ السلام المغولي، ونزعاتِ الطموح الجديدة لدى حكام البرتغال وأمثالهم، والرغبةَ في البحث عن صلات مع آسيا لا تشتمل على اجتياز الأراضي العربية كانت جميعاً عوناً على توليد دافع نحو ابتكارات أساسية في الأسفار الأوروبية أكثر من قبل. دخلت الميدان أيضاً الروح الصليبية: لقد انقضت الحملات الصليبية بمعناها الحرفي، لكن بعض ما شجعته من حماسٍ دينيً وتذوقٍ صِرف للمغامرة كان عوناً على توليد دافع نحو أصناف جديدة من التمدد؛ ينطبق الأمر نفسه على عقابيل حروب الاسترداد التي شُنت على المسلمين في إسبانيا والبرتغال.

بالطبع، لم يكن شيء من هذا مرتبطاً بقرار إنهاء البعثات الصينية، وفي الحقيقة لم يكن الكثير من الغزوات الأولية في المحيط الأطلسي يستهدف آسيا بوضوح البتة (وإن كان بعضها قد فعل). لكن القرار الصيني قد أزال منافساً للرحلات محتملاً في المحيط الهندي، الذي صار هدفاً يجتذب المخاطرات الأوروبية على نحو متزايد بحلول القرن الخامس عشر.

على مثال البعثات الصينية، لكن بمزيد كفاءة، استثارت التقانات الجديدة البحث الأوروبي عن استعمالات جيدة للمحيطات. كان أكثرها - استعمال البوصلة والأدوات الملاحية الأخرى، وتبني الأشرعة التي يرجع أصلها إلى المحيط الهندي، والتعويل على البارود - قد اقتُرِض من آسيا سابقاً. لكن الأوروبيين صقلوا الأدوات - مثال ذلك أنهم أدخلوا المدافع لتسخير البارود - وجمعوا بينها لإحداث آثار لا سابق لها. تجاوزت النتائج نطاق الرحلات، لكنها أظهرت مرة أخرى كيف صارت طبيعة الرحلات ومداها في تغيّر بحلول القرن الخامس عشر.

لقد ارتحل الأوروبيون في المحيط الأطلسي قبل ذلك. أكثر ما يجدر بالملاحظة منه هو أن الإسكندنافيين قد عبروا إلى إيسلندا وغرينلند وإلى شمالي أميركا لفترة وجيزة. لكنهم لم يُنتجوا سجلات مكتوبة، ولم تتغلغل المعرفة برحلاتهم البحرية في المراكز الأوروبية في الجنوب. من زمان طويل دبّ التجار صاعدين ساحل أوروبا الأطلسي نفسه، من المتوسط إلى بريطانيا؛ سنة ١٣١٩م أخذ البنادقة يرسلون ما أسموه سفن فلاندرز الشراعية بانتظام بين مدينتهم وبحر الشمال. لكن هذه الرحلات، مع أهميتها، كانت محدودة، تتشبث عادةً بخط شاطئ الأطلسي تشبثاً وثيقاً نسبياً. وعليه فإن القرارات، التي اتخذها مزيج من المغامرين والوكلاء الحكوميين، لسبر هذا المحيط العظيم بمزيد من الشمول إبَّان القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد شكّل بالفعل مسعى أوروبياً جديداً لإنشاء مسالك سفر خاصة بهم، بدلاً من الاعتماد على الانتقال خلال مجتمعات أخرى مخيفة في شمالي أفريقيا وآسيا.

غادرت رحلة أولى معروفة، قام بها الأخوان فيفالدي، جنوا سنة ١٢٩١م «إلى مناطق الهند بطريق المحيط» - فكانا بذلك سابقين لكولومبوس بقرنين. لكن لم يكن لديهما القوارب الملائمة لمياه الأطلسي الهائجة، ولم يُسمع عنهما بعد ذلك شيء.

في وقت ما بعد ذلك بعقود، وصلت بعثات إلى جزر كناري. حصلت سنة ١٣٤١م تعريجة كبرى، وإن لم تكن الأولى، اجتمع فيها مِلاك من الجنويين والبرتغاليين والإسبان واستُكشف الكثير من الجزر في المجموعة. بحلول خمسينيات القرن الرابع عشر أخذت الرحلات المنتظمة تصل أوروبا وأفريقيا بهذه الجزر - وصل الأوروبيون كمبشرين، ولكن أيضاً كتجار ومنظّمين لمزارع السكر، والأفارقة مقبوضاً عليهم كعبيد للعمل في المزارع نفسها. أدت هذه المبادرات، والخرائط المحسّنة الناتجة عنها، إلى احتكاكات ورحلات مماثلة إلى جزر آزور.

بحلول القرن الخامس عشر، أخذ المغامرون البرتغاليون، وقد استثارتهم هذه الاستكشافاتُ وكذلك إدراكُ أن الآمال الأولية في العثور على الذهب في جزر كناري قد خابت، يبحرون نزولاً على ساحل أفريقيا الأطلسي، مغطين بثبات المزيد والمزيد من المسافات. بحلول سبعينيات القرن الخامس عشر، التفّت البعثات حول منتفخ شمالي أفريقيا فولجت المحيط الأطلسي، وصارت تدخل في احتكاك كامل مع شعوب الساحل الأفريقي تحت الصحراء وتجاره. كان هذا مصدر التفاعلات مع الكونغو وبينين الذي أدى أيضاً، كما رأينا، إلى رحلات أفريقية جديدة إلى أوروبا.

في أثناء سبعينيات القرن الخامس عشر وثمانينياته، استقواءً بالنجاح في جزر كناري وغيرها من الأماكن، كانت مجموعات من كل الأصناف تخاطر داخلة المحيط الأطلسي، باحثة عن جزر إضافية أو مكاسب أخرى. ازدادت داخل هذا الإطار الرحلات الأطلسية من إنكلترا وفرنسا. اتسعت الرحلات من مدينة بريستول الإنكليزية وإيسلندا، على هامش التجارة؛ لكن أهل بريستول كانوا أيضاً يقومون بالاستكشاف الصريح، آملين في العثور على ما كانوا يدعونه «برازيل». وضِع للرحلات عنوان «ابحث وجِد». كذلك أرسل البرتغاليون بعثات أخرى، اتخذت أهدافاً مبهمة إبهاماً طموحاً للاستيلاء على «كل ما قد يعثر[ون] عليه من جزر». لقد كان الأوروبيون المخاطرون يرتحلون في وجهات جديدة ويبحثون عن المزيد.

بالطبع، في تسعينيات القرن الخامس عشر، اتسعت الرحلات أكثر فأكثر، استناداً إلى هذه الأسبقيات. استعمل كولومبوس، في بحثه عن الهند، جزر كناري كنقطة اندفاع له، وكان في الحقيقة يتحرك متقدماً قليلاً داخل المحيط، معتقداً أن الأطلسي فجوة مائية ضيقة بين هذه النقطة وآسيا. لقد أخطأ في الحساب من كل الوجوه، وتعيّن عليه السفر لاثنين وثلاثين يوماً، أكثر مما توقعه بكثير، فعثر على مكان لم يكن هو الهند التي ظنها. بدلاً من ذلك بَنَتْ الرحلة الريادية الأخرى، وقام بها فاسكو دا غاما بين سنتي ١٤٩٧ و١٤٩٩م،

على الاستكشافات الساحلية الأفريقية، فوصل هذه المرة إلى رأس الرجاء الصالح ودار حوله ليصل إلى الهند. عاد سنة ١٥٠٢م، مستعملاً مدفعيته ووحشية كبيرة للبرهان على القوة الأوروبية. أنشئت فوراً رحلات منتظمة بين البرتغال والهند – خمس رحلات في السنة منذ سنة ١٥٠٤م– أتاحت واردات ضخمة من التوابل بكلفة منخفضة نسبياً.

من الجلي أن كولومبوس ودا غاما كليهما قد شجعا المزيد من الرحلات. تضاعفت الرحلات الإسبانية إلى أميركا في أوائل القرن السادس عشر، وسرعان ما تلتها مسالك إسبانية خلال المحيط الهادئ إلى الفيلبين ومناطق أخرى من آسيا. بعد دا غاما، وبسرعة على نحو مذهل – بحلول سنة ١٥٠٩م، تحرياً للدقة، لأن الإشارة إلى انفجار حقيقي في الرحلات ليست مبالغة – كان البرتغاليون قد أبحروا وراء الهند إلى ماليزيا، ومن هناك إلى كل من إندونيسيا (جزر التوابل) وإلى الصين. وعليه فإن الأوروبيين كانوا في الوقت المشار إليه ينسخون مسالك البعثات الصينية الكبرى، لكن من الجهة الأخرى وبدوام أكبر.

سنة ١٥٢٠م، كما لو كان المراد تتويج هذا القرن، وبمزيد من النشاط المتسع، أطلق المستكشف الإسباني ماجلان، مع طاقمه، أول بعثة للسفر حول العالم حرفياً. داروا حول رأس أميركا الجنوبية من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ، ومضوا قدُماً إلى الفيلبين (حيث قُتل ماجلان على يد الفيليبينيين). استأنف الطاقم، تحت قيادة ربان جديد في الوقت المشار إليه، الإبحار خلال المحيط الهندي عائدين إلى إسبانيا. لقد وجد الرحالة أخيراً أطول الرحلات قاطبة، على الأقل على هذا الكوكب.

خاتمة: آفاق جديدة

سوف تتضخم الأسفار أكثر من ذلك خلال القرن السادس عشر، بالانتظام المتزايد للرحلات خلال المحيطين الأطلسي والهادئ، وبتعريجات روسية كبرى ليس فقط على وسط آسيا بل على شمالها الشرقي، وبالشحن

البحري المنتظم بين بريطانيا وروسيا، وبمستويات جديدة من التبادل برعاية أوروبية بين أفريقيا والأميركيتين وداخل الأميركيتين.

ظلت الاحتكاكات الجديدة والخيالات المحلّقة ممكنة، حتى بعد القرن السادس عشر. في الحقيقة، في أوائل القرن السابع عشر، وبالتحديد نحو سنة ١٦٣٨م، أخذ العلماء والزعماء الدينيون الإنكليز، وسرعان ما انضم إليهم الجمهور الأوسع نطاقاً، يتناظرون في القدرة على الحياة على القمر. لم يكن التخمين جديداً كلياً، لكنه اشتمل في الوقت المشار إليه على كيفية التوافق بين السكان القمريين والمسيحية. لكن الأكثر صلة بالموضوع هو أن النقاش نفسه ولّد في الوقت المشار إليه فكرة السفر في الفضاء، الذي يؤدي إلى الاحتكاك المنتظم بين البشر والكائنات القمرية. تناولت بضع روايات أدبية بالوصف رحلات إلى القمر، قام بها بحارةٌ سحبتهم إلى الأعلى زوابع أو رحالةٌ رفيع المقام، يدعى مينيبوس، تزوّد بجناحين ووثب «مباشرة نحو السماء»، واستطاع في آخر أمره النظر إلى الأرض من السطح القمري. إن عصراً من الرحلات المتسعة قد أبرز أيضاً، ولم يكن ذلك عجباً، تحليقات متسعة للخيال: لربما توجد رحلات يمكنها أن تمدّ في المستقبل نطاق المقدرة البشرية كما فعلت في الماضي.

الفصل العاشر

الخاتمة

أهمية الرحلات في التاريخ العالمي جلية. كان الرحالة الأولون - بعضهم نعرفه، وأكثرهم لا يمكننا أن نسبر غوره إلا على نحو مبهم - عوناً على عمل صلات بين الأقاليم بأساليب كان لها مضامين ثقافية وتجارية وتقانية جلية. لقد كانوا عوناً على أن تتسخ المجتمعات بعضها عن بعض. استطاعوا تشجيع المجتمعات على القيام بتفاعلات منتظمة، منشئةً شبكات تجاريةً منظّمةً أو مبادلات طلابيةً منتظمةً أو توسعةً للإمبراطوريات أو أنظمةً للجزية. إذا كان من النادر أن يسهل التعيين الدقيق للعواقب المحددة لرحلة مفردة فإن الأثر التراكمي واضح وضوحاً كافياً.

ولما تعززت الرحلات بالرواية المنهجية لها، كما رأينا، فإن النتائج قد تُضخَّم. كان الوقود المحرك للرحالة إما الطموح أو الصلاح أو الفضول أو الطمع أو توليفات مركبة من بضعة دوافع من هذه. لقد أمكن لرواياتهم أن تكون عوناً على استثارة دوافع مماثلة في غيرهم وعلى نقلها إليهم.

لم يكن عجباً، ولا سيما من العصر الكلاسيكي فصاعداً، أن رأينا أن الرحلات قد مضت في فورات، لكن على وجه الإجمال كانت مجموعة واحدة من تجارب السفر تنزع إلى أن تقدم للآخرين أساساً يصبح أكثر طموحاً. بهذا المعنى، لقد بنى انفجار الرحلات في القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر، مع كونه ابتكارياً بطرق كثيرة، على إنجازات سابقة. لقد كان الابتكار بمعظمه نتيجة للبحث عن طرق جديدة للالتفاف على عوائق جديدة - مثال ذلك نتائج

الانهيار المغولي في تحويل الانتباه عن السفر براً والعودة به إلى البحار – لأجل مدّ نطاق النتائج التي كان قد سجلها الرحالة الأولون.

بالكاد انتهى تاريخ الرحلات مع أوائل القرن السادس عشر. لقد كانت رحلات منتظرة بطولية كثيرة، إلى مختلف أرجاء الأميركيتين، إلى أماكن إضافية من أفريقيا، إلى أوقيانوسيا في المحيط الهادئ. إن الالتزام الأكثر انتظاماً بالرحلات العالمية والأدوات الملاحية الجديدة وتقانات النقل بالكاد جرّدت الرحلات من الخطر. يمكن للحوادث وانعدام النظام والقرصنة أن تظل تُفسد الرحلات في القرن الحادي والعشرين.

لكن، لا نقاش في أنه مع الأزمنة الأكثر حداثة صار الكثير من الرحلات، مع كونها أكثر أهمية بسبب تعاظم الانتظام والحجم، أكثر روتينية على نحو قليل. إن الرحلات التي كانت قد لعبت دوراً كبيراً في عقد صلات جديدة ابتداءً من المجتمعات البشرية الباكرة إلى القرن الخامس عشر قد احتوت أيضاً على نزعة مغامرة بطولية صار، بالتدريج، من العسير نسخها، ببساطة لأن الكثير الكثير من الرحلات الريادية قد أُنجز. ليس بين رحالة العصر الأكثر حداثة إلا القليل ممن يستدعي ذِكْرهم هول أسماءٍ كابن بطوطة أو ماركو بولو أو شوانتسانغ.

وهكذا، فمن الإنصاف أن نتساءل، إلى جانب التقويمات الأكثر دقة للتغيرات والاستمرارات في الرحلات ونتائجها: إلى أين يتوجه الآن ذلك النوع من الروح المتسائلة؟ إلى أين يوجه الابن جبيريون أو البيجينغيون المتأخرون طاقاتهم؟ كم من نزعة المغامرة لايزال مرفقاً باللبكة والسرعة سِمَتَيْ الرحلات المعاصرة؟.

فهرس

الصفحة

الصفحة

المؤلفان

ستيفن س غوش:

درّس التاريخ العالمي في جامعة ويسكونسن– أو كلير الأميركية طوال السنوات الخمس والعشرين الماضية. هو المؤلف المشارك (مع بيتر ن ستيرنز وإرنست غريشابر) لكتاب وثائق في التاريخ العالمي، (لونغمان، ٢٠٠٦).

بيتر ن ستيرنز:

أستاذ للتاريخ في جامعة جورج ميسن الأميركية.

من مؤلفاته:

- الجنوسة في التاريخ العالمي (٢٠٠٠).
- النزعة الاستهلاكية في التاريخ العالمي (٢٠٠١).
- الحضارة الغربية في التاريخ العالمي (٢٠٠٣) وصدرت جميعاً عن روتليدج.

من مؤلفاته الأخرى الحديثة:

- الخبرة العالمية النطاق (لونغمان، ٢٠٠٥).

وفيق فائق كريشات

مترجم سوري. من أعماله المترجمة:

١- بذور الكلام: أصل اللغة وتطورها.

٢- رحلة الرجل: ملحمة وراثية.

٣- الفلسفة الشرقية.

٤- الطفولة في التاريخ العالمي وغيرها.

الطبعة الأولى ٢٠١٧/

كلمة الغلاف

يبرز هذا الكتاب بعضاً من أعظم الرحالة في التاريخ العالمي – الناس الذين أخذوا على عاتقهم القيام بأسفار بعيدة إلى أماكن كان علمهم بها، في الغالب قليلاً أو معدوماً، ثم رجعوا إلى ديارهم لإشراك الآخرين في خبراتهم.

من هيرودوت والسياح الرومان، إلى إنشاء طريق الحرير، إلى رحلة ملحمية صعبة من الصين إلى الهند في القرن السابع، إلى ماركو بولو وابن بطوطة، إلى أولى التأملات في السفر الفضائي، يقدّم «الرحلات في التاريخ العالمي (العصور قبل الحديثة)» نظرة عامة إلى رحلات المسافات الطويلة في أفريقيا وآسيا من ٤٠٠ قبل الميلاد إلى عام ١٥٠٠م.

يستعمل هذا المسحُ الروايات التي خلّفها أصحاب الرحلات الملحمية في العالم قبل الحديث كعدسات يتفحص من خلالها تطورَ السفر والتجارة والنقل والتبادل الثقافي بين الصين وآسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط وأوروبا، مع مناقشته أيضاً موضوعات مثل قيام الإمبراطوريات وانتشار الأديان العالمية.

تحلل هذه الدراسة الوجيزة والشيقة، المكملة بالخرائط أيضاً كيف شكّلت الرحلات حدود الجبهات السياسية والجغرافية والثقافية.